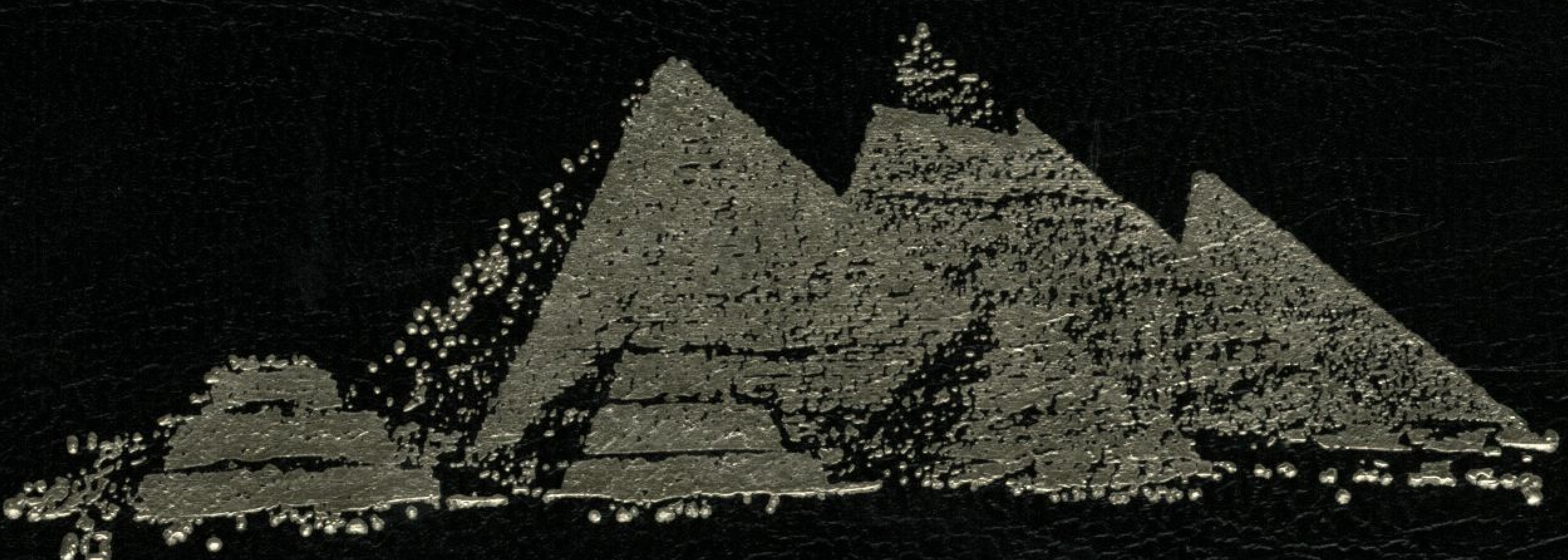
موسوعة
عظماء في تاريخ مصر





عظماء

في تاريخ مصر

(٢)

موسوعة

عظماء في تاريخ مصر

المجلّد الثاني

إبراهيم باشا - 2 -

١٨٤٨ _ ١٩٤٨

مجموعة مؤلفين

دار نوبليس

اسم الموسوعة: عظماء في تاريخ مصر

اسم الكتـــاب: إبراهيم باشا - ٢ -

المؤلـــــف: مجموعة مؤلفين

قياس الكتـاب: ١٧ × ٢٤

عدد الصفحات: ٢٠٠

عدد صفحات الموسوعة: ٤٢٣٦

مكـان النشـر: بيروت

دار النشر والتوزيع: دار نوبِليس

تلفاكس: ٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١

هاتـف: ٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ - ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١

صندوق بريـد: ٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان

بريد إلكتروني: info@nobilis-int.com

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

EAN 9786144031346

ISBN 978-614-403-134-6

حرب كريت والمورة

(١٨٢١ — ١٨٢٨)

للبكباشى (ا ٠ ح)

أحمد فهيم بيومى

مدرس بكلية أركان الحرب الملكية

محتويات البحث

٣ — الفصل الثالث : المرحلة الأولى :

أعمال الثوار .

أعمال الأتراك .

عصب الثورة .

الانحراف عن مبادئ الثورة .

إستعانة تركيا بالأسطول المصرى .

الحملة المصرية على كريت .

الحملة المصرية على المورة .

المنظار الذى يجب أن ننظر به لهذه الحملة .

الاستعداد للحملة .

الحرب البحرية على شواطئ الأناضول .

توحيد القيادة .

القائد المصرى إبراهيم باشا .

تأمين خطوط مواصلاته .

انتهاء المرحلة الأولى من هذه الحروب .

٤ — الفصل الرابع : المرحلة الثانية :

(١) تخليص كورون والاستيلاء على نفارين .

مسرح العمليات .

طبيعة أرض المورة .

موارد الميـاه .

المنـاخ .

المواصـــلات .

حالة الأتراك عند نزول القوات المصرية إلى المورة .

خطة إبراهيم باشا للغزو .

الاستكشاف والوقاية .

إنقاذ كورون .

حصار نفارين .

استسلام نفارين .

التحليل الفنى لهذه المعركة .

مبدأ المحافظة على الهدف .

مبدأ ادّخار القوى .

مبدأ خفة الحركة .

مبدأ التعرّض أو القتال الهجومى .

مبدأ المفاجاة .

مبدأ التعاون .

مبدأ الوقاية .

مبدأ حشد القوى .

الدروس المستفادة من هذه المعركة :

(ا) أهمية القائد فى المعركة .

(ب) أهمية الضبط والربط فى النيران والتدريب الجيد للجنود .

(ح) أهمية التعاون بين القوات المحاربة .

(د) أهمية الخيالة فى الأراضى الوعرة لقطع مواصلات العدو .

(هـ) أهمية المطاردة .

الروح التى خاض بها إبراهيم باشا غمار هذه المعركة :

مهاجمة السفن اليونانية لسواحل مصر .

الموقف العام بعد هذه المعركة .

٥ — الفصل الخامس : تابع المرحلة الثانية :

(٢) احتلال المورة .

تطهير بيليا .

حشد قوّاته فى نيسى .

تأمين خطوط مواصلاته قبل الزحف .

فتح كالاماتا .

الاستيلاء على تريبوليتسا .

توفير المؤن وتنظيم الشئون الإدارية .

احتلال بتراس .

الموقف فى نهاية عام ١٨٢٥

التحليل الفنى لهذه المعارك :

(ا) مبدأ المحافظة على الهدف .

(ب) « القتال التعرّضى .

(جـ) « خفة الحركة .

(د) « الوقاية .

(هـ) « حشد القوى .

(و) « المفاجأة .

(ز) « التعاون .

الدروس المستفادة من هذه المعارك :

(ا) أهمية تأمين قاعدة للعمليات .

(ب) « اتخاذ قوات العدو دون المواقع الجغرافية هدفا للهجوم .

(ح) « خفة الحركة فى الهجوم والمطاردة فى الأراضى الجبلية .

(د) أثر الروح المعنوية فى القتال .

(ه) أهمية الاستكشاف وتأمين خطوط المواصلات .

(و) أهمية توفير المطالب والشئون الإدارية محليا للوحدات .

٦ — الفصل السادس : تابع المرحلة الثانية :

(٣) فتح ميسولونجى وأثينا .

حالة الأتراك أمام ميسولونجى .

مسارعة إبراهيم باشا لنجدة رشيد باشا .

خطة إبراهيم باشا للاستيلاء على ميسولونجى .

سقوط ميسولونجى .

حصار أثينا .

التحليل الفنى لمعركة ميسولونجى :

(ا) مبدأ المحافظة على الهدف .

(ب) مبدأ حشد القوى .

(ج) مبدأ القتال التعرضى .

(د) مبدأ المفاجأة .

(هـ) مبدأ التعاون .

الدروس المستفادة من معركة ميسولونجى .

(ا) أهمية الخطة والدقة فى تنفيذها .

(ب) أهمية إحباط نوايا العدو للمفاجأة .

الموقف العام بعد سقوط ميسولونجى وأثينا .

انتهاء المرحلة الثانية من مراحل حرب المورة .

٧ — الفصل السابع : المرحلة الثالثة :

معاهدة لوندرة .

مقدمات معركة نفارين البحرية .

معركة نفارين البحرية .

موقف إبراهيم باشا بعد معركة نفارين .

اختلاف وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة نفارين .

الاتفاق بين مصر والحلفاء على إخلاء الجيش المصرى لبلاد المورة .

عودة إبراهيم باشا ورجاله .

انتهاء المرحلة الثالثة .

٨ — الخاتمة : نتائج حرب المورة وكريت :

خسائر مصر فى هذه الحملة .

ما كسبته مصر من هذه الحملة .

(ا) الكسب المادى .

(ب) الكسب المعنوى .

استقلال مصر .

مقـــدمة

تعـد حرب المورة وكريت إحدى الأعمدة الرئيسـية[1] التى شاد عليها عاهل مصر العظيم محمـد على باشا الكبير بنيان امبراطوريته الرائعـة ... والحق إن هـذه الحملة، رغم قصر عمرها وقلة مواقعها الرئيسـية وكثرة انتشار سحابات المآسى المحزنة فى سماء أحداثها، تضم بين جوانحها أروع المثـل القيمة وأسـوأ النتائج المؤلمة ! .

فهى تظهر لنـا جليا ما أصـاب « الرجل المـريض »[2] من سوء مآل عندما أحست أجزاء امبراطوريته بالضعف وقـد بدأ يدب فى جسده السقيم ... وتوضح لنـا ضرامة أتون الثورات الاستقلالية وسريان انتشارها فى البـلاد كسرى النار فى الهشيم ... ثم تطلعنا على ثعلبـة رجال السياسة ومكرهم الذى لايغيض ... وخلال ذلك كله تبهر أنظارنا بقوة " محمد على باشا الكبير " وروعة شبله " إبراهيم باشا " الذى أذاق الثوار العصاة حدة حسام المصريين وضراوة بأسهـم وقوة شكيمتهم ، والذى أخاف دول أوربا من سطوع شمس العسكرية المصرية فعملوا فى خبث ودهاء وتحت أستار ظلام الخديعة على تحطيم قوة مصر البحرية الناشئة التى — رغم استقرار معظمها قبل نهاية هذه الحرب فى قاع اليم — لم تخمد تلك الشعلة بل كانت تتقد وتتزايد لتذهلهم بعد ذلك فى حروب أخرى لامعة .

والحديث عن هـذه الحملة جد شيق وطويل يود الباحث فى أبحاثه المتشعبة لو يقف به الزمن فيتيـح له الاطلاع الوافى على جميـع المراجع العـديدة والمختلفة ولو تطلق يده من عقالها لتسطر المجلدات الضخمة الحاوية لشتى العوامل والأحداث والمعارك محللة تحليلا عسكريا دقيقا ومذيلة بالدروس المستفادة من كل منها .

... أما وأن ذلك غير متاح لنـا فى مجالنا الآن فسأوجز رسالتى هـذه فى ذلك الحـيز المضروب جاعلا جل اهتمامى للناحية العسكرية غير مهمل جميـع الأحداث التاريخية أو المقدمات الباعثة لهذه الحرب .

(١) كتاب « مؤسس مصر الحديثة » لدودويل ص ٦٨ (٢) الاسم الذى أطلق على تركيا إبان ضعفها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . مجلة « الكاتب المصرى » عدد ٦ مجلد ٢ ص ٢١٤

جدول زمنى يبين تواريخ الأحداث المختلفة والمعارك الهامة التى وقعت إبان هذه الحرب

رقم مسلسل	التاريخ	الحادثة أو المعركة	ملاحظات
١	عام ١٨١٥	بدء تكوين جمعية الأصدقاء فى موسكو وبخارست وتريستا	
٢	٦ مارس ١٨١٥	مذبحتى جالاتز وياسى	سببت تخلى روسيا عن هبسلنت
٣	أول أبريل ١٨٢١	اشتعال الثورة اليونانية والاستيلاء على كالاماتا	
٤	يونيو ١٨٢١ — فبراير ١٨٢٥	المرحلة الأولى	
٥	يونيو ١٨٢١	سقوط نفارين فى أيدى الثوار	
٦	٥ أكتوبر ١٨٢١	سقوط تريبوليتسا فى أيدى الثوار	
٧	٢١ يونيو ١٨٢٢	تقدّم الدراملى لغزو الموره	
٨	عام ١٨٢٣	هزيمة الدراملى وسقوط نوبلى فى أيدى الثوار	
٩	٢١ أغسطس ١٨٢٣	وصول أوّل قرض بريطانى للثوار مع لورد بيرون	
١٠	يونيو ١٨٢٤	إخماد ثورة كريت وقبرص	
١١	١٦ يناير ١٨٢٤	إصدار فرمان بدعوة محمد على باشا إلى تجريد جيشه على الثوار فى الموره	
١٢	يوليو ١٨٢٤	إبحار الحملة من الاسكندرية	
١٣	ديسمبر ١٨٢٤	عودة إبراهيم باشا إلى كريت وانتهاء المرحلة الأولى فبراير سنة ١٨٢٥	

(تابع) الجدول الزمنى

رقم مسلسل	التاريخ	الحادثة أو المعركة	ملاحظات
١٤ م	فبراير ١٨٢٥ — يونيــو ١٨٢٧	المرحلة الثانيــة	
١٥	٢٦ فبراير ١٨٢٥	نزول إبراهيم باشا وجنوده فى أرض المورة	
١٦	٥ مارس ١٨٢٥	إنقاذ كورون	
١٧	١٨ مايو ١٨٢٥	الاستيلاء على نفارين	
١٨	١٢ يونيو ١٨٢٥	« « كالاماتا	
١٩	٢٣ يونيو ١٨٢٥	« « تريبوليتسا	
٢٠	٢٧ يوليو ١٨٢٥	« « بتراس	
٢١	٢٢ ابريل ١٨٢٦	« « ميسولونجى	
٢٢	يونيــو ١٨٢٧	« « أثينا وانتهاء المرحلة الثانية	
٢٣	يوليو ١٨٢٧ — أكتوبر ١٨٢٨	المرحلة الثالثــة	
٢٤	٦ يوليــو ١٨٢٧	معاهدة لوندرة	بين انجلترا وفرنسا وروسيا
٢٥	٢٠ أكتوبر ١٨١٧	معركة نفارين البحرية	
٢٦	أغسطس ١٨٢٨	الاتفاق بين مصر والحلفاء على إخلاء المورة	
٢٧	أكتوبر ١٨٢٨	إبحار الجيش المصرى من المورة إلى مصر	
		انتهاء المرحلة الثالثة	

الفصـــل الاول

ثورة الاغريق

الجمر تحت الرماد :

أهلّ القرن التاسع عشر على اليونان وهى ترسف فى أغلال الاحتلال يحكمها الولاة الأتراك الذين ترسلهم حكومة الأستانة ليذلوا رقاب أبنائها وليخنقوا حرية أفرادها، ولكن أهلها رغم تظاهرهم بالولاء والاستكانة كانوا يتطلعون إلى الاستقلال شأن كل شعب حر كريم لا يقبل المذلة أو يرضى بالضيم . ولذلك نشط شبانهم وأعيانهم فى تأليف الجمعيات السرية لتنظيم الثورة والخروج على ذلك الحال البغيض ببث تعاليمهم فى أنحاء البلاد واستمالة الرأى العام فى الدول الأوربية المختلفة[1] فكوّنوا فى عام ١٨١٥ أول هيئة سرية لهم جعلوا مقرها فى موسكو وبخارست وتريست[2] لتكون على اتصال بالحكومات الأوربيـة التى تعطف على مبادئهم وبمنجاة من اضطهاد الحكام الأتراك وأطلقوا عليها اسم "جمعية الأصدقاء" (فيليكيه هيتاريا[3]) وكانت أهدافها :

(أولا) إنقاذ الشعوب الهيلينية من ذل الاستعمار .

(ثانيـا) طرد الأتراك من بلادهم .

(ثالثـا) التخلص من حكم ولاة الأستانة .

(رابعـا) إحياء الامبراطورية الأرثوذكسية فى الشرق[4] .

ولقد نجحت هذه الجمعية بعض النجاح فى غرس بذور العصيان خلال الأعوام الثلاث الأولى من بدء تكوينها ثم ما لبث أن قوى نفوذها بانضمام كل ذى مكانة

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ١٩٦

(٢) ابراهيم مصر لكربيتس ص ٤٦

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٥٨

(٤) كتاب التيارات الرئيسية للتاريخ الأوربى لهيرنشو ص ١٦٢

فى اليونان من الشبان والأعيان ورجال الدين إليها وتولى زعامتها الميجر جنرال "هبسلنت" — وهوضابط يونانى كان يعمل ياورا لدى قيصر روسيا "اسكندرالأول" — فى ٢٧ يونيو عام ١٨٢٠ بجعل هدفه الأول طرد الأتراك من أوربا وبدأ بقيادة الثورة فى (ياسى) من أعمال ولايتى البغدان (ملدافيا) والأفلاق (رومانيا) فهاجم (ولاشيا وملدافيا) حيث دخل عاصمة الأخيرة فى ٦ مارس عام ١٨٢١ دون مقاومة تذكر وهناك جرّد الأتراك من سلاحهم وأعدمهم عن بكرة أبيهم فى مذبحتى (جالاتز وياسى) مما أثار حفيظة قيصر روسيا عليه فأسقط اسمه من كشف الجيش الروسى وتخلى عن مؤازرته رغم أن هبسلنت هذا قد اختار هذه البقاع خصيصا لحركاته الأولى كى يكون بمقربة من روسيا فتمدّه بالجيوش والعتاد !! على أن هذا كله لم يمنع اليونانيين من تحديد شعار ثورتهم وهو " اليونان لليونانيين كما وأن رومانيا للرومانيين "[1] فأحست تركيا بوجود الجمر المتقد الحار تحت الرماد وشرعت تعمل جاهدة على استعادة " ملدافيا " .

اشتعال نيران الثورة :

وكانت ثورة على باشا تبلان حاكم "يانينا" على السلطان عام ١٨٢٠[2] هى الريح الصرصر التى أذهبت بالرماد المتراكم والتى ألهبت الجمر فأذكته نيرانا متقدة ... فقد رأى اليونانيون فى ثورته هذه وفى انشغال تركيا فى إخمادها هى والثورات فى شرق الدانوب ، الوقت المناسب لإعلان ثورتهم سافرة غير مقتعة .

فبعد شهر من عبور " هبسلنت " لنهر بروث اندلعت نيران الثورة فى المورة وتكونت فى " البلوبونيز" جمعية الأصدقاء السبع (إيفورز[3]) وكان " الكسندر

---

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٥٨

(٢) كتاب إبراهيم مصر لكربيتس ص ٤٦

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٧١

ماڤركوردا توس" قد وصل من روسيا فى مارس عام ١٨٢١ إلى البغدان (ملدافيا) على رأس قوة الصغيرة فرفع "جيرمانوس "كبير أساقفه "بتراس" راية العصيان فى "كلفريتا" فى بلاد المورة[1] و بدأت الثورة بهجمات متقطعة ومنفصلة عن بعضها على الأتراك ظلت تشتد وتتركز متخذة الطابع الدينى الخطير حتى أصبحت عامة فى أوائل أبريل حيث حاصر اليونانيون الأتراك فى "كلفريتا" واستولوا على معسكراتهم فى "كالاماتا" وبسقوط هذه الأخيرة اشتدت الثورة فى" بتراس" واشتط اليونانيون فى شعارهم بجعلوه تلك الأغنية المشهورة لديهم «لن يبق أى تركى على أرض المورة » وكأنما تلك الكلمات قد ألهبت حماستهم فترجموها من الغناء إلى الأعمال فذبحوا الآلاف من الأتراك فى شبه الجزيرة واستولوا على " ڤالتسى " قرب " تريبوليتسا " وامتدت ثورتهم عبر" خليج كورنث " حيث استولوا على " سالونا " واحتل أبناء بارنز" أثينا "وإن لم يستولوا على الأكروبول إذ حصنه الأتراك وقاوموا فيه حتى منتصف صيف ذلك العام .

وفى الغرب انضمت " ميسو لونجى وفارا كورى " إلى الثوار و بذلك أصبح الإقليم بأسره جنوب "ماليالك وأمبراكيان" عدا القلعة فى أيدى الثوار ولما تمضى ثلاثة أشهر على بدء ثورتهم[2] .

وفى كريت قام " السفاكيوتس " وتعدادهم يزيد على ١٦٠,٠٠٠ نسمة بثورة سافرة استولوا فيها على "خانية" بعد أن حاصروها .

وقصارى القول لقد حلق " مارس " بجناحيه فى ربيع عام ١٨٢١ ليظلل أرض اليونان وليجعلها مسرحا لحرب ضروس .

---

(١) كتاب إبراهيم مصر لكريبتس ص ٤٦

(٢) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٧١

الفصـــل الثـانى

مراحــل الحــرب فى اليونان

مراحل الحرب الثلاث :

والباحث المنقب فى ثنايا تاريخ هذه الحرب يجد أنها تنقسم إلى ثلاث مراحل رئيسية متباينة يتميز كل منها عن الآخر فى النتائج والعمليات[1] وهذه المراحل هى :

(أولا) المرحلة الأولى :

وتبدأ عام ١٨٢١ حين أتخذت الثورة اليونانية طابعها الجدّى الخطير وتنتهى فى أوائل عام ١٨٢٥ ، وفى هذه المرحلة أحرز الثـوّار انتصارات خاطفة سريعـة حاسمة على الأتراك فقوى ذلك ساعدهم وجعل النجاح يحالفهم رغم بعض الانتصارات القليلة الأولية التى حصل عليها الأتراك . هذا إلى أن هـذه المرحلة تشمل الحمـلة المصرية إلى كريت واستعدادات الحملة المصرية إلى المورة .

(ثانيا) المرحلة الثانية :

وتبدأ فى أوائل عام ١٨٢٥ عندما وطئت أقـدام إبراهيم باشا وجنوده أراض المورة وتنتهى فى منتصف عام ١٨٢٧ ، وفى هـذه المرحلة أشاح الحظ بوجهه عن الثوّار فأنزل بهـم الهزائم المتتاليـة بفضل بسالة الجنود المصريين وعبقـرية قائدهم " إبراهيم باشا " وفيها أيضا أحرز الأتراك تحت قيادة " رشيد باشا " انتصارات رائعة عاونهم فيها المصريون فى بلاد اليونان .

(ثالثا) المرحلة الثالثة :

وتبدأ فى منتصف عام ١٨٢٧ ببدء تدخل ثلاث من دول أوربا وهى فرنسا وبريطانيا وروسـيا وتنتهى فى أكتوبر عام ١٨٢٨ بانتهـاء هـذه الحرب وعودة المصريين إلى بلادهم .

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٧٥

الفصـــل الثـالث

المرحلة الأولى (يونيو ١٨٢١ — فبراير ١٨٢٥)

اعمـال الثـــوّار :

لم تكن ثورة اليونان هــذه وليدة أيام أو شهور بل كانت ربيبة سـنين طوال كما رأينا فلا عجب إن آتت أكلها ناضجــة شهية فى بدء اندلاعها وهــذا ما نلمسه واضحا جليا فى المرحلة الأولى من مراحل هــذه الحرب فقد أحرز الثوار اليونانيون انتصارات خاطفة سريعة زادت فى قوة ثورتهم رغم أن هذا النجاح قــد حصل عليه قادة مستقلون عن أى سلطات مركزية .

ففى يونيو عام ١٨٢١ استولى الثوار على "مونمفاسيا ونافارين" وذبحوا حامية الأتراك فى هاتين المينائين فأحالوا مياه البحر الزرقاء فى تلك البقاع إلى اللون الأحمر القانى لكثرة ما تدفق فيها من دماء الأتراك[١] .

وفى أكتوبر تمكن الثوار من الاستيلاء على "تريبوليتسا" عاصمة الأتراك فى المورة وأعقب ذلك مذبحة سالت فيها دماء ثمانية آلاف ما بين مسلم ويهودى .

وكان من المتوقع بعــد سقوط العاصمــة أن تهدأ الأمور قليلا ولكن هــذا لم يحــدث بل اندفع الثوار فى غلوائهم تحمسهم انتصــاراتهم السريعة والروح الوطنية المســتعرة بين جوانحهم وأعلنوا تكوين الحكومة اليونانية ورفعوا العــلم اليونانى " الأزرق والأبيض " على " أكركورنث[٢] " .

---

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٧٥

(٢) نفس المصدر ص ٧٥



أمير البحر اسماعيل جبل طارق

اعمال الأتراك :

ولم تقف الأتراك مكتوفة الأيدى أمام هذه الانتصارات والمذابح المزعجة التى لم تقض مضجعهم فحسب بل زادت أيضا فى صعوبة أعمال خورشيد باشا ضد علي باشا تبلان حاكم "يانينا" فى "تساليا ويانينا"...ولكن إثر انتصار خورشيد باشا على على باشا فى ٥ فبراير عام ١٨٢٢ أمر السلطان بالهجوم المزدوج على الثوار من الشرق والغرب وأسند قيادة الجيش الغربى إلى "الدراملى" الذى تقدم فى ٢١ يونيو عام ١٨٢٢ فألقى الذعر فى نفوس الأثينيين بغزوه السريع للمورة وأكركورنث ووصوله إلى أرجوس رغم تسليم الأكروبول لأوديسيوس قبل بدء تقدمه هذا[1] ولكن هذه العمليات السريعة الناجحة استنفذت الكثير من جهد رجاله فتفشت فيهم الأمراض ونقصت التعيينات والذخائر والعلائق فاضطر ثانية إلى الانسحاب والتراجع إلى شبه الجزيرة .

وفى نفس الوقت تقدم "عمرفريونس" الذى خلف على باشا فى "يانينا" جنوبا وحاصر "ميسولونجى" .

وسرعان ما انبرى القائد اليونانى "تيودور كولوكوترونز" الملقب "بآكل الأتراك" إلى الدراملى فهزمه وأوقف غزو الأتراك للمورة عام ١٨٢٢[2] واستولى الثوار على "نوبلى" التى اتخذتها الحكومة الثورية مقرا لها عام ١٨٢٣[3] .

وعندما انتهى السلطان من حروبه مع إيران التى اضطرته للحرب فى آسيا وأوربا فى وقت واحد سير بعض جيوشه لليونان فاقتحموا "تسالى" ونهبوا كنوز دلفى وتقدمت قواته من "سكوتارى" فى ألبانيا ونزلوا فى غرب اليونان .

---

(١) نفس المصدر ص ٧٦

(٢) نفس المصدر ص ٧٧

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر .

ولكن سرعان ما فاز الثوار بانتصارين سريعين إذ استعادوا قلعة "كورنث" في الغرب وفكوا حصار "أنا توكيلين"[1] .

عصب الثورة :

ولا شك في أن سر نجاح هؤلاء الثوار يتلخص في عظم استعدادهم وحسن تنظيمهم لأعمالهم فلقد وفروا لثورتهم ذلك الثالوث الضروري لنجاح الثورات ألا وهو :

المال والدعاية والروح الوطنية العالية .

فبفضل الأموال تتدفق سيول الأسلحة والعتاد بل والأفراد اللازمة لاستمرار استعار نيران القتال . وبالدعاية يحصل على الرأى العام فتعطف الدول الكبرى على الثوار وتحتضن صراعهم وتغذيه بالمال والرجال وهذا ما حدث في تلك الثورة التي نحن بصددها الآن إذ كسب الثوار عطف دول أوربا فلم تضن عليهم بالقروض الكثيرة المختلفة ولم يتوان رجالها الأفذاذ عن الإسراع للانضمام إلى الثوار كلورد "بيرون" الذى حمل وإياه للثوار في ٢١ أغسطس عام ١٨٢٣ أول قرض بريطاني بمبلغ ٨٠٠,٠٠٠ جنيه وأنشأ لهم أول جريدة لإشعال الروح الوطنية "ذى جريت كرونيكل" في ١٢ يناير ١٨٢٤[2] ، وأما الروح الوطنية فهي التي توفر القوى الآدمية وتبعث الروح المعنوية ذات الأثر الحاسم في نجاح الحروب .

فبهذا الثالوث الذى قد توفر للثوار قويت أعصاب ثورة اليونانيين واستفحل أمرها فكتبت لها الحياة مرارا بعد أن كانت شمسها تؤذن بالمغيب .

---

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر .

(٢) نفس المصدر السابق .

الانحراف عن مبادئ الثورة :

وكأنما بريق ذلك الفوز السريع قد أعمى بصيرة اليونانيين فأبعدهم عن الهدف الأساسى لثورتهم وأصم آذانهم عن شعارهم الخاص الذى اتخذوه لأعمالهم فازداد الثوار عتوا بما نالوه من نصر فى بحر الأرخبيل حيث أحرقوا الكثير من السفن التركية وعاثوا فى البحر فسادا وأحيوا عهدا من القرصنة[1] لم ير العالم ما يماثلها فى الشدة والفظاعة[2] اكتوت بنيرانها أساطيل أمم أوربا التجارية مما جعلها تشكو لتركيا وتطلق يدها فى إخماد تلك الثورة[3] .

هذا إلى أن وهج الذهب الذى وصل إلى الثوار مع " لورد بيرون " نمى بذور الغيرة والمنافسة التى بذرتها نتائج الانتصارات المنفصلة الأولى بين حزبى " الهيسلنت " (جمعية الأصدقاء) و " البلوبوتيز " (ايفورز) ندب الشقاق بين الثوار وبدت سحب الحرب الأهلية تجتمع فى سماء الأحداث فى تلك البقاع لتصادق على قول بلوتارك المأثور : " إن التاريخ يعيد نفسه " فقد ولدت اليونان الحديثة فى مهد النزاع والشقاق ولم تذق للسلم الداخلى طعما حتى وقت أن كانت تكافح فى سبيل وجودها[4] ولعل هذا ما نشاهده فى أيامنا هذه الآن .

استعانة تركيا بالأسطول المصرى :

ولما استفحل أمر قرصنة هؤلاء اليونانيين فى البحر أرسل السلطان محمود إلى محمد على باشا يعهد إليه أن يجرّد أسطوله لتطهير البحر من هذه السفن وكان ذلك عام ١٨٢١ أى قبل الحملة المصرية على كريت بعام[5] فأعدّ محمد على باشا أسطولا

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ١٩٩

(٢) كتاب نفارين لدوين ص ٣

(٣) كتاب ابراهيم باشا لبدران ص ٦٦

(٤) نفس المصدر ص ٧٥

(٥) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ١٩٩

مؤلفا من ستة عشرة سفينة تامة التسليح والعتاد بها ثمانمائة مقاتل بقيادة " طبوزاوغلى " وأقلع هذا الأسطول من الاسكندرية فى ١٠ يوليو عام ١٨٢١ متجها إلى مياه " رودس " لمطاردة سفن القرصنة اليونانية والتقى بالأسطول التركى فى الدردنيل ثم عاد إلى الاسكندرية فى ٨ مارس عام ١٨٢٢ ليتأهب لنقل الحملة المصرية الى " كريت " [١] مع بعض القطع البحرية الخاصة بالجزائر وتونس وطرابلس وتركيا [٢] .

الحملة المصرية على كريت :

ولم تقتصر استعانة السلطان محمود بمحمد على باشا على القرصنة اليونانية فقط بل لقد عرض عليه عام ١٨٢٢ ولاية جزيرتى كريت وقبرص إذا تمكن من إخماد الثورة التى قد أشعل نيرانها " السفاكيوتس " كما أسلفنا فى نفس الوقت الذى شبت فيه ثورة بلاد المورة وجزر الأرخبيل [٣] وانتصر فيها الثوار على الحاميات التركية التى اضطرت إلى التحصن فى بعض القلاع بالجزيرة فأعد محمد على باشا حملة بلغ تعداد رجالها خمسة آلاف مقاتل وخمسمائة فارس بقيادة حسن باشا مصطفى وأقلع بهم الأسطول المصرى من الاسكندرية قاصدا جزيرة كريت فنزل الجنود إلى البر فى يونيو عام ١٨٢٢ [٤] .

ولقد كان الثوار فى الجزيرة كثيرو العدد وشجعان [٥] فقاتلهم المصريون قتالا شديدا مدى عامين أنقذوا فى خلالها القوات التركية المحاصرة فى القلاع وقد مات حسن باشا خلال الفتح فخلفه حسين بك فى قيادة القوات المحاربة واستمر القتال

(١) كتاب تاريخ مصر فى حكم محمد على لمانجان ج ٢ ص ٢٤٠

(٢) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبناءه لفيجان ج ١ ص ٢٣٣

(٣) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧٠

(٤) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠١

(٥) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧٠

الى أن ظفـر المصريون بالثـوّار وضيقوا عليهـم الخناق وحصروهم على الساحل فى "سفا كيا" التى أضحت آخر معقل لهم[1] ثم سرعان ما شتتوا شملهم ففر الكثيرون منهم الى الجزر اليونانية الأخرى واستتبت السكينة فى الجزيرة[2] .

وكذلك أخمد ألفان من الجنود المصريين تحت قيادة صلاح بك الثـورة فى جزيرة قبرص[3] .

الحملة المصرية على المورة :

ولا شك فى أن النجاح الذى أحرزته قوّات محمـد على باشا فى كريت جعلها محط أنظار السلطان فطلب منه عونا آخر بأن أصدر فى ١٦ يناير عام ١٨٢٤[4] فرمانا يدعو فيه محمـد على باشا إلى تجريد جيشه على الثوّار اليونانيين ويخـوّله حق ولاية المـــورة .

وهنا يختلف المؤرّخون فى سر هـذا المطلب فيرجعه بعضهم إلى عجز القوّات التركية عن إخماد الثورة بعـد أن تكبدوا خسائر فادحة كما أسلفنا فتلفت السلطان حوله يبحث عن العون وحينئذ أشار عليه سـفير النمسا بذلك السيف الذى ما زالت تقطر منه دماء النصر والفتوح وهو محمـد على باشا قاهر الوهابيين وفاتح السودان[5] ويعتقد البعض الآخر بأن التجاء الباب العالى إلى محمد على باشا إنما كان ينطوى على الرغبـة فى إضعافه بإشراكه فى تلك الحـرب وحرمانه من المضى فى تنظيم جيشـه ومضاعفـة قوّاته إذ كان يخشى لو استمر ماضيا فى سبيله هـذا أن يقوى على تركيا

(١) نفس المصدر .

(٢) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠١

(٣) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه لفيجان ص ٢٣٣ ج ١

(٤) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧١

(٥) كتاب حروب محمد على لسيد فرج ص ٨٤

ويحقق فكرة الانفصال عنها و إعلان استقلاله بمصر . وتجمع فئة ثالثة بين السببين فتقول إنما السلطان قد قصد بذلك تحقيق غرضين : أولهما الاستعانة بالجيش المصرى على إخماد الثورة بعد عجز الأتراك والثانى صرف محمد على باشا عن المضى فى تنظيم جيشه ومضاعفة قوته[1] .

وأى من هذه الأغراض كان السبب فى ذلك العرض ليس مجال بحثنا الآن إذ أن ما يعنينا فى هذا المقام هو أن محمد على باشا قد قبل هذا العرض الذى يرفع من شأنه ويزيد فى مكانته باستنجاد تركيا به وذلك بعد أن استشار كبار رجال حكومته فاقروا جميعا إجابة دعوة الباب العالى[2] .

المنظار الذى يجب أن ننظر به لهذه الحملة :

وقبل أن نبدأ بالتحدث عن هذه الحملة وأعمالها فى المورة يجب أن نكون على بينة تامة من أمر هام سيكون هو العامل الأساسى فى الحكم على هذه الأعمال ألا وهو غرض محمد على باشا الأساسى من قبول هذه الحملة وما كان يرمى اليه عند إرسالها .

لقد زعم بعض الكتاب الإفرنج بأن غرضه الأساسى كان محو اليونانيين أو بالأحرى المسيحيين وإبادة شعب المورة ليبنى على أنقاضه دولة إسلامية[3] وهذا ولا شك زعم خاطئ فمنذ نشوب الحرب فى المورة بين تركيا واليونان أخذ محمد على باشا فى تتبع أخبارها وتحولها أملا منه بأن يدعوه الباب العالى الى مساعدته على إخضاع العصاة ... لأنه وهو صديق لليونانيين والمسيحيين لم ير فى هذه الحرب سوى فرصة سانحة ليظهر فيها للعالم مدى قوته الفتية وتفوقه على الباب العالى

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠١

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٢

(٣) كتاب محمد على لكريم ثابت بك ص ١٧٧

وليحاول فى مقابل الخدمات التى يسديها إليه التخلص من سلطته وليفوز فى الوقت عينه بتنظيم المورة وليستفيد من نشاط اليونانيين فى خدمة مصر وليبسط حكمه على جنوب أوربا فيحوّل شرق البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة مصرية[١] .

تلك كانت أغراض محمد على باشا الحقيقية وهى أغراض سياسية محضة تحقق أمنيته التى وقف عليها كل قواه وهى تعزيز قوى مصر فى الداخل وبسط نفوذها فى الخارج[٢] ويدلنا على صدق ذلك ما أكده لوفرنى نقلا عن سليمان باشا بأنه كان واثقا من أن محمد على باشا سيمنح البحارة اليونانيين عفوا عاما بشرط أن يجيئوا إلى مصر بعائلاتهم[٣] . هذا إلى أنه وابنه إبراهيم باشا كانا كراما إلى أقصى حدود الكرم فى معاملة الجالية اليونانية الكبيرة فى مصر وليس أدل على هذا من أن "الفليكى هيتارى" كانت تبث دعوتها بنشاط فى مصر[٤] وكان "ثيود ورتسزا" أكثر أعضائها نشاطا وجلدا . ولم يكتف الباشا بعدم مقاومة الثورة الإغريقية فى مبدئها بل إنه ظاهرها وأعانها على أغراضها[٥] .

فلتكن هذه الأغراض بمثابة المنظار الذى نرى من خلاله أعمال الحملة المصرية فى المورة حتى يمكننا الحكم الصائب عليها .

الاستعداد للحملة :

ولقد بذل محمد على باشا همة كبرى وجهودا مضنية جبارة مدى الستة أشهر التى تلت صدور هذا الفرمان[٦] فى تجهيز معدات الحملة على المورة فأعدّ قوات برية

---

(١) كتاب الامبراطورية المصرية للدكتور صبرى .

(٢) نفس المصدر .

(٣) كتاب محمد على لكريم ثابت بك ص ١١٧

(٤) الهيلينية ومصر الحديثة لاثنازى ج ١ ص ١٨٩

(٥) نفس المصدر .

(٦) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧١

من جيشه النظامى الجديد أسلم قيادتها إلى نجله الأكبر إبراهيم باشا بطل الحجاز وقاهر الوهابيين وبلغت هـذه القوات فى بدء الحملة ثمانية عشر ألف مقاتل من المشاة[١] مؤلفين من الآلايات الآتية :

الآلاى الثالث بقيادة الأميرالاى خورشيد بك .
« الرابع « « حسين بك .
« الخامس « « سليم بك .
« السادس « « سليمان بك (الفرنساوى)[٢] .

ومعها قواتها المعاونة وهى أربع بلوكات من مهندسى الطرق[٣] وثمانمائة فارس بقيادة حسن بك ومقدار كبير من مدفعية الميدان والحصار[٣] وجهزهم بأحدث ما لديه من أسلحة وعتاد وذخيرة وأعدّ السفن البحرية اللازمة لنقل هذه الحملة بعتادها على أن يتولى حمايتها الأسطول المصرى المرافق لها بقيادة الأميرال " إسماعيل أغا الجبل الأخضر[٤] " فبلغت هذه العمارة فى مجموعها إحدى وخمسين سفينة حربية ومائة وستة وأربعين سفينة نقل[٥] تجمعت كلها فى ميناء الإسكندرية فكان منظرها يأخذ بالألباب ... إذ لم ير الشرق حملة بحرية تدانيها فى ضخامتها منذ حملة بونابرت وكأن الشرق بذلك قد أراد أن يغزو الغرب جوابا على حملة أوربا عليه وهكذا تنقلب الأطوار فى سير التاريخ[٦] .

---

(١) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٣٥
(٢) كتاب الجيش المصرى فى عهد محمد على لعبد الرحمن زكى ص ٣٧
(٣) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٣٦
(٤) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لأدوارجون ص ٦٦٣
(٥) وثيقة رقم ١٤ من وثائق المورة وهى رسائل المسيو روفى قنصل فرنسا الى وزير الخارجية الفرنسية .
(٦) كتاب تاريخ اليونان السياسى لدريو ج ١ ص ٢٥٧

الحرب البحرية على شواطئ الأناضول :

وعندما أبحرت القوات المصرية من ثغر الإسكندرية فى شهر يوليو عام ١٨٢٤ لم تكن الآستانة قد استقر رأيها على من يعقد له لواء الحملة المشتركة[1] ولم تقصد هذه القوات شبه جزيرة المورة رأسا بل اتجهت إلى مياه "رودس" ومنها إلى خليج "ماكرى" على شاطئ الأناضول لتلتقى بالأسطول التركى الذى نيط به مطاردة السفن اليونانية فى مياه بحر الأرخبيل وتطهير البحر من قرصنتها وإخماد الثورة فى الجزر والاستيلاء على "بسارا" الذى تم فى ٣ يوليو[2] .

ولما وصلت العمارة المصرية إلى خليج "ماكرى" أنزل إبراهيم باشا جنوده إلى البر تهيأ للإقلاع بأسطوله فقط شمالا ليتصل بالأسطول التركى الذى جاء من الدردنيل بقيادة خسرو باشا فالتقى به فى ميناء "بودروم" على شاطئ الأناضول فى أواخر أغسطس وهنالك ظهر الفرق جليا بين نظام الأسطول المصرى وفوضى الأسطول التركى الذى قد لاقى الأهوال من مهاجمة سفن الثوار اليونانيين حينما اعترضت طريقه فى مياه جزيرة "ساموس" فأحرقت بارجة الأميرال وسفينتين أخريين فتراجعت العمارة التركية جنوبا حتى ألتقت بالأسطول المصرى .

وهاجمت السفن اليونانية العمارتين بالقرب من بودروم ودارت رحى القتال بين الفريقين فلاذ الأسطول التركى بالفرار من الميدان أما إبراهيم باشا فقد صمد بأسطوله للسفن اليونانية إلى أن اضطرها للتقهقر فى سبتمبر عام ١٨٢٤

واتصلت العمارتان المصرية والتركية ثانية ومخرتا عباب اليم سويا إلى جزيرة "مدللى" ثم تابعت العمارة التركية سيرها شمالا إلى الدردنيل بينما عاد الأسطول المصرى جنوبا فاعترضته السفن اليونانية فى مياه جزيرة "سافز" واشتبكت معه فى معركة

---

(١) كتاب إبراهيم باشا ترجمة بدران ص ٥١

(٢) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧٢

شـديدة أفضت إلى غرق سفينتين مصريتين (أكتوبر سنة ١٨٢٤) فقط وعاد إبراهيم باشا بأسطوله إلى ميناء «بودروم» .

ولقد أدرك إبراهيم باشا من هـذه الوقائع البحرية أن هزيمة اليونان لن تكون فوق سطح البحر حيث لهم السفن المسلحة المنبثة فى نواحيه وإنما ستكون بالقضاء على قواتهم فى البر أى فى شـبه جزيرة المورة فرجع أدراجه إلى ميناء ”مرمريس“ جنوبا ثم أقلع إلى جزيرة كريت فى ديسمبر عام ١٨٢٤ ورسى بعمارته فى خليج السودة حيث أخذ يتحين الوقت المناسب للإقلاع إلى ساحل المورة. ولقد برهن إبراهيم باشا خلال هـذه المرحلة الابتدائية على شجاعته التى امتاز بها فى حروب البر فإنه قد صمد عدّة أشهر لقتال السفن اليونانية التى اشتهرت بعظم قدرتها على خوض غمار البحار ومهارتها فى مهاجمـة السفن الحربيـة ولولا عزيمته ورباطة جأشـه فى مواجهة المخاطر لتشتتت شمل العمارة المصرية ولتبدّدت أمام هجمات السفن اليونانية [1] .

توحيـــد القيـادة :

ولا شـك فى أن مسلك خسرو باشا العجيب أمام شاطئ ”رودس“ لم يزد محمد على باشا وابنه إلا بغضا لفكرة القيادة [2] المزدوجة إذ كانا من بادئ الأمر غير موافقين على فكرة تقسيم القيادة ولذلك كتب محمد على باشا إلى الباب العالى فى ١٣ سبتمبر عام ١٨٢٤ كتابا جمع فيه بين الأسف وشيء من الغبطة الشخصية فقال :

” يؤسفنى كل الأسف أن ما طلبته من توحيـد قيادة الأسطول كله لم يجب وأن هـذا الشرف لم ينله ولدى إبراهيم . وليس بخاف أن النصر فى المواقع الهامة لا ينال إذا عهد بالقيادة العليا إلى أكثر من رجل واحد ذلك بأن اختـلاف الرأى لا بدّ وأن يؤدّى إلى هذه النتيجة السيئة . وقد كانت الحوادث الأخيرة مع الأسف الشديد أكبر دليل على صدق هذه العقيدة [3] “ .

---

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠٣ (٢) كتاب إبراهيم باشا لبدران ص ٧٤

(٣) مجموعة رسائل محمد على وثيقة رقم ١٥٨

فمن هذا نرى أن مطلب محمد على باشا وإبراهيم باشا فى توحيد القيادة لم يكن وليد الرغبة فى حظوة إبراهيم باشا بها بل هى عقيدة يقدر قيمتها هذان العسكريان وهما فى ذلك لم يتجنيا أو يطالبا بما هو مخالف للأسس العسكرية السليمة فقد قال نابليون: "لاشىء أهم من توحيد القيادة"[1] ولقد ردّد هذا النداء "جيوليود وهيت" فى تعاليمه الأساسية للحروب الجوية وصمم "إيزنهاور" على تحقيقه عند تفكير الحلفاء فى غزو أوربا وتدمير حائط الأطلنطيق فقد اشترط ضرورة توحيد الأعمال البرية والجوية تحت قيادته وقد سلمت رئاسة هيئة أركان حرب جيوش الحلفاء بوجهة نظره[2] .

ولقد أثمر خطاب محمد على باشا هذا ثمره المرجو فولى إبراهيم باشا قيادة الحملة التركية المصرية وكانت هذه التولية هى الحجر الأساسى الذى بنيت عليه جميع انتصارات هذه الحملة .

ولقد صحت عزيمة إبراهيم باشا بعد ذلك على أن يقضى الشتاء فى جزيرة كريت[3] .

القائد المصرى إبراهيم باشا :

لا شك وأن أهم جانب فى دراسة التاريخ العسكرى هو دراسة شخصيات القادة إذ أن أعقد ما يواجه الدول عند نشوب الحروب هو انتخاب القائد العام فبتقرير ذلك قد يحلق جيش يحلق فى سماء النصر وقد يذهب بجهود الأمة بأسرها لأن جميع الجنود تحارب جيدا إذا قيدت جيدا .

وليس أدل على أهمية القادة فى المعارك من قول فوش : "تتوقف النتائج فى الحروب على القادة لدرجة كبيرة والتاريخ محق فى جعلهم أصحاب النصر فيمجدهم

---

(١) تاريخ العالم العسكرى لميتشل ص ٦

(٢) تقرير بعثة ضباط الجيش عام ٩٤٧ لانجلترا وفرنسا ص ٤٧٢

(٣) كتاب إبراهيم باشا ترجمة بدران ص ٧٥

أو المسئولين عن الهزيمة وحينئذ ينقدهم ... وبدون القادة لا توجد معارك ولا تحقق الانتصارات[١] " .

ولم ينس نابليون أن يشير إلى ذلك أيضا فقال : "لم يغزو الفرق الرومانية الغال ، بل هزمها قيصر ... ولم ترتجف روما فرقا أمام القرطاجنيين وإنما أمام هانيبال ... ولم تفتح الهند بالفلانكس المقدونية وإنما غزاها الإسكندر[٢] " .

فلا عجب إن أضحى لزاما علينا أن نلم بصفات إبراهيم باشا ذلك القائد الذى قاد الحملة المصرية على المورة كى نلمس بوضوح مدى قوة شخصية هذا الرجل الفذ الذى قاد النصر طائعا مختارا للقوات التى تحت إمرته .

ولعل أصدق ما يجب أو يورد فى هذا المجال هو ما قد أبدعه يراع كاتب عرف صفاته كلها دون واسطة فوصفه وصفا مفصلا قال فيه :

" هو رجل لا تفارقه الهيبة ولا حب العدالة ... أمره مطاع ... ثابت العزيمة شجاع رحيم لين العريكة لكنه شديد الحرص على النظام لا يرضى أن يعمل أحقر رجل فى جيشه ما لا تطاوعه نفسه هو على عمله . يطيعه الناس ويخشونه أكثر من سواه لأن فى يده العقاب ، ومع ذلك التفت حوله قلوب جنده . وإذا كانت الرتب العالية لا تتعارض فى نظر أبناء العرب مع الصراحة فإن الجند كثيرا ما كانوا يطلعونه على أسرارهم الخاصة ... وكنت تراه فى الحروب الأخيرة دائم اليقظة لا يغفل عن الرقابة . يدهش الناس بسرعة تنقله بين الجند دون أن يشعروا به وكثيرا ما كان ينام على الثلج فى العراء ليضرب بذلك المثل لغيره ... وهو حدب على جنوده يعطف عليهم ويحادثهم ويصغى إلى قصصهم ويبث فى قلوبهم الشجاعة ويشاركهم فى شعورهم واجتماعهم ويجلس معهم فى مضاربهم كأنه واحد منهم ولكن لا ينسى قط مقامه .

---

(١) كتاب الاستراتيجية الألمانية لنيام ص ١

(٢) نفس المصدر ص ٢

ولم يعـرف عنه أنه ضحى يوما بشرفه فسفك دماء أحد فى ساعة من ساعات غيظه[1]
وتراه فى ميدان القتال رابط الجأش لا يفارقه هدوءه إذا دنت ساعة الخطر أو ثارت
عليه القبـائل من حوله ، يثبت فى جنوده روح الشجاعة والإقـدام و يضرب لهم
بنفسه خير مثل فى البسالة وخوض الغمرات وكثيرا ما استعان ببعد نظره وصدق
فراسته على كشف ما يبث له من المصائد و ينصب له من المكائد ... ولولا جهود
إبراهيم لمـا استطاع والده أن ينجز نصف ما أنجز وأعلم الناس بذلك هو محمـد على
نفســه[2] " .

تلك هى صفات إبراهيم باشا وكلها تنبئ بأن صاحبها لا شك واصل إلى نصر
سريع حاسم بفضـل شخصيته القوية وصفات خلقه المتينة على أن أهم ما يجب أن
نذكره هو أن إبراهيم باشا كان قائدا عسكريا فـذا دالت له أصـول الاستراتيجية
فعـرف كيف يستخدمها الاستخدام الرائع الذى لا يزال يأخذ بألبـابنا كلما تعمقنا
فى دراســة خططه وأساليبه فى القتال وهذا ما سيتضح لنـا جليا فى إبان بحثنا
فى هذه الحملة .

تأمين خطوط مواصلاته :

ولم يقف إبراهيم باشا مكتوف الأيدى خلال فـترة انتظاره فى خليج السودة
متحينا الفرص كى يقلع إلى شاطئ المورة و إنما عمل على الاستيلاء على " كاسوس " لتكون
كقاعدة لصيانة كريت من الغزوات المفاجئة كما أنه أنزل ضربات سريعة مفاجئة
بسـفن الثوار جعلتهم يلوذون بأذيال الفرار و بذلك أمن خطوط مواصـلاته مع
كريت التى كانت فى أيدى القوات المصرية فى ذلك الحين[3] .

---

(١) تاريخ مصر وحالها فى الوقت الحاضر (١٨٤٢) لياتس الجزء الثانى ص ١٧٤

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٧

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٨٩

انتهاء المرحلة الأولى من هذه الحروب :

وبانتهاء عام ١٨٢٤ انتهت المرحلة الأولى من مراحل الحملة على كريت والمورة وفيها كما قد رأينا أحرز الثوار انتصارات سريعة على الأتراك وهزموا جيوشهم شر هزيمة ولكن سرعان ما دب بينهم الشقاق كما أسلفنا من قبل فألهاهم ذلك عن الخطر الأكبر الذى كان يتهددهم وأغمض أعينهم عما حل بكريت فلم يفكروا فى أنهم سيلقون نفس المصير من ذلك العاهل العظيم الذى كان يتربص الفرص المواتية ليقلع إلى شواطئهم . وقد واتته هذه الفرصة طيعة مختارة عندما وقع الاضطراب بين بحارة السفن اليونانية لتأخر عطائهم وتنازع زعمائهم من رؤساء الحكومات الثورية فأبى البحارة الاستمرار فى القتال، وما كاد إبراهيم باشا يعلم بذلك إلا وأقلع بعمارته من "خانية" إلى "مودون" جنوبى المورة فأنزل جنوده إلى البر فى ٢٦ فبراير عام ١٨٢٥ [١] وبذلك بدأت المرحلة الثانية من مراحل هذه الحرب وهى المرحلة التى تخلى فيها الحظ عن الثوار ولمع فيها نجم القوات المصرية بفضل عبقرية قائدهم الفذ الذى ظل طوال وقته يقظا متحفزا للوثوب إلى هدفه .

الفصل الرابع

المرحلة الثانية (٢٦ فبراير ١٨٢٥ — يونيو ١٨٢٧)

١ — تخليص كورون والاستيلاء على نفارين

مسرح العمليات [٢] :

لاشك وأن طبيعة أراضى مسرح الحرب وطبوغرافيتها ومناخها وموارد المياه بها من أهم العوامل المؤثرة على سير العمليات التى تجرى عليها فلا غرو إن أضحى وصف مسرح العمليات فى حرب المورة أول مايجب أن نلم به قبل البدء فى سرد

(١) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبنائه لفيجان ص ٢٣٦

(٢) معظم المعلومات عن مسرح العمليات مستقاة من كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه للجنرال فيجان جزء ١ ص ٢٣٩

المعارك المختلفة ودراستها الدراسة العسكرية الحقـة حتى نكون على بينة واضحة من جميع المؤثرات فى تلك العمليات وحتى يمكننا أن نحكم على قدرة القوات التى خاضت غمار هذه المعارك .

طبيعة أرض المورة[1] :

تكاد المياه تحيط بشبه جزيرة المورة من جميع الجهات عدا تلك الأرض الضيقة الصغيرة التى تمر بكورنث وتصلها بشبه جزيرة تساليا أو بالأحرى بأوربا ... وتمتاز شـبه المورة بتشعب امتداد أراضيها فى داخل البحـر وهذا ممـا يوفر لهـا الموانئ الصالحة لرسو السفن والمضايق الكثيرة الصالحة لأن تكون أوكارا للسفن التى تعمل فى البحر ... وطبيعة أراضيها جبلية عالية إذ تمتد فيها سـلاسل من الجبال المرتفعة أهمها تلك السلسلة الساحلية التى يزيد ارتفاعها على ٢٠٠٠ متر والتى تسير محاذية لخليج "كورنث" وتمتد إلى خليجى "أجين و بتراس" وأعلى قممها "تريكالا واريمانث" ثم تنحدر متجهة صوب الجنوب إلى البحر الأبيض المتوسط على ضفتى خليج "ماراتون" وتسمى "أركاديا" (فى الوسط) و"بلاكونى وتايجيت" (فى الجنوب) وتقع سلسلة جبال "مسينى" فى الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة غرب نهر "برماتزا" وتكاد تكون شبه منطقة مستقلة وهـذه المناطق الجبلية بأسرها وعرة وقاحلة وشديدة البرودة عدا فى بعض المناطق حيث توجد بعض الأدغال كما فى "أركاديا ومسينا".

أما فى وسط شبه الجزيرة فمميز بانخفاض عميق توجد فيه "تريبوليتسا" العاصمة التركية القديمة كما توجد بها مساحات صحراوية شاسـعة بها بعض المناطق الصالحة للزراعة وهـذه تتوافر بجوار السواحل وعلى شواطئ الأنهار القليلة التى تخترق تلك السلاسل من الجبـال .

---

(١) انظر خريطة رقم (١) — المورة .

موارد الميـاه :

وشبه جزيرة المورة فقيرة جدا فى موارد المياه وذلك لأن أغلب أراضيها كما رأينا جبلية قاحلة أو صحراوية جافة على أن أهم الموارد بها هى نهر "ايروتاس" الذى يصب فى خليج "ماراتون" ونهر "برماتزا" الذى يصب فى خليج "مسينى" ونهر "ألفى" الذى يصب فى خليج "أركاديا" وهذه كلها أنهار صغيرة تعترضها العوائق الرمليـة الكثيرة بالقرب من منابعها .

المنـاخ :

ومناخ شبه جزيرة المورة حار بالقرب من السواحل وغير صحى لوجود مستنقعات كثيرة بهـا أما وسط شبه الجزيرة فجوه مرهق للقوات المحـاربة إذ أنه حار جدا فى الصيف وبارد جدا فى الشتاء وفى منطقة "تريبوليتسا" تهب رياح شمالية دائمة .

المواصلات :

ولقد كانت المواصلات لهذه الأراضى قليـلة جدا بل لقد أصبحت متعذرة بسبب تلك الثورة التى دامت خمس سنوات دمر فيها الثوار الطرق وقطعوا وسائل الاتصـال[1] .

ومن هـذا كله يتضح لنا جليا أن طبيعـة مسرح العمليات فى المورة فى صالح المدافعين لأنه يلقى عبئا كبيرا على عاتق المهاجمين إذ يحدد طرق تقدمهم ويجعلهم تحت رحمـة المدافعين او حصنوا مواقعهم الحـاكمة على طرق التقـدم فى الجبال والممـرات .

حالة الأتراك عند نزول القوات المصرية إلى المورة :

ولقد ألفى ابراهيم باشا، عند نزوله وقواته فى ميناء "مودون" فى فبراير عام ١٨٢٥، القوات التركية فى أسوأ حال لغلبة الثوار عليهم بحرا و برا لاسيما وقد سقطت "نفارين"

---

(١) نفس المصدر ص ٢٤٠



أمير البحر حسن الاسكندرانى باشا

عنـد نزول القوات المصرية ولم يبق فى شبه الجزيرة تحت أيدى الأتراك سوى "مودون" وميناء "كورون" التى كان يحاصرها الثوار[١] .

خطة إبراهيم باشا للغزو :

ولو أن المراجع التاريخية لم تحدثنا بوضوح عن خطة إبراهيم باشا التى اعتزم اتباعها ونفذها فى غزو شبه جزيرة المورة إلا أنها بسردها لأعماله المختلفة قد رسمت لنا الأسس التى قد بنى عليها ذلك القائد الفذ خطته التى تمشى مع أحدث أساليب الحرب الآن والتى تثبت أنه كان استراتيجيا من الطراز الأول فبوصوله إلى " مودون" أيقن بأن شبه جزيرة " بيليا " هى أصلح مكان لتكون قاعدة لعملياته وأدرك لأول وهلة بأن "مودون" هذه لا تكفى لأن تكون رأس الكوبرى الذى يقيم عليه حملته وذلك لمعرفته التامة بقوة عدوه البحرية التى قـد تضرب مع قواته البرية الحصار التام عليه فتضطره إلى التسليم فى البر أو الاندحار فى البحر ولذلك رأى أن يوسع رأس الكوبرى هـذه باستيلائه على سلسلة الموانئ المجاورة له فى " بيليا " كى يوفر لقواته قاعدة تثبت فيها أقدامها ويمكنها أن تعمل منها بحرية تامة لا تعوق حركاتها ضيق المواجهة ولا يجعلها ذلك الضيق عرضة لإلقائها فى البحر إذا هاجمها العدو. ولا شك فى أن الدهشة ستأخذ بتلابيبنا إذا عرفنا أن نفس هذه الفكرة هى التى خطرت للمارشال "مونتجمرى" عند وضع خطط غزو أوربا فقـد عدل خطة "كوساك" التى قد وضعتها هيئة أركان حرب "إيزنهاور" من قبل فزاد[٢] فى مواجهة رأس الكوبرى المقترح وهذا يحقق لنا صدق قول "البارون دى جومينى": "إن الاستراتيجية أيام قيصر هى بعينها أيام نابليون وإن لم تدون فى أى كتاب"[٣] .

---

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠٦

(٢) كتاب عمليات النصر جينجاند ص ٣٤١ ، ٣٤٤

(٣) كتاب الاستراتيجية كما استخدمت فى الحرب العالمية الثانية للكولونيل ا ه بورن .

الاستكشاف والوقاية :

وفى اليوم التالى لوصول إبراهيم باشا عهد إلى قوّاده العناية بترتيب المعسكرات وإقامة المخازن والمستودعات وتنظيم شئون الوحدات الادارية ثم استصحب فصيلة من المشاة وأخرى من الفرسان ليستطلع بنفسه الأماكن القريبة من "نفارين" وبعد أن تم له الوقوف على ما أراد من معلومات عاد بعد الظهر إلى المعسكر بجملة قطعان من الأغنام والماشية استولى عليها خلال ذلك الاستطلاع[1] وأصدر أوامره لبعض الوحدات كى تقوم بحماية الطرق الرئيسية المتفرعة من "مودون" حتى لا يدمرها الثوار وحتى يوفر الوقاية التامة لقوّاته فى أماكنهم بمودون .

إنقاذ كورون :

وفى ٣ مارس تقدم إبراهيم باشا بقوات كبيرة لتخليص "كورون" فأزال كل مقاومة أراد بها الثوار صدّه عن مواصلة التقدّم وتمكن فى ٥ مارس من اختراق خطوط الحصار واتصل بالقلعة وأبعد المحاصرين عنها وعسكرت جنوده تحت أسوارها أسبوعا صدّوا فى خلاله كل الهجمات المضادّة التى وجهها إليهم أشياع اليونان. وبعد أن عزز حامية هذا الموقع وزوده بما فوق حاجته من المؤن والماشية التى غنمها فى غزواته عاد إلى مركز قيادته العام[2] .

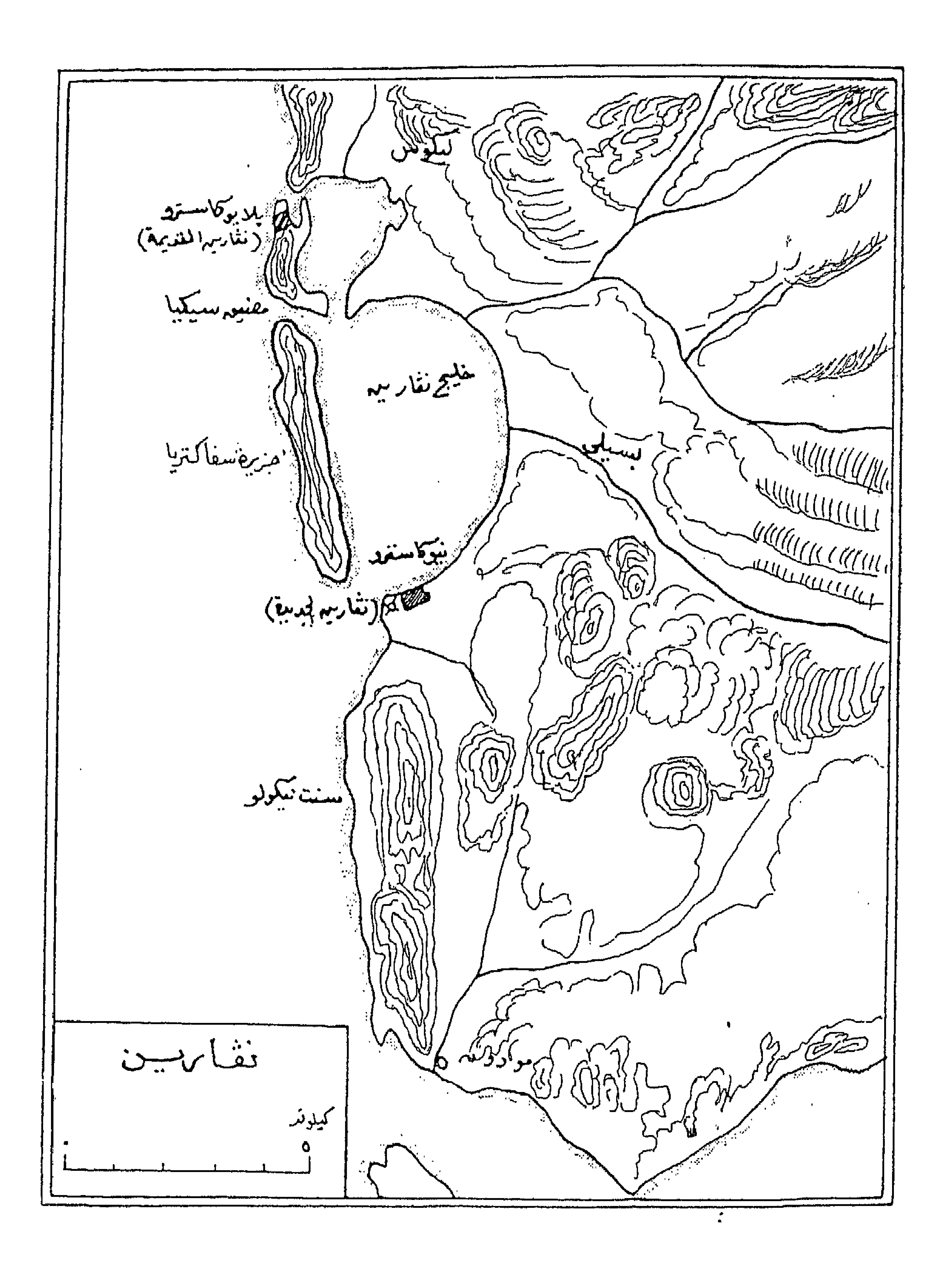
ولقد أظهرت تلك العملية الأولى مدى قوة الجنود المصريين المشاة وأهمية الفرسان المعاونة لهم التى أزعجت الثوار فى الجبال وفى السهول والتى كانت دائما وأبداً تغير على مواصلات العدو فتأتى بأعمال حاسمة مفيدة وتؤثر على الروح المعنوية فى قوّاته كما أبرزت دقة المدفعية المصرية التى كانت منظمة على أحدث النظم الأوربية وقتئذ[3] .

---

(١) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوار جوان ص ٦٦٦

(٢) نفس المصدر ص ٦٦٧

(٣) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه لفيجان ص ٢٤١



نقارين
كيلومتر
٥
بيلوس
بلايوكاسترو
(نقاريه القديمة)
مضيق سيكيا
خليج نقاريه
جزيرة سفاكتريا
بسيلي
نيوكاسترو
(نقاريه الجديدة)
سنت نيكولو
مودونه

ولم يمض إبراهيم باشا سوى ست ساعات فقط فى مركز قيادته عاد بعدها إلى استئناف الإيغال فى داخل المورة لجس نبض الأعداء فى جملة من مواقعها المختلفة واستولى على بعض المواقع الدفاعية الهامة على جبل "هاجيو ديمترى" كى يقى خطوط المواصلات إلى "كورون" ثم عاد إلى "مودون" فى ١٥ مارس واستراح ليوم واحد فقط سافر بعده فى اتجاه الشمال الشرقى لاستكشاف مدخل " مسينى " وهو الباب الغربى للورة ولم تصادفه أى مقاومات للعدو حتى عاد يوم ٢٢ مارس إلى قاعدته .

من هذه العمليات البدائية ندرك لأول وهلة مدى استيعاب إبراهيم باشا لمبادئ الحروب فأول ما عمل عليه هذا القائد هو وقاية قواته التى أنزلت فى أرض العدو فبدأ بالاستطلاع وملك ناصية المبادأة بالأعمال الهجومية فأثار الرعب فى نفوس الثوار وأمن طرق مواصلاته مع قاعدة عملياته ومع "كورون" التى استولى عليها وفى كل ذلك لم يتغاض عن توفير الشئون الادارية لقواته باستغلاله للموارد المحلية فى التو واللحظة . وكل هذه الخطوات لا شك وأنها تنبئنا بمدى ما سيروعنا به إبراهيم باشا من عمليات حربية رائعة إبان هذه الحملة .

حصار نفارين :

بعد أن استولى إبراهيم باشا على "كورون " التى تحمى قاعدته من الجنوب تلفت شمالا ليقرر احتلال " نفارين " التى تعتبر أهم الموانئ فى شبه جزيرة المورة لكبرها ولاعتصام الثوار بها .

وتحمى "نفارين" هذه قلعتان حصينتان على جانبى خليج نفارين الذى يبلغ عرضه من الشمال الى الجنوب ٥٥٠٠ متر وطوله من الشرق إلى الغرب ٣٥٠٠ متر وعمقه يسمح بإيواء أكبر قطع الأسطول كما أنه يحميها ضد عواصف البحر الأيونى لوجود جزيرة " سفاختريا " عند مدخله وتوصل بعض الطرق الرملية إلى هاتين القلعتين .(١)

(١) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج — ١ ص ٢٤٢

أرسل إبراهيم باشا يوم ٢٣ مارس الآلايين الثالث والرابع بقيادة خورشد بك وحسين بك ومعهما المعدات اللازمة لحصار نفارين فأسرع الثوار لنجدة هذا الموقع ولكن أورطتي عثمان أغا و يوسف أغا بادرتا بمهاجمتهم فألحقتا بهم الهزيمة عند أول اشتباك ولم يتمكن القواد اليونانيون من النجاة بأنفسهم مع بعض رجالهم إلا بشق الأنفس أما الباقون فقد قتل فريق منهم وأسر الفريق الآخر وحاولت الحامية تعزيز حركتهم فخرجت لمهاجمة القوات المصرية لكنها عندما شهدت ما حل بقوات نجدتها أسرعت بالعودة إلى المدينة بعد أن تكبدت خسائر فادحة واغتنم المصريون هذه الفرصة فطاردوهم حتى وصلوا بهم إلى القنطرة الممدودة على خنادقهم والموصلة لمدينتهم[1] .

وفى ٢٥ مارس سار إبراهيم باشا ببقية قواته من مودون فعسكر أمام الأسوار التى نيط الدفاع عنها بالقائد اليونانى (نيكولاؤس) وكانت الأوامر قد صدرت إلى الثوار فى المورة بالتحرك لإمداد "نفارين" فأخذ إبراهيم باشا يصد هذه القوات كلما هاجمته مستعينا على ذلك بالأورط الثلاث التى كانت تحت قيادة مصطفى أغا وعثمان أغا وسليمان أغا[2] .

ولقد كانت خطة إبراهيم باشا للاستيلاء على " نفارين " تتلخص فى الهجوم المزدوج على القلعتين فى آن واحد فأرسل حسين بك ومعه أورطة من كل من الآلايين الثالث والرابع وبعض الخيالة لمحاصرة القلعة القديمة ومهاجمتها بينما يقوم هو بجيشه بأكمله بالهجوم على القلعة الجديدة[3] بعد حصارها ولكن اليونانيون تمكنوا من إمداد القلعة القديمة فقاومت هجوم حسين بك مقاومة شديدة .

---

(١) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوارد جوان ص ٧٦٨

(٢) نفس المصدر .

(٣) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٤٣

و بينما كان إبراهيم باشا منهمكا فى حصار القلعة الجديدة فطن اليونانيون للخطر الذى سيحدق بهم لو تمكن القائد المصرى من إحكام حصاره فتقدّمت قوات منهم بلغت ٣٥٠٠ مقاتل تحت قيادة الكابتن " يانى " لمهاجمته وسرعان ما أرسل إليهم إبراهيم باشا ثلاث أورط بقيادة عثمان أغا ومصطفى أغا وآكل سولاى أغا فشتت شمل قوات "يانى" وأسرته مع الكثيرين من جنوده ... ولقد حاولت الحامية مرارا الخروج بقيادة " نيكولاؤس " الذى كان اليونانيون المتواردون لنصرته يعززون جانبه خارج الموقع لكن هذه المحاولات لم تجدهم نفعا وتمكن المصريون من أسر " نيكولاؤس " نفسه فى إحداها[1] .

وفى ١٩ إبريل تناهت إلى إبراهيم باشا الأخبار باحتشاد ١٠,٠٠٠ من الثوّار فى قرى "كرميدى" على بعد ٩ ميل جنوب "نفارين" وأنهم قد تحصنوا فى ثلاث من القرى وجبلين واقعة كلها على مسيرة ١٢ كيلومترا من المعسكر فلم يتردّد إبراهيم باشا فى المسارعة إليهم فى ٣,٥٠٠ مقاتل من وحدات الآلاى الثالث والرابع و ٤٠٠ فارس وتولى هو بنفسه قيادة الفرسان فعهد إلى عمر أغا وكوجك عثمان بمهاجمة الجبلين من جهتين متقابلتين لأنهما مفتاح الموقع وأمر باقى الجنود بمهاجمة القرى الثلاث فلما فوجئت الجيوش اليونانية بالهجوم من كل ناحية وفى وقت واحد فشلت مقاومتها فقتل منها الكثير واستسلم الباقون وضرب إبراهيم باشا بعد ذلك كل الحصون والاستحكامات فدمرها ثم عاد الى معسكره فى ٩ مايو[2] .

وشدّد إبراهيم باشا الحصار على "نفارين" ولكن قلعتيها لم تستسلما لتوالى ورود الإمدادات لها من البحر وعند ذلك أيقن إبراهيم باشا بأن مفتاح الموقف فى الاستيلاء على جزيرة " سفاختريا " فصمم على احتلالها وعهد بهذه المهمة إلى

---

(١) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوار جوان ص ٦٦٩

(٢) كتاب مصر الحديثة لفولابل جزء ١٢ ص ٣٢١

سليمان (باشا) الفرنساوى[1] فأرسل معه بلوكين من الأورطة السادسة المشاة إلى (مودون) حيث أبحر بهما فى ١٥ سفينة مسلحة[2] فلما علم اليونانيون بأن هذه القوة آتية لاحتلال الجزيرة عززوا حاميتها بقوات مختارة من المحاربين والبحارة ولما سارت السفن المصرية فى مرمى نيران مدفعية السواحل للعدو أطلقت قلاعه النيران عليها ولكنها أجابتها بالمثل بينما راحت تنزل الجنود فى الزوارق فقصدوا الجزيرة تحت وابل من النيران وتمكنوا من الوصول إلى البر واحتلوا الجزيرة ورفعوا العلم المصرى على استحكاماتها[3] وقد قتل فى هذه العملية بطل اليونان "تسامادوس" وجرح سليمان باشا وفر « مافركورد اتوس » وهربت بقية السفن اليونانية و بذلك تم تطهير خليج " نفارين " من الأسطول الهيلينى .

استسلام نفارين :

وفى ليلة ١٢ — ١٣ مايو هاجم ٣,٠٠٠ من الثوار مؤخرة حسين بك ولكن جنوده كانت متأهبة للقائهم بل والهجوم عليهم فشتت شملهم وفى الوقت نفسه حاول المحصورون فى القلعة القديمة الزحف عليهم تحت جنح الظلام ولكن القوات المصرية قابلتهم بنيران حامية أوقفت تقدمهم وجعلتهم يلوذون بالقلعة ثانية فطاردتهم الخيالة المصرية وفتكت بهم وأسرت الباقين فاستسلمت القلعة القديمة فى ١٣ مايو[4] .

وفى هذا اليوم أراد الأميرال (ميلوليس) اليونانى الثأر لمقتل (تسامادوس) أغار بأسطوله على "مودون" وأشعل النيران فى بعض قطع الأسطول المصرى وزادت فالرياح العاصفة فى اشتعال النيران حتى امتدت إلى المدينة فدمرت بعض مخازن

---

(١) كتاب مصر الحديثة لفولابل جزء ٢ ص ٣٢١

(٢) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٤٣

(٣) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠٨

(٤) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه لفيجان ج ١ ص ٢٤٥

البارود ولكن ذلك كله لم يفت فى عضد إبراهيم باشا ولم يجعله يتحول عن هدفه الأساسى بل شدد الحصار على القلعة حتى استولى اليأس على المحصورين فأرسلوا فى ١٦ مايو وفدا من وجوههم يلتمسون الأمان فأمنهم إبراهيم باشا على حياتهم بشرط أن تسلم إليه المدينة بقلاعها وما فيها من المؤن والذخائر والأسلحة فاستجابوا لهذه الشروط وفى ١٨ مايو سنة ١٨٢٥ دخل إبراهيم باشا وجنوده المدينة فكان ذلك أعظم الانتصارات التى تزين تاريخه الحربى وكان لسقوط "نفارين" أثر بالغ فى الموقف الحربى إذ جعل اليأس يدب فى صفوف اليونانيين ووطد مركز الجيش المصرى باستكمال قاعدته اللازمة للعمليات فى داخل المورة (١) .

التحليل الفنى لهذه المعركة :

لا شك وأن هذه المعركة تحتل المكان الأول من الأهمية فى حملتنا هذه لأنها حجر الزاوية التى بنى عليها النجاح المستقبل ولذلك يجب علينا أن نحللها التحليل الفنى المسهب لندرك ما فيها من روعة أعمال الجيش المصرى وعبقرية قائده الفذ إبراهيم باشا الذى تمكن من تطبيق مبادئ الحرب تطبيقا قلما يوفق إليه أى قائد قديم أو حديث ولننظر الآن كيف طبق إبراهيم باشا جل مبادئ الحرب فى هذه المعركة حتى أوصلته إلى ذلك النصر الحاسم السريع .

مبدأ المحافظة على الهدف :

إن أول مبدأ من مبادئ الحرب عمل إبراهيم باشا على تحقيقه هو مبدأ المحافظة على الهدف فلقد كان هدفه الأساسى الاستيلاء على نفارين ولم يصرفه عن هذا الهدف كل ما قام به الثوار من مختلف الأعمال والهجمات كما رأينا ففى كل موقف من المواقف التى هاجمته فيها قوات الثوار أو شرعت فى الاحتشاد لمهاجمته لم يترك "نفارين" ويتوجه إليهم بل كان يسارع لتشتيت شملهم فى الوقت الذى لا زالت

---

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠٨

قوّاته المحاصرة تشدّد قبضتها على القوّات المحصورة . فالأهداف المفاجئة لم تجعله يهمل هدفه الأساسى ، هذا إلى أن كارثة حرق بعض قطع أسطوله فى " مودون " ونسف ذخيرته لم يفت فى عضده ولم يصرفه عن تحقيق هدفه الأساسى فلا عجب إذا أمكنه تحقيق ما قد رمى إليه وحصوله على النصر الحاسم فى النهاية .

مبدأ ادّخار القوى :

ولم تدفع رغبة تحقيق الهدف الأساسى إبراهيم باشا إلى تجاهل مبدأ ادخار القوى فتجعله يجازف بكل قوّاته فى حصار نفارين بل لقد عمل على تحقيق مبدأ ادّخار القوى بإرساله بعض قوّاته فقط لحصارها واحتفاظه بقوّة احتياطية كبيرة (ثلاث أورط وبعض الخيالة كما أسلفنا) لمواجهة جميع المفاجآت التى حاول الثوّار تحقيقها بهجماتهم المختلفة التى تصدّى لهم فيها إبراهيم باشا ودحرهم المرّة تلو الأخرى حتى أصبح هدفه الأساسى أقرب ما يكون إلى المنال بواسطة هذه العمليات منه بالحصار الدائم .

مبدأ خفة الحركة :

ويدهشنا إبراهيم باشا فى هذه العمليات بتطبيقه الرائع لمبدأ خفة الحركة ففى جميع الأحوال التى كانت الأنباء تصله باحتشاد قوّات للعدوّ للقيام بهجمات مفاجئة كانت قوّاته المجهزة والمستعدة تهرع فى خفة وإسراع إلى الذهاب بجهود العدو ودحر قوّاته ولقد عرف إبراهيم باشا كيف يستفيد من خفة حركة فرسانه بعمليات التطويق التى قام بها عند هجومه على جموع العدوّ فى قرى " كرميدى " وأيضا فى مطارداته الدائمة للقوات المنسحبة التى أمامه وكأنه فى ذلك كان يحقق قول نابليون : " أن سر الحرب هو أن تمشى إثنا عشر فرسخا وتخوض غمار المعركة ثم تمشى إثنا عشر فرسخا أخرى للطاردة [1] " .

---

(١) كتاب الحرب لمحمد عثمان ص ٩٦

مبدأ المفاجأة :

ولا شك فى أن أهم مبدأ استخدمه إبراهيم باشا وأتى بثمـاره ناضجة شهية هو مبدأ المفاجأة فأنّى علم باقتراب جيوش التخليص لم يتخبط فى العمـل الذى يجب أن يقوم به بل أسرع بقوّاته المهيأة لذلك والمتوفرة لديه كاحتياط مجهز وفاجأ تلك الجيوش التى لم تكن تتوقع هجومه مطلقا ، كما وأن يقظة قوّاته وقوّاده أخفقت الكثير من محاولة العدوّ مفاجأة هذه القوّات تحت جنح الظلام أو فى حصرها بين هجومين من داخل القلاع وخارجها .

مبدأ التعاون :

وأروع دليل على مدى استخدام إبراهيم باشا لمبدأ التعاون وتفهمه لأهمية هذا المبدأ جيدا هو ذلك الحصار البرى والبحرى الذى ضرب به حول " نفارين " ، وأيضا تعاون مدفعيته ومشاته فى الحصار أثنـاء إسراعه هو وفرسانه و بعض المشاة لملاقاة جيوش التخليص المتتالية ثم يتضح لنا ذلك جليا فى تعاون مشاته المحملة فى المراكب مع بحريته إبان الهجوم على جزيرة " سفاختريا " واحتلالها ، والحق إننا لنلمس فى كل أعماله هـذه روح التعاون الوثيقة المطلوبة وهى التى نادى بها " جيوليود وهيت " والتى أصبحت أساسـا لتنظيمات وحدات العمليـات المشتركة ، ونواة لوحدات الأسطول البرية والجوية التى آستخدمت فى الحرب الأخيرة .

مبدأ الوقاية :

وفى جميع عمليـات إبراهيم باشا منـذ وصوله إلى أرض المـورة حتى سـقوط "نفارين" أبرز لنا بوضوح أهمية الوقاية فعملياته الاستكشافية الدائمة وتأمينه لخطوط المواصلات الموصلة للأماكن التى احتلها ولقاعدة عملياته كانت خير دليل على عظم قيمة هـذا المبـدأ فهو دائما وأبدا كان يقى قوّاته شر مفاجأة العدو لها أو محاصرتها و إن وقوفه فى كل آن على نيـات العدوّ وتحركات قواته وفر لجيوشه الأمن اللازم وجعلهم يواجهون العدوّ أنّى فكر فى الإغارة عليهم .

مبدأ حشد القوى :

أما مبـدأ حشد القوى فهو كفيل بذاته لإثبات وجوده دائما فى هذه المعارك وإنه ليتضح جليا فى ما أقدم عليه إبراهيم باشا من حشد قواته لمحاصرة "نفارين" وفى ذهابه لملاقاة جيوش التخليص وفى مهاجمته لقرى "كرميدى" ومرتفعاتها بل وفى محاصرته النهائية "لنفارين" نفسها ، حيث جمع كل قواته البرية والبحريه المتوفرة لبلوغ هدفه الرئيسى فى النهاية .

تلك هى مبادئ الحرب التى نصت عليها أغلب تعليمات الكتب العسكرية الاستراتيجية وقد حققها إبراهيم باشا جميعها فى هذه المعارك إلا أن الكتب العسكرية الأميركية الحديثة تضيف مبدأ آخر ألا وهو مبدأ البساطة[1] وهذا المبدأ يعتبر من أهم المبادئ حقا فالخطط العسكرية المبسطة دائما وأبدا تأتى بنتائج طيبة ولا شك فى أن إبراهيم باشا قد حقق هذا المبدأ إلى حد كبير جدا لخططه بأسرها كانت مبسطة ورائعة وتهدف دائما إلى دحر العدو دون ما تعقيد فى تنفيذ ذلك فهو عند نزوله فى المورة لم يفكر فى القيام بحركة تطويق كبيرة بإنزال قواته فى جانبى شبه الجزيرة ولم تستهوه أهمية سقوط "نوبلى" عاصمة الثوّار بل لجأ إلى أخذ الأمور من أبسط نواحيها وهى النزول فى المنطقة التى فى يد الأتراك والتى تصلح لأن تكون قاعدة لعملياته ، هذا إلى أنه وضع نصب عينيه أن يعمل دائما بقول نابليون : "فيما يختص بى فإنى دائما أعمل على خطوط داخلية[2]" فلم يفكر فى العمل على الخطوط الخارجية وكأنما فى كل ذلك كان يحقق تعليمات "البارون جومينى" حيث قال : إن أربعة شروط ضرورية لنجاح العمليات على الخطوط الداخلية وهى :

(١) ضرورة توفير قاعدة مناسبة للعمليات تعمل منها القوات بحرية ولا تحاصر فيها .

---

(١) كتاب تاريخ العالم العسكرى لمينتشل ص « ٦ » .

(٢) كتاب الاستراتيجية كما استخدمت فى الحرب العالمية الثانية لبورن .

(٢) عدم التوسع الغير ضروري فى هذه القاعدة حتى لا تكتسح أجنابها بسهولة.

(٣) مهاجمة أجناب العدو دون قلبه .

(٤) هزم قوات العدو المشتبك معها نهائيا قبل البدء فى عمل أى هجوم آخر جـــديد .

وإن نظرة فاحصة لما قام به إبراهيم باشا خلال هذه العمليات ترينا بوضوح أنه قد قام بتنفيذ هـذه التعليمات بدقة تامة فعمل على تهيئـة قاعدته على مساحة مناسبة كما أسلفنا وهاجم "كورون" أولا حتى هزم قوات العدو وأمنها ثم اتجه إلى "نفارين" وطوق أجناب العدو فى حصاره "لنفارين" وفى هجومه على قرى "كرميدى". فلله دره من قائد كان يعرف كل صغيرة وكبيرة من فنون الاستراتيجية التى لم تكن قد دونت أو نشرت تعاليمها .

الدروس المستفادة من هذه المعركة

ويستخلص من هذه المعارك بعض الدروس الهامة الآتية :

(١) أهمية القائد فى المعركة :

إن هذه المعركة قد أظهرت لنا بوضوح أهمية القائد وقدرته فى المعركة فالتعاليم الاستراتيجية تعتبره العقل المحرك لكل آلة الحرب وعلى قرارات هذا العقل وتصرفاته تتوقف النتائج النهائية لها ... ولا شك فى أن من حسن طالع القوات المصرية أن كان قائدها إبراهـيم باشا الذى عرف كيف يتصرف فى كل المواقف المختلفة التى طرأت إبان هـذه المعارك من هجمات جيوش التخليص والذى كان دائما وأبدا بعيد النظر وعلى جانب كبير من الصواب فى جميع قراراته .

(٢): أهمية الضبط والربط فى النيران والتدريب الجيد للجنود :

ولقد رأينا الثوار يهاجمون القوات المصرية تدفعهم فى ذلك روحهم الوطنية العاليـة وحماستهم المتأججة ولكن ثبات القوات المصرية وهـدوئها وعدم إطلاقها

النيران حتى الوقت والمرمى المناسب أذهب بكل جهود المهاجمين وأذاقهم علقم الهزيمة ولا شك فى أن هذا العمل لن يتأتى إلا من قوات مدربة بلغت الذروة القصوى فى ضبط وربط واستخدام النيران وهذا من أهم عوامل النجاح فى هذه المعارك .

(٣) أهمية التعاون بين القوات المحاربة :

وتبدو لنا أهمية التعاون التام فى تلك المعركة فى ذلك الحصار البرى والبحرى على " نفارين " الذى لولاه لذهبت جهود الجنود المحاصرة هباء منثورا ولطال أمد الحصار دون جدوى طالما تصل إليها الإمدادات من البحر .

(٤) أهمية الخيالة فى الأراضى الوعرة وقطع مواصلات العدو :

وتبرز لنا الخيالة فى هذه المعارك لترينا أهميتها فى الأراضى الوعرة وخفة حركتها فى تطويق أجناب العدو وقطع خطوط مواصلاته وذلك مالم يغفله إبراهيم باشا بل لقد رأيناه يقودها بنفسه فى مهاجمة قوات العدو بقرى كرميدى والمرتفعات العالية بها.

(٥) أهمية المطاردة :

ولا شك فى أن أعظم درس مستفاد من هذه المعارك هى أهمية المطاردة فقد قال نابليون : " الانتصار لا يعد شيئا إذ يجب إتمام وتعزيز هذا النصر بالمطاردة[1] " وهذا ما اتبعته قوات إبراهيم باشا دواما إذ كان ديدنها دائما وأبدا مطاردة العدو المنسحب وقد رأينا ذلك فى كل عملية كبيرة أو صغيرة خلال هذه المعارك .

الروح التى خاض بها إبراهيم باشا غمار هذه المعركة

ولقد يتساءل بعض الباحثين عن السر فى عدم إصدار ابراهيم باشا أوامره المباشرة منذ بدء الحصار بالاستيلاء على جزيرة "سفاخترياً" وقد يعزون ذلك إلى أنه قد غاب عنه أن هذه الجزيرة هى مفتاح الموقف مدى تلك الأسابيع الطويلة التى أمضيت فى الحصار . ولكن لا شك فى أن هذا لم يغب عن ذهن إبراهيم باشا مطلقا

(١) كتاب الحرب لمحمد عثمان ص ٩٦

وإنما هو قد آثر ألا يلجأ إلى العنف والبطش والشـدة والضربات الحاسمة القاصمة فى أول معركة له بسبب أوامر والده له التى قد أوردنا بعضها فيما سبق . هذا إلى أنه كان يتوقع استسلام الثوار من الروح التى قد قوبل بهـا فى "مودون" ومما تناهى لأسماعه من الآثار السيئة التى فعلها المـال الذى أحضره وإياه اللورد "بيرون" وليس أدل على ذلك مما ذكره لوقرنى فى كتاب "ذكريات عن اليونان" عن هذه الآثار الذى استنتج منها أن إبراهيم باشا لم يكن يستحيل عليه أن يصل إلى نفارين بشرائه ضمائر اليونانيـين إلى أن قال : "ولو تم له ذلك لنادى به السكان واليـا على المورة ولأعلن هدنة عامة إرضاء لليونانيين الذين استسلموا له ويؤيد رأيى هذا ما شهدته بنفسى فى سهول مودون فقـد رأيت الفـلاحين اليونانيين يقبـلون يد إبراهيم وهو يأمرهم بالانصراف قائلا لهم : "أبلغوا الناس جميعا أنى أبوكم وأننى لن أقسو إلا على العصاة الثائرين"[(١)] فهذه هى الروح التى خاض بها إبراهيم باشا هذه المعركة وإنا لنرى أن الحامية كادت تستسلم له فى أول الأمر لولا هروع جيوش التخليص لها فهذه الفكرة الهامة لم تفت ولاشك تفكير ذلك القائد الفذ وها نحن رأيناه عندما اشتدت مقاومة الثـوار صمم على تنفيذها وحصـل عليها فى التو واللحظـة وقسى على العصاة الثائرين كما أعلن من قبل .

مهاجمة السفن اليونانية لسواحل مصر :

وتطالعنا هذه الحمـلة ببعض أعمال تثـير فى النفوس الدهشة لوقوعها فى ذلك العهد لأنها تشبه إلى حد كبير أعمال إغارات "الكومندوز" فى الحرب الأخيرة فلقد استهدفت السواحل المصرية فى خلال تلك الحملة لقرصنة السفن اليونانية التى أحفظها اشتراك مصر فى الحرب فأقبلت فى شهر يونيو ثلاث من حراقات اليونان إلى بوغاز الاسكندرية .ودخلت واحدة منها إلى الميناء أمام طابيـة "صالح" وأشعلت النار فى نفسها تريد بذلك حرق الأسطول المصرى الذى كان راسيا أمامها وهذه طريقة

---

(١) ص ٦٧ من كتابه هذا .

قد اشتهرت بها الحراقات اليونانيـة ودمرت بها الكثير من السفن العثمانية ولكن حراس القلعة بادروا بإطلاق المدافع على السفينة اليونانية و بادرت السفن الحربية المصرية إلى إرسـال زوارقها المسلحة بالمدافع فهاجمتها وأخمـدت نارها و برهنت فى تلك الحركة على مهارتهـا و يقظتها فلما رأت السفينتان الأخريان ما حل بالأولى لاذتا بالفرار ولمـا علم محمد على باشا بهذه المحاولة الجريئة أصدر أمره إلى محرم بك أميرال الأسطول المصرى ووكيله بلال أغا بالخروج مع خمس سفن حربية لتعقب الحراقتين اليونانيتين وخرج محمد على باشا بصحبة هذه الحملة على ظهر السفينة الحربية (جناح بحرى) ولكن الحمـلة لم تسطع اللحاق بالحراقتين وقد تابع محرم بك تجواله بالأسطول حتى بلغ مياه " رودس " حيث كانت السفن اليونانية راسية هنالك فلما أبصرت الأسطول المصرى لاذت بالفرار وأقلعت إلى مياه الأرخبيل [1] .

ومن تلك الحادثة العابرة ندرك مدى ما كان عليه هؤلاء الثوار من قوة وقدرة على التفكير ونحكم على مدى عبقرية إبراهيم باشا لتمكنه من الانتصار السريع عليهم وعلى يقظه القوات المصرية فى كل آن .

الموقف العام بعد هذه المعركة :

ولقد أحس الثوار بعـد هذه الموقعة بحرج موقفهم فإنهم بالرغم من تمكنهم من تهريب بعض رجالهم ومدفعيتهم وذخيرتهم بواسطة المراكب البريطانية والنمسوية إلى " كالاماتا ومسينى " فان " بيوتى " كانت مهددة بالأتراك وفى "ميسولونجى" مات " بيرون " . فهرع الكثير من اليونانيين الذين فى الخارج إلى بلادهم ليدافعوا عنها وأفرجوا عن القائد " كولوكوترونيس " الذى كان فى السجن فى " هيدرا " لاتهامه بتبديد بعض الأموال لكن وصوله للمورة جاء متأخرا إذ أصبحت الأرض التى شهدت نصر " الأرجوس " و " الإسبارطيين " و " كورنث " تحت رحمـة قائد الجيوش المصرية إبراهيم باشا [2] .

---

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢١٠

(٢) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٤٧

الفصل الخامس

تابع المرحلة الثانية

٢ — احتلال المورة

تطهير بيليا : (أنظر خريطة رقم ١)

بعد أن حصل إبراهيم باشا على موقع إستراتيجى محصن بثلاث قلاع (مودون — نفارين — كورون) فى "بيليا" صمم على اختراق البلاد واحتلال أراضيها ثم السير إلى "تريبوليتسا" العاصمة القديمة للسنجق التى سقطت فى أيدى الثوار فى ٥ أكتوبر عام ١٨٢١ ولكن قبل تقدمه رأى أن يطهر "بيليا" تماما من الثوار فاتبع تكتيكات رائعة فى تقدمه وهى أنه كان يدفع بقولات الخيالة أمام مشاته لتسبقها باحثة عن العصابات فإذا عثرت على بعضها عملت على قطع مواصلاتها من الخلف وعزلها حتى إذا حاولت الانسحاب ضيقت عليها الخيالة الخناق أما إذا ثبتت فى مواقعها هاجمتها المشاة من الأمام بينما تطوقها الخيالة من الأجناب وتحاصرها من الخلف فيقضى عليها . ولقد نجحت هذه التكتيكات نجاحا باهرا فأزالت الكثير من مقاومة العصابات اليونانية وطهرت "بيليا" من الثوار فبدأ إبراهيم باشا فى تحقيق تقدمه إلى "تريبوليتسا" (١) .

حشد قواته فى نيسى :

ولقد جعل إبراهيم باشا بلدة "نيسى" الواقعة شمال شرقى "كورون" على الشاطئ الأيمن لنهر "بيرماتزا" مركزا لحشد قواته من مختلف الميادين حتى يتمكن من التقدم بها إلى داخل البلاد .

تأمين خطوط مواصلاته قبل الزحف :

ولم يقف إبراهيم باشا مكتوف الأيدى خلال إتمام ذلك الحشد بل تقدم ومعه

---

(١) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٤٩

١٥٠٠ مقاتل قاصـدا ممر "ليوندارى" وهو أحد منافذ هضبة "أركاديا" الذى يجرى فيه نهر "ألفى" وكان يحتله (البابا فلشياس) من الهتيرى ومعه بعض رجاله الأقوياء ليمنع تقدّم المصريين لاحتلال قلب "أركاديا" وليهدّد خطوط مواصلاتهم إذا تقدّموا جنوبا فى "تايجيت" فصمم إبراهيم باشا على الاستيلاء على ذلك الموقع الاستراتيجى الهـام فهاجم عصابات "فلشياس" فى ١٠ يونيو بتكتيكاته المعتادة الرائعة فهزمهم بعد مقاومة عنيفة دامت لستّ ساعات . و بعد أن فتح إبراهيم باشا ذلك الباب الموصل "لأركاديا" حصنه وأسند حراسـته لبعض قوّاته ثم عاد إلى "نيسى" حيث تم حشد قوّاته فأمر بالتحرك بعد ثلاث ساعات إلى "كالاماتا"(١) .

فتح كالاماتا :

تقع "كالاماتا" على الشاطئ الأيمن لنهر "برماتزا" وكان "بترو" القائد العام للثـوّار فى تلك البقاع قـد حشد فيها ٤٠٠٠ مقاتل وحصن مواقعه وحفر الخنادق حولهـا فهاجمه إبراهيم باشا فى الحـال بثلاث آلايات وفرقة من الفرسان ولم يكد اليونانيون يبصرون بالجنود المصرية حتى ولوا الأدبار لمـا تناهى إلى أسماعهم من أنباء عن هزيمة "فلشياس" وقوّاته فأرسل إبراهيم باشا فرسانه خلفهم فطاردتهم وقتلت نحو ٥٠٠ منهم وأحرقت بعض القرى منها "كتيريا" بلدة "بيترو" واستولى على الميناء .

وفى اليوم التالى حاصر ٢٠٠٠ من الثوّار فى دير بلدة "فلاميديا" القائم على أكمة عالية فاستولى عليه وأسرهم .

الاستيلاء على تريبوليتسا :

وفى ١٨ يونيو تقـدّم إبراهيم باشا فعبر سلسلة جبال "تايجيت" وسار إلى "تريبوليتسا" عاصمة جزيرة المورة فمرّ بعض الجيش بإقليم "أركاديا" والبعض الآخر بإقليم "ليوندارى" نخرب القولان فى طريقهما قريتى "كالافيا وبولاكى" وكان

(١) نفس المصدر ص ٢٥٠

سليمان بك وحسين بك ورشوان أغا يحمون إبراهيم باشا فى زحفه وصعوده فى الجبال وقد صعدوا فيها معه للاستطلاع وكان "كولوكوترونيس" و "بتراكو" قد تحصنا بقمة جبل (تركى خورا) لمقاومة الجيش المصرى . ووقف إبراهيم باشا على نياتهما فانقض عليهما ودحرهما ودمر استحكاماتهما وقتل خمسمائة من رجالهم ومنهم الجنرال "بتراكو" وما أقبل المساء حتى انضم إبراهيم باشا إلى جيشه الأساسى .

وفى ١٩ يونيو تأهب للنزول فى سهل "ليونداري" وعلم أن الأعداء ينصبون له كمينا فأنفذ إليهم فصيلة دحرتهم وكان "كولوكوترونيس" قد اتخذ له فى النقط الخلفية موقعا منيعا لكن جنوده لم تجرؤ على البقاء فيه خيفة أن يدهمهم إبراهيم باشا فينكل بهم ولذا فروا على وجوههم فى الجبال لا يلوون على شىء و بذلك بات الطريق مفتوحا للجيش المصرى فدخل فى ٢٣ يونيو وفى طليعته إبراهيم باشا مدينة "تريبوليتسا" بعد أن هجرها سكانها وأشعلوا فيها النار (١) .

ولم يستنم إبراهيم باشا إلى هذه الانتصارات السريعة فقرر على الرغم من المشاق التى كابدها جيشه فى المواقع الأخيرة أخذ (نوبلى دى رومانيا) التى اتخذها الثوار عاصمة لهم فترك لهذا الغرض فى عاصمة المورة جيشا احتياطيا قويا وتحرك فى ٢٥ يونيو فى قوة مؤلفة من ٥٠٠ فارس وأورطة مشاة و بعض المدفعية والهاون فوصل فى اليوم الثالث من زحفه إلى سهل "أرجوس" حيث أحرق كل ما فيه من أشجار الزيتون ثم انقض على طواحين "نوبلى" التى كانت فى حراسة "ابسلانتى" و ٣٠٠ من جنوده المشهورين باسم (الباليكار (٢)) فترامت القوات بالنيران وتصنع إبراهيم باشا حركة رجعية قصد بها إلى استدراج العدو فى طريق "تريبوليتسا" فكللت هذه الخدعة بالنجاح واستولى على جميع مواقع الأعداء ثم استأنف السير حتى عاد إلى معسكره فى ٣٠ يونيو

---

(١) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوارد جوان ص ٦٧٩

(٢) نفس المصدر .

توفير المؤن وتنظيم الشؤون الإدارية :

وأول ما اهتم به إبراهيم باشا عند عودته إلى عاصمة المورة هو تدبير الوسائل اللازمة لإقامه جنوده بها فى فصل الشتاء فحصد ودرس مالم يتيسر للأهالى أن يحصدوه أو يدرسوه من الحبوب ونقله على الخيل التى غنمها منهم إلى المخازن والمستودعات ولكى يضمن للعمال الذين قاموا بهذه الأعمال الأمن على حياتهم بث الداوريات حولهم للاستطلاع وكان يختلف دائما إلى النقط الأمامية منها ليشرف بنفسه على أحوالها وقاد بعض الدوريات المحاربة بنفسه ومعه فرسان حسين بك لأخذ الطواحين اللازمة لطحن الحبوب المحصودة فقاتل الثوار واستولى على ما أراد [(١)] .

احتلال بتراس :

وفى ٢٧ يوليو عرج إبراهيم باشا على وادى "لكونيا" حيث كان الثوار يرابطون فى معاقلهم فهزمهم واستولى على استحكاماتهم ثم احتل "بتراس" وبذلك صار شبه جزيرة المورة فى قبضة الجيش المصرى عدا مدينة "نو بلى" عاصمة الحكومة الثورية فأخذ يتأهب لحصارها [(٢)] .

الموقف فى نهاية عام ١٨٢٥ :

لقد أصبحت شبه جزيرة المورة بأسرها فى يد إبراهيم باشا عدا "نو بلى" ولكن كان الثوار يزعجون معسكراته بمناوشاتهم وهجماتهم الجزئية فأرسل إبراهيم باشا إلى محمد على باشا فى طلب إمدادات له فجهز له عاهل مصر الآلايين السابع والثامن بقيادة حسن بك وحسين بك للإبحار إلى "نفارين" وبرفقتهما بلوكين من المهندسين وقوة كبيرة من الفرسان ومدفعية حصار وجبلية فبلغت القوة فى تعدادها جميعا ١٠,٠٠٠ وصلته فى ١٠ يناير عام ١٨٢٦ [(٣)] .

(١) نفس المصدر ص ٦٨١

(٢) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢١١

(٣) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٥٤

التحليل الفنى لهذه المعارك

لا شــك وأن هــذه المعارك الخاطفة التى قامت بها القــوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا تثير دهشتنا . ففى أقل من شهرين من بدء زحفها إلى داخل المــورة احتلت كل أراضيها وبلادها عدا "نو بلى" ومثل هذه النتائج لا تتأتى إلا من خطط رائعة قد أحكم تدبيرها ونسق تنفيذها فأتت بأكلها سريعة شهية . والحق إنه بتقرير إبراهيم باشا جعــل جميع عملياته على الخطوط الداخلية كنابليــون ضمن وقاية قواته وخطوط مواصلاته وتمكن من التقــدم يمنة و يسرة بالتوالى حتى لا يعرض أجنابه للعــدو مطلقا فباحتلاله "كالاماتا" ثم "أركاديا" و"تريبوليتسا" و"أرجوس" ثم "بتراس" تمكن من الحصول على نصر سريع بفضل تجميع قواته واستخدامه لأصول الحرب فى كل معاركه ولننظر كيف طبق إبراهيم باشا مبادئ الحرب فى هذه المعارك :

(١) مبدأ المحافظة على الهدف :

قال نابليون : "إنى لأرى دائما شيئا واحدا وهو جيش العدو الرئيسى" والحق إن الهدف الأساسى لأى جيش مهاجم هو قوات العدو وليست الأهداف الجغرافية كعاصمة مملكته لأنه إذا هزمت تلك الجيوش إنهارت مقاومة العواصم[(١)] ولقد كان هدف إبراهيم باشا خلال هــذه المعارك قوات العــدو المختلفة فأنى وجدت هــذه القوات هاجمها ودحرها ولم يلق بالا لعاصمته "نو بلى" إذ أنه كان موقنا من الاستيلاء عليها بعد تهيئته للفرص المناسبة ، هذا إلى أن انتصاره على قوات العدو أنى صادفها فى المورة أوصلته إلى احتلال المورة بأسرها عدا "نو بلى" كما رأينا .

(٢) مبدأ القتال التعرضى :

ولقد حرص إبراهيم باشا طوال حروبه فى المورة على الاحتفاظ بالمبادأة وهذه لا تتأتى إلا بالقتال التعرضى دواما ففى جميع عملياته هذه كان رائده الهجوم المستمر

(١) كتاب فن الحرب على الأرض لبورن ص ١٢

على قوّات العـدو لإجلائها عن مواقعها التى لو تحصنت فيها ودافعت عنهـا دفاع المستميت لعرقلت تقدّم قوّاته وهـذا الهجوم قد ثبط روح العـدو المعنوية بجعله يفرّ من أمام قوّاته إذا سمع باقترابها و بذلك حقق له النصر السريع .

(٣) مبدأ خفة الحركة :

ولا شك فى أن هذا القتال التعرضى المستمر لم يكن ليصبح طوع بنان إبراهيم باشا لولا توفيره التام لمبدأ خفة الحركة لقوّاته فباتباعه لتلك التكتيكات الرائعة ، التى سبق أن أشرنا إليها ، أعطى وحداته قوّة دافعة جعلتها تسير من نصر خاطف إلى آخر سريع إذ استخدم كل سلاح فيما هو أهل له فعرف كيف يسـتفيد بخصائص كل سلاح وأمكنه الاستفادة التامة بخفة حركة الخيالة التى لم تقتصر أعمالها على تطويق أجناب العـدو وقطع خطوط مواصلاته فقط بل لقـد دأبت دواما على مطاردة فلوله الهاربة لتوقع الخسائر الفادحة فى صفوفها .

(٤) مبدأ الوقاية :

و إنا لا نجد مبدأ حظى بعناية إبراهيم باشا كمبدأ الوقاية فهو فى كل أعماله هذه كان يطبقـه التطبيق الرائع المنتج فباستكشافاته السريعة الدائمة كان يوفـر الوقاية لقوّاته المتقدّمة و بتأمينه لخطوط المواصلات قبل التحرك كان يثبت صمام الأمن الذى يعطى لقوّاته الحرية فى العمل باطمئنان وبدفعه للداوريات المحاربة باستمرار كان يقى قوّاته من أى عمل مفاجئ يخفيه له العدو .

(٥) مبدأ حشد القوى :

ولقد حرص إبراهيم باشا فى جميع أعماله فى المورة على تطبيق مبدأ حشد القوى فقبل بدء تقدمه حشد قوّاته كما أسلفنا فى "نيسى" وفى كل معركة من المعارك التى خاضها كان يوفر القـوّات اللازمـة لإحراز النصر فيها و إننـا لنلمس ذلك فى أنه لم يضطر لإمـداد أى قوّات قد دفعت لأى معـركة إذ كانت القـوّات المحشودة دائمـا وأبدا كافية لدحر العدو ومطاردته .

(٦) مبدأ المفاجأة :

ولقد حققت خفة حركة قوات إبراهيم باشا واستخدامه لها الاستخدام المنتج مبدأ المفاجأة دواما فى هذه المعارك . فدائما وأبدا كانت قواته الخفيفة تقطع خطوط مواصلات العدو فتفاجئه بظهورها خلف قواته ولقد بلبل إبراهيم باشا أفكار الثوار باتخاذه تلك الخطة السريعة فى الهجوم التى كانت فى أهدافها تتجه يمنة ثم يسرة دون أن يقف العدو على نواياه فكانت هذه سلسلة من المفاجآت لقوات العدو جعلتها تستسلم لقوات إبراهم باشا أنى ظهرت أمامها .

(٧) مبدأ التعاون :

كما وأن قوات إبراهيم باشا قد حرصت على تطبيق مبدأ التعاون بين أسلحتها المختلفة حرصا كبيرا فالفرسان والمشاة باتباعهم لتكتيكات إبراهيم باشا، التى لا تختلف عن تكتيكات الجيوش الحديثة الآن فى شيء كانوا يظهرون مدى أهمية التعاون بين الأسلحة المختلفة فى إحراز النصر السريع .

الدروس المستفادة من هذه المعارك

ومن هذه المعارك نستخلص الدروس الهامة الآتية :

(١) أهمية تأمين قاعدة للعمليات :

لقد أوضحت لنا هذه المعارك أهمية وجود قاعدة مؤمنة للعمل منها فإبراهيم باشا باتخاذه "بيليا" قاعدة له أمن خطوط مواصلاته وسهل تحركاته لعملياته وبذلك تم له اكتساح قوات الثوار فى شبه جزيرة المورة فى هذه الفترة القصيرة. والحق إن أهم ما يرمى إليه أى قائد يبغى القيام بعمليات سريعة هجومية هو أن يؤمن قاعدة لقواته حتى يمكنه العمل بحرية وفى طمأنينة تامة .

(٢) أهمية اتخاذ قوات العدو دون المواقع الجغرافية هدفا للهجوم :

ولقد أبانت لنا هذه المعارك أهمية اتخاذ قوات العدو هدفا للهجوم دون التفكير في الاستيلاء على المواقع فإبراهيم باشا فى احتلاله للمورة كان هدفه الأساسى قوات الثوار كما أسلفنا فأنّى وجدها دحرها وأوصله ذلك للاستيلاء على البلاد الهامة بل إن الثوار بمجرد علمهم بأنه قد اقترب من" تريبوليتسا" هربوا منها وذلك لأنهم عرفوا مدى قوته فى مهاجمة قواتهم المختلفة التى صادفته .

(٣) أهمية خفة الحركة فى الهجوم والمطاردة فى الأراضى الجبلية :

وأبرزت لنا هذه المعارك أهمية خفة الحركة فى الهجوم والمطاردة فى الأراضى الجبلية والوعرة فإبراهيم باشا بتوفيره خفة الحركة لقواته بفضل تنظيماته لها وتأمينه لخطوط مواصلاته واستخدامه للتكتيكات الرائعة أمكنه القيام بذلك العمل الهجومى الدائم ومطاردة فلول الثوار أنى هربوا فنجح فى احتلال كل شبه الجزيرة الجبلية تقريبا فى ذلك الوقت القليل .

(٤) أثر الروح المعنوية فى القتال :

وتوضح لنا هذه العمليات مدى أثر الروح المعنوية فى القتال فالثوار فى كل هذه المعارك لم يصمدوا للقوات المصرية المهاجمة لانهيار الروح المعنوية فيهم ... لقد كانت طبيعة الأرض وتعذر طرق المواصلات فى الجبال خير معين لهم على عرقلة تقدّم القوات المصرية ... بل إن المنافذ المختلفة للهضاب والطرق كانت أفضل أعناق للزجاجات التى تمكنهم من إيقاف تحرك القوات المصرية ولكنهم لم يصمدوا أمام أى هجوم سريع أقدم عليه إبراهيم باشا وذلك لضعف الروح المعنوية فيهم بل ها نحن نراهم أمام" تريبوليتسا" يهربون منها ويشعلون فيها النيران .

(٥) أهمية الاستكشاف وتأمين خطوط المواصلات :

ويطالعنا إبراهيم باشا فى هذه العمليات بدرس رائع هو أهمية استكشاف القائد بنفسه لمسرح عملياته وتأمينه لخطوط مواصلاته فبمراعاته لهذا العمل الحربى الضرورى طوال حملته أمكنه أن يؤمن قواته من شرور مفاجأة العدو لها وأمكنه الحصول على الكثير من المعلومات التى أفادته فى هجماته المفاجئة على قوات العدو .

(٦) أهمية توفير المطالب والشئون الإدارية محليا للوحدات :

وأخيرا يضرب لنا إبراهيم باشا أروع المثل على ما يجب أن يعمل عليه كل قائد لتوفير مطالب وحداته وتنظيم شئونها الإدارية فى كل آن حتى ولو كان ذلك محليا ... لقد كان دائما وأبدا يعمل على سد مطالب وحداته بل ها نحن قد رأيناه يعمل على توفير المؤن لهم ويحمى العمال أثناء الحصاد بل ويقاتل من أجل الطواحين وذلك ليقينه بصدق قول « نابليون » : "إن الجيوش تسير على بطونها" فبتوفيره كل الشئون الإدارية لوحداته تمكن من حفظ روحهم المعنوية وجعلهم دائما وأبدا صالحين لكل الأعمال الحربية المطلوبة منهم .

الفصل السادس

تابع المرحلة الثانية

٣ — فتح ميسو لونجى وأثينا

حالة الأتراك أمام ميسو لونجى :

فى الوقت الذى كانت فيه قوات إبراهيم باشا تنتقل من نصر إلى فوز فى أنحاء المورة كان محمد رشيد باشا المعروف بكوتاهية نسبة إلى وطنه كوتاهية بالأناضول قد فت فى عضده اليأس من استيلائه على "ميسو لونجى" إذ سبق له أن رفع عنها

الحصار هو والأميرال عمر يونس فى ١٣ يناير سنة ١٨٢٤ بكيفية ألصقت به العار، إذ تحدته القوات اليونانية واضطرته إلى فك الحصار ولما أيقن السلطان بتردده فى الاستيلاء عليها أنفذ له أوامره فى كلمتين " إما ميسو لونجى و إما رأسك " فعاود مهاجمتها عام ١٨٢٥ ولكن باءت كل هجماته بالفشل وهنا لم يجد أمامه سوى الاستنجاد بإبراهيم باشا[١] .

مسارعة إبراهيم باشا لنجدته :

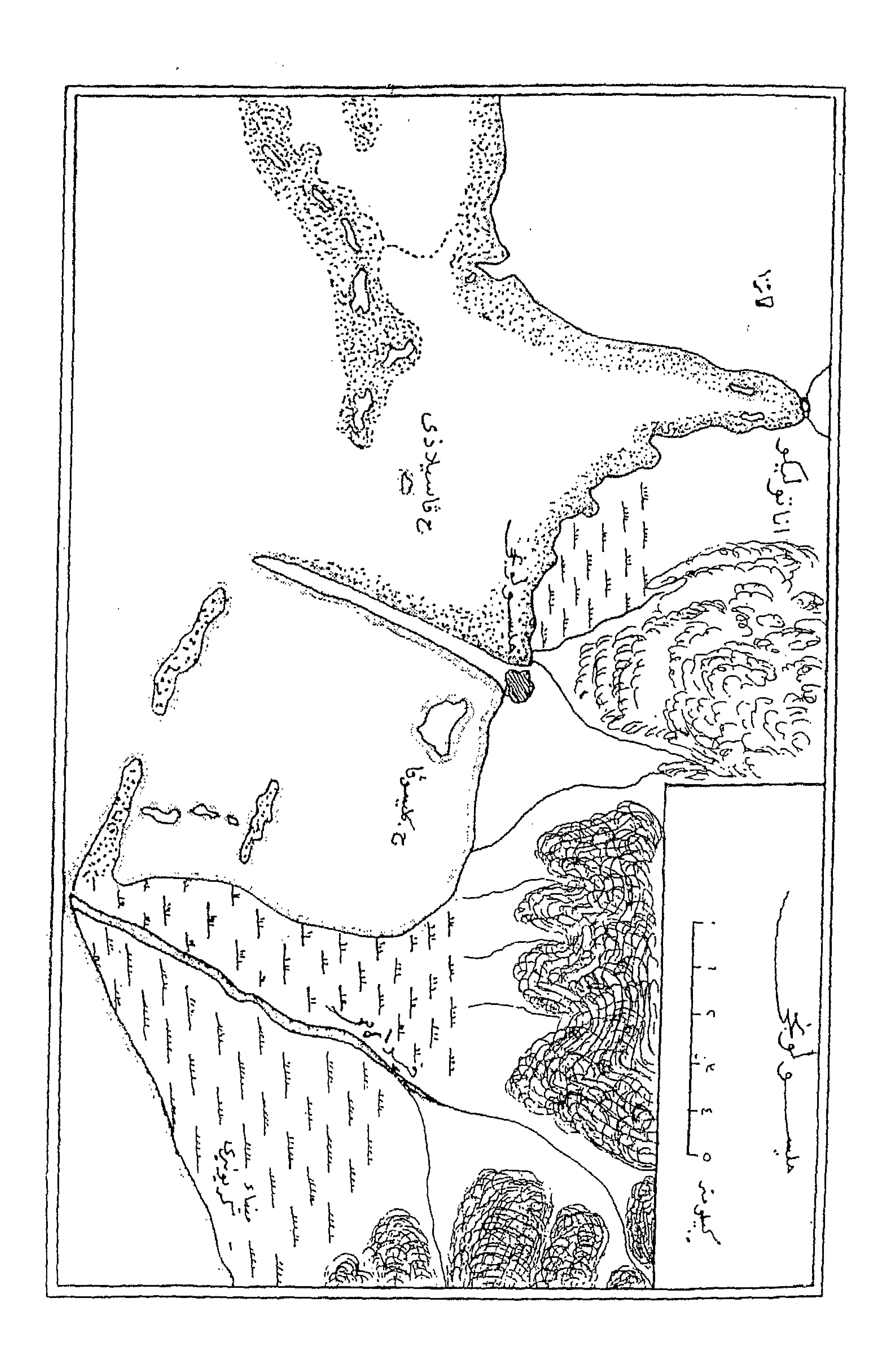
ولقد وصل استنجاد رشيد باشا هذا إلى إبراهيم باشا فى الوقت الذى وصلته الإمدادات من محمد على باشا فعدل مؤقتا عن مهاجمة "نو بلى" وسارع لنجدة رشيد باشا لأهمية "ميسو لونجى" إذ أن مصيرها باعتبار أنها عاصمة اليونان الغربية يؤثر ولا شك تأثيرا قاطعا فى مصير شبه الجزيرة كلها، هذا إلى أن هذا الثغر على مقربة من الفتحة الشمالية لخليج "ليبانت" وكانت تصل منه إلى أهل "سولى" مهمات القتال الضرورية كما أنها كانت تيسر سبل الاتصال باللجان المشايعة لليونان فى أوربا[٢] .

سار إبراهيم باشا ومعه ١٨ أورطة نظمها من آلاياته الست بلغت قوتها ١٠,٠٠٠ مقاتل و ٥٠٠ فارس إلى "باتراس" وعبر الخليج مبحرا إلى "ميسو لونجى" فى فبراير عام ١٨٢٦ بعد أن ترك فى المورة باقى قواته فى حامياتها المختلفة وأسلم القيادة فيها للكولونيل سيف (سليمان باشا) الذى اتخذ " تريبوليتسا " مقرا له واشترك إبراهيم باشا مع رشيد باشا فى حصار "ميسو لونجى" ولكن ذلك لم يفت فى عضد الثوار بل هاجموا المحاصرين لهم واصطنعوا الانسحاب أمامهم فسارعت القوات المصرية كدأبها لمطاردتهم ولكنهم أوقعوهم فى منطقة قد بثوا فيها الألغام الأرضية فكبدتهم خسائر فادحة . ووقعت بعد ذلك معركة أخرى مماثلة لها خسر فيها المصريون ثلثمائة مقاتل[٣] .

---

(١) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوارد جوان ص ٦٨٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٨٦ . (٣) نفس المصدر ص ٦٩١ .



خطة إبراهيم باشا للاستيلاء على ميسو لونجى :

عند ذلك بدأ إبراهيم باشا يستكشف الموقع بنفسه وبمعاونة السنيور "روميني" الإيطالى ثم قرر أن خير وسيلة لإلزام "ميسو لونجى" على التسليم هى المجاعة فقرر سد المسالك الموصلة إليها من ناحيتى البر والبحر وهذه المواقع هى : إيتوليكا ، فاسيلادس ، كايسوفا (أنظر الخريطة رقم ٣) وقد كان القواد الأتراك قد أهملوا احتلال هـذه المنافذ فتمكنت قوات إبراهيم باشا من احتلالها بعد مقاومة شديدة و بذلك شدد الحصار على الميناء .

سقوط ميسو لونجى :

ولقد أراد إبراهيم باشا كدأبه دواما فى هـذه الحملة أن يتفادى أهوال القتال وسفك الدماء فطلب من المدينة التسليم ولكن أهلها أبوا وأجمعوا أمرهم على المقاومة حتى النهاية مهما كلفهم ذلك من تضحية وأرسلوا إلى القائد اليونانى "كرايسكاكى" وكان على مقربة من المدينة بأنهم قـد عزموا على الخروج جميعا فى ليلة ٢٢ ابريل عام ١٨٢٦ [١] وطلبوا إليـه أن يهـاجم الجيش المصرى من الخلف فى تلك الليـلة كى يشغله بهجومه فلا يفطن لخروجهم فلما أقبل "كرايسكاكى" فى ذلك الموعد كان إبراهيم باشا له بالمرصاد إذ وضع على قمم الجبال فرقة من جيشه لتحول دون تقـدم المدد المنتظر وصوله لتعزيز الحامية المحصورة ومن جهة أخرى لتصد هـذه الحامية إذا خرجت من "ميسو لونجى" فلما خرجت هذه الحامية فى الوقت المعلوم فى هدوء وسكون مستترين فى جنـح الظلام قابلهم الجيش المصرى بنيران حامية حصدت صفوفهم فارتدوا إلى المدينـة فى غير نظام فطاردتهم القوات المصرية حتى دخلت فى أعقابهم ودحرتهم .

ولما ضاقت السبل بالبقية الباقية من المدافعين اجتمعوا فى مستودع الذخائر وكان عددهم نحو ألفين ما بين شيوخ وأطفال ونساء وقد اتفقت كلمتهم على إيثار

---

(١) كتاب مصر الحديثة لفولابل ج ٢ ص ٣٥١

الموت على التسليم فوضعوا البارود وأشعل رئيسهم النار فانفجر وخر المكان على من فيه وقتلوا جميعا . ولقد تكبد المصريون فى فتح المدينة خسائر جسيمة إذ بلغ عدد قتلاهم فى الهجمة الأخيرة فقط نحو ألفى قتيل[١] .

حصار أثينا :

و بعد فتح "ميسو لونجى" انفصل الجيش المصرى عن التركى فعاد إبراهيم باشا إلى المورة وقصد الجيش التركى مدينة أثينا لفتحها ولم يكن بها من القوة ما يكفى لصد هجماته فبادر القائد اليونانى "كرايسكاكى" والكولونيل "فافييه" الفرنسى إلى نجدة المدينة ولكن رشيد باشا أحكم حصارها وما زال يشدد الحصار حتى سلمت فى يونيو عام ١٨٢٧[٢]

التحليل الفنى لمعركة ميسولونجى

إن أهم ما يسترعى الانتباه فى الاستيلاء على "ميسو لونجى" هو صمودها لأكثر من عامين أمام القوات التركية ثم انهيارها أمام قوات إبراهيم باشا فى أقل من ثلاثة أشهر ... وليس مرد ذلك إلى ضعف القوات التركية بل هو يرجع فى الحقيقة إلى قوة وصلابة مراس المدافعين عن "ميسو لونجى" فلقد رأينا العجب العجاب من إصرارهم على المقاومة بل والانتحار عند التسليم وليس أدل على ذلك مما جاء فى خطاب رشيد باشا إلى إبراهيم باشا عندما استنجد به[٣] فقد نعتهم بأنهم سحرة لايهزمون . وهنا يخطر لنا ذلك السؤال المحير كيف تمكن إبراهيم باشا من إخضاعهم فى تلك الفترة القصيرة؟ والإجابة عليه لا شك وأنها واضحة وسهلة وميسورة إنها تتلخص فى عبقرية القائد ونظرته الفاحصة وتقديره الذى لا يخيب .

---

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢١٢

(٢) نفس المصدر .

(٣) راجع ذلك الخطاب فى كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوارد جوان ص ١٨٥

لقد خبر إبراهيم باشا بنفسه الموقف أمام " ميسو لونجى "، وحاول الاستيلاء عليها بحصارها حسب خطة رشيد باشا ، ولكنه سرعان ما أدرك بأن هذه الخطة لن توصله إلى النصر السريع المطلوب ، فالحصار الذى كان مضروبا عليها لم يكن بالحصار الحق الذى يجعل هؤلاء المستميتين فى الدفاع أن يستسلموا إذ كانت المؤن والعتاد والذخائر تصلهم ، وكانت الألغام مبثوثة حول معاقلهم ، بل إنهم حذقوا دروب الخديعة أيضا ، فكانوا يهاجمون الوحدات المحاصرة ويتظاهرون أمامها بالانسحاب والانهزام ، فتندفع وراءهم القوات المصرية التى ديدنها المطاردة السريعة لتظفر بهم ، ولكنها سرعان ما تجد نفسها وسط حقول الألغام التى تميد بالأرض من تحت أقدامهم ، وهنا أيقن إبراهيم باشا بأن حل هذا الموقف الشائك فى يده هو ، فقام بالاستطلاع الدقيق بنفسه ، وسرعان ما لمعت الفكرة الصحيحة فى ذهنه المتوقد بالذكاء ، لقد عرف أن مفتاح الموقف فى احتلال " ايتوليكا وفاسيلادس وكليسوفا "، وهى المسالك البرية والبحرية التى تذهب بالحصار المضروب من البر ومثلها فى ذلك مثل جزيرة " سفاخنريا " فى معركة " نفارين "، فصمم على احتلال هذه المسالك ، وبذلك أصبح للحصار المضروب قوة منتجة جعلت القوات المحاصرة فى الداخل تسعى إلى الخروج من معاقلها للقتال حيث دارت عليهم الدائرة . ولا شك فى أن نجاح خطة إبراهيم باشا هذا النجاح السريع يرجع الى تطبيقه الرائع لجل مبادئ الحرب فى هذه المعركة ، ولننظر كيف طبق هذه المبادئ .

(١) مبدأ المحافظة على الهدف :

لقد صمم إبراهيم باشا على الاستيلاء على " ميسولونجى " ، عندما استنجد به رشيد باشا فعزف عن التقدم إلى " نوبلى " كى يجعل له هدفا واحدا فلا يجزئ قواته بين هدفين فى آن واحد ولا يعمل فى جهتين فى نفس الوقت وظل إبراهيم باشا محافظا على هدفه هذا لا تصرفه عنه صلابة المدافعين أو خدعهم الكثيرة أو قوات التخليص بقيادة " كرايسكاكى " حتى ظفر بهدفه فى النهاية .

(٢) مبدأ حشد القوى :

لقد حشد إبراهيم باشا "لميسو لونجى" جميع القوات اللازمة والمتوفرة لديه فى ذلك الوقت وقد بلغت نيف وعشرة آلاف مقاتل وذلك كى يظفر بهدفه فى أقرب الأوقات دون أن تلحقه أدنى هزيمة ولقد مكنه هذا الحشد من الصراع الشديد والاستمرار فى محاصرة "ميسولونجى" رغم تكبده خسائر كثيرة فى ذلك الحصار كما أنه تمكن بفضل هذا الحشد من مواجهة قوات "كرايسكاكى" التى قد أزمعت فك الحصار بمعاونة الثوار المحصورين .

(٣) مبدأ القتال التعرضى :

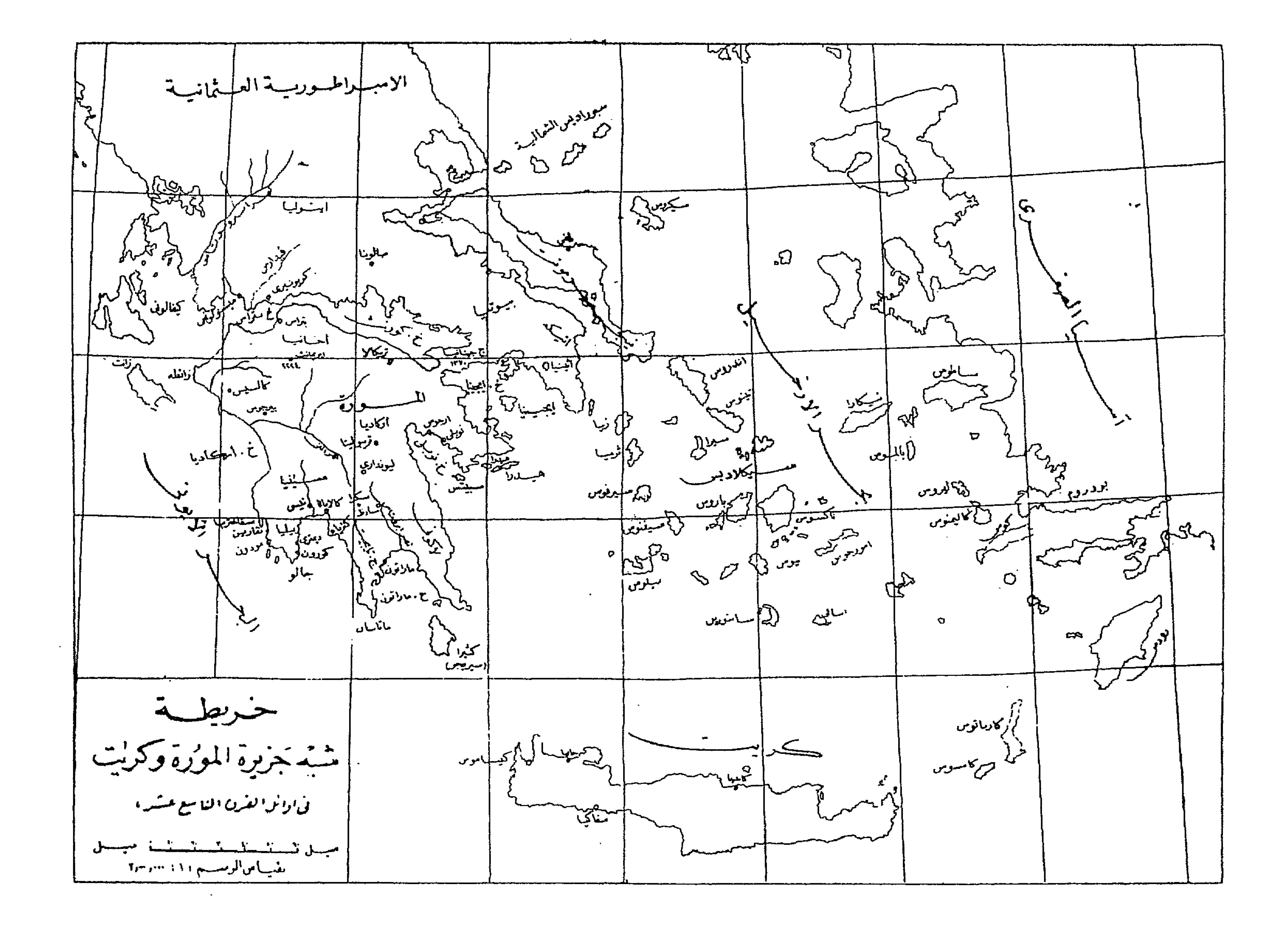
ولم يركن إبراهيم باشا خلال ذلك الحصار المضروب إلى التزام أى خطة سلبية بل كان يعمل دواما على تحقيق مبدأ القتال التعرضى بمهاجمة قوات الثوار ومطاردتهم رغم تكبده الكثير من الخسائر، هذا إلى أنه فى مهاجمته للقوات المتحصنة فى "إيتوليكا وفاسيلادس وكليسوقا" واستيلائه عليها أظهر أهمية القتال التعرضى حتى فى معارك الحصار الثابتة البطيئة .

(٤) مبدأ المفاجأة :

ولقد فاجأ إبراهيم باشا القوات المحاصرة باستيلائه على المسالك البرية والبحرية فجعلها توقن بقرب هلاكها وأعاد إحكام المفاجأة لها عندما هرعت فى الخروج ليلا للتعاون مع قوات "كرايسكاكى" فأذهب بما كانوا يضمرونه من مفاجأة لقواته وطاردهم حتى ألحق بهم الهزيمة النهائية .

(٥) مبدأ التعاون :

و إن أهم مبدأ حققه إبراهيم باشا فى هذه المعركة هو التعاون فبتعاونه التام مع رشيد باشا أمكنه تشديد الحصار على العدو ، و بتعاون بحريته مع قواته الأرضية أمكنه ضرب الحصار برا و بحرا على الثوار فى ميسولونجى مما اضطرهم إلى الخروج للقتال ثم الاندحار والتسليم .



خريطة
شبه جزيرة المورة وكريت
في اوائل القرن التاسع عشر
مقياس الرسم ١ : ٣٠٠٠٠٠٠
الامبراطورية العثمانية
سبورادس الشمالية
ابيروليا
كفالونيا
زانت
المورة
اركاديا
ارغوليدا
ليونداري
ميسينيا
كالاماتا
ماراتوني
ماناسان
كثيرا
اثينا
ايجينا
هيدرا
سبيتسيس
اندروس
تينوس
سيرا
زيا
ثرميا
سيكلادس
سيريفوس
سيفنوس
باروس
ناكسوس
ميلوس
ساموس
نيكاريا
باتموس
ليروس
كاليمنوس
كوس
بودروم
رودس
اسكيروس
كريت
كانيا
سفاكيا
كارباثوس
كاسوس

الدروس المستفادة من معركة ميسولونجى

وأهم الدروس المستفادة التى تطالعنا بها معركة "ميسولونجى" هى :

(١) أهمية الخطة والدقة فى تنفيذها :

لقد وقف الأتراك أمام "ميسولونجى" ذلك الوقت الطويل لعقم الخطة التى وضعها رشيد باشا إذ لم تكن خطته محكمة حيث أغفل الاستيلاء على مفتاح الموقف وعندما رسم إبراهيم باشا خطته الحصيفة للحصار التام تمكن بدقة تنفيذها من جعل الثوار يستسلمون فى شهور قلائل وهـذا يعدّ أروع مثـل لأهمية القائد فى المعركة إذ هو العقل المدبر الذى يرسم الخطط التى توصل للنجاح .

(٢) أهمية إحباط نوايا العدو للمفاجأة :

وتطالعنا هذه المعركة بدرس آخر له قيمته العظمى وهو أهمية توافر المعلومات المستديمة عن العـدو والوقوف على نواياه حتى لا تفاجأ قوّاتنا به وهذا يتضح لنـا جليا من يقظة إبراهيم باشا وإحباطه لخطة الثوّار عند استنجادهم "بكرايسكا كى" لقد رغبوا فى مفاجأة القوّات المصرية ولكن إبراهيم باشا فاجأهم بيقظة هذه القوّات واستعدادها فأحبط خطتهم وجعلهم يستسلمون .

الموقف العام بعد سقوط ميسولونجى وأثينا

لقد كانت حالة الثورة اليونانية بعد سقوط "ميسولونجى" و"أثينا" فى منتصف عام ١٨٢٧ تدعو إلى اليأس ، فلم يكن فى أيدى الثوّار سوى "نوبلى" فى بلاد المورة ، وتركزت قوة الثورة فى جزيرة "هيدرا واسبتزيا" من جزر بحر الأرخبيل ، وقد عاث الثوّار فى البحر فسادا وازدادت قرصنتهم .

انتهاء المرحلة الثانية من مراحل حرب المورة

وبسقوط "ميسولونجى" و"أثينا" انتهت المرحلة الثانية من مراحل حرب المورة ، وهى كما رأينا كانت المرحلة الهامة فى تاريخ هذه الحملة حيث وقعت فيها تلك

المعارك الحاسمة التى كادت تقضى على الثورة قضاءا مبرما ، لولا ما قد بدأ يتلبد فى سماء أحداث العواصم الأوربية من سحب منذرة بهبوب رياح عامل جديد ، ألا وهو تحرك الرأى العام الأوربى لمناصرة اليونان ، وهذا هو بدء المرحلة الثالثة من أحداث هذه الحرب .

الفصل السابع

المرحلة الثالثة (يوليو ١٨٢٧ — أكتوبر ١٨٢٨)

معاهدة لوندرة (٦ يوليو ١٨٢٧) :

فى غضون المرحلة الثانية من هذه الحرب كانت الدول الأوربية لا تفتأ تتفاوض لإنقاذ الثورة فى اليونان وذلك بفضل أعمال الجمعيات اليونانية المنبثة فى بعض العواصم الأوروبية والتى كانت كما أسلفنا تحرك الرأى العام الأوروبى وتستصرخه للأخذ بناصر اليونان[1] وكان لسقوط "ميسولونجى" والبسالة التى أظهرها أهلها فى الدفاع تأثير كبير فى ازدياد عطف الأوروبيين على الثوار فنشطت المفاوضات بين الدول حتى أسفرت عن إبرام معاهدة (لوندرة) التى اتفقت فيها كل من انجلترا وفرنسا وروسيا على التدخل بين تركيا واليونان لتقرير مصير المسألة اليونانية .

ولقد كانت هذه المعاهدة إنقاذا للثورة اليونانية لأنها أبرمت فى الوقت الذى أشرفت فيه الثورة على الاحتضار وكادت تلفظ النفس الأخير وقد تخاذل زعماؤها وسرى اليأس إلى نفوس أنصارها فلما أبرمت هذه المعاهدة ابتهج لها اليونانيون ابتهاجا عظيما عاودهم الأمل فى تحقيق مطالبهم بمعونة الدول الأوروبية .

وكان الحلفاء فى هذه المعاهدة يعلمون أن تركيا ستصر على رفض طلباتهم الخاصة بوقف القتال تمهيدا للوساطة فاتفقوا على إرسال أساطيلهم إلى مياه اليونان

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢١٤

لتأييد مطالبهـم بالقوة ولمنع السـفن المصرية والعثمانية من الوصـول إلى شاطئ اليونان وإرسال المـدد إلى الجيش المصرى والتركى بها وأسـندوا القيادة العامـة لأساطيلهم الثلاثة إلى الأميرال الانجليزى "كودرنجتون"[1] .

مقدمات معركة نفارين البحرية :

ووصل إلى ابراهيم باشا المدد الذى كان يعده له محمد على باشا بناء على طلبـه وكان مكونا من الآلاى العاشر بقيادة أحمد بك وأسلحته المعاونة وبلغت هذه القوة فى تعدادها ٤,٦٠٠ مقاتل محملة فى أربعين مركب نقل وبرفقتها أسطول مصرى بقيادة محرم بك مكونا من ١٨ سفينة حربية مصرية و١٦ سفينة تركية و ٤ سفن تونسية و٦ حراقات ، فرست هذه العمارة بميناء "نفارين" فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ وانضمت إلى أسطول تركى آخر جاء من الآستانة بقيادة الأميرال طاهر باشا وعدده ٢٣ سفينة وتولى إبراهيم باشا القيادة العامة لقوات البر والبحر وأخذ يتأهب لحملة بحرية على جزيرة "هيدرا" وحملة برية ينفذها الى شمالى المورة[2] .

وساء الحلفاء وصول العمارة المصرية والتركية إلى "نفارين" وإيوائها إلى مكان حصين فتحركت سفنهم وقصدت إلى تلك الميناء لإملاء شروط الحلفاء على إبراهيم باشا .

ولقد قبل إبراهيم باشا مبدئيا قرار الهدنة فأوقف حمـلاته رغم أنه لم يفته سوء نية الحلفاء فى إطلاق يد الثوار وغل أيدى القوات المصرية وعندما تحقق له انتهاز الثوار لهذه الهدنة وقيامهم بحركات عدائية فى خليج "كورنث" واعتزامهم مهاجمة "باتراس" التى يحتلها الجيش المصرى لفت نظر الأميرال "كودرنجتون" كى يوقف هذه الأعمال المنافية للهدنة ولما لم يلق جوابا مقنعا أبحر إلى "باتراس" فى عمارة من بعض السفن الحربية وهنا ثارت ثائرة الحلفاء وعدوا هـذا العمل مناقضا للهدنة فلحق الأميرال "كودرنجتون" وأسطوله بعمارة إبراهيم باشا تجاه رأس (باباس) واضطرها إلى الرجوع إلى "نفارين" حيث التزم إبراهيم باشا خطة الدفاع بناء عن أوامر والده التى أرسلها إليه .

(١) نفس المصدر ص ٢١٥ (٢) نفس المصدر ص ٢١٦

معركة نفارين البحرية (٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧)[1] :

واضطر إبراهيم باشا إزاء ازدياد حركة الثوار فى المورة إلى الزحف بجزء من جيشه داخل المورة لنجدة الحاميات المصرية وأوصى الأميرال محرم بك قائد الأسطول المصرى والأميرال طاهر باشا قائد الأسطول التركى بألا يتحرشا بالأساطيل الدولية المتحالفة لأن العلاقات بين الحلفاء وتركيا ومصر لم تكن قد قطعت ولا أعلنت الحرب بين الفريقين .

وبعد أن بارح " نفارين " أرسل إليه قواد اساطيل الحلفاء إنذارا يبلغونه فيه أنه قد نقض الهدنة علما بأنه لم يفعل ذلك فهو إنما تعهد بعدم مهاجمة جزيرة " هيدرا " ولم يتعهد بالامتناع عن نجدة الحاميات المصرية فى المورة كما وأنه كان مفروضا أن يحترم الثوار الهدنة ولكنهم نقضوها ولم يجده رسولهم . فى " نفارين " عندما وصلها فعاد بالرسالة الى الأميرال " كودرنجتون " ولم تكن هذه الرسالة إلا ذريعة لإنفاذ الخطة التى اتفق عليها الحلفاء وهى القضاء على أسطول إبراهيم باشا[2] .

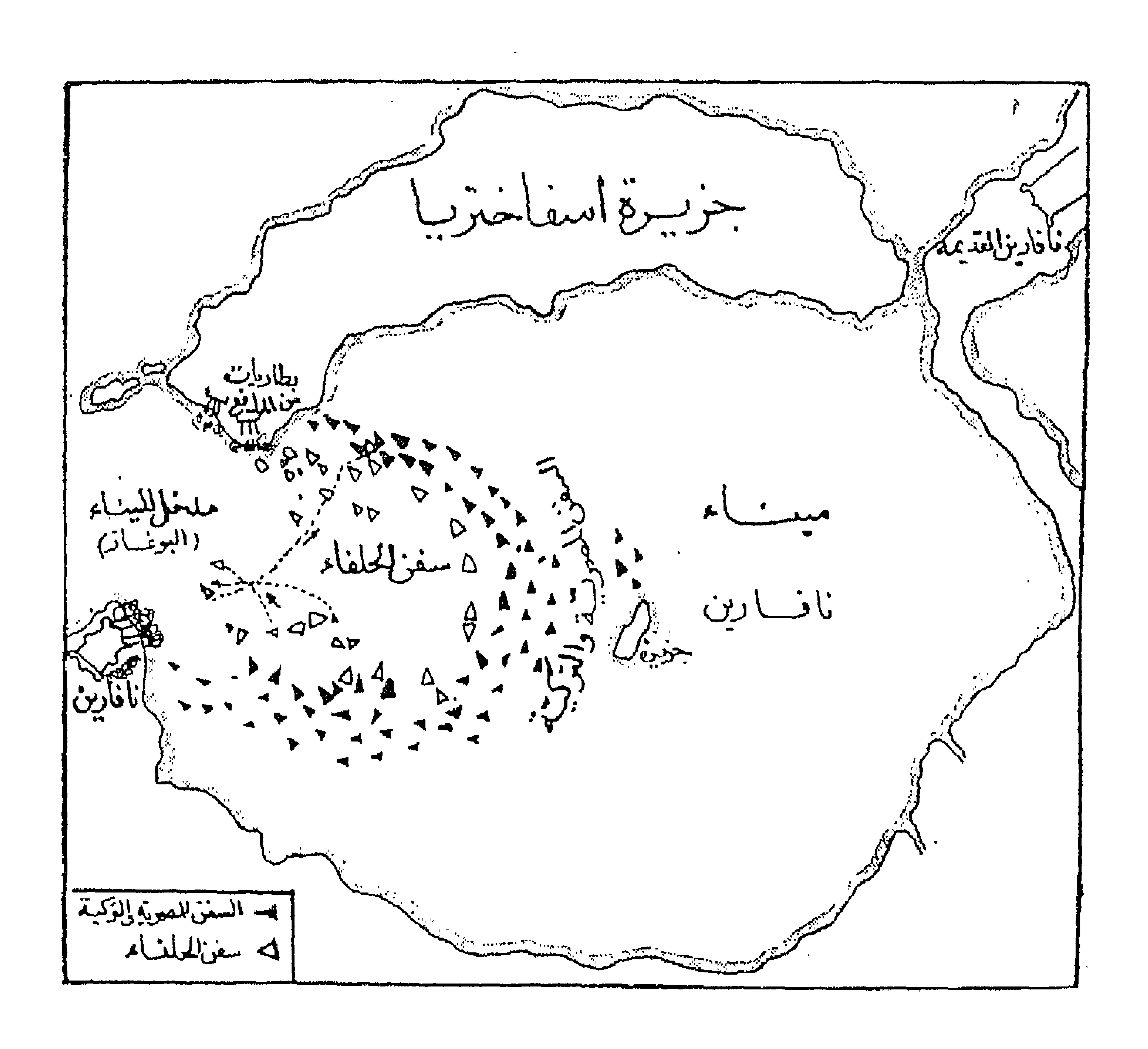
فتشاور قواد الحلفاء وقرروا فيما بينهم الدخول إلى ميناء نفارين وتدمير الأسطول المصرى والتركى كى يضطر إبراهيم باشا للعودة ثانية وفى صبيحة يوم ١٩ أكتوبر جمع الأميرال " كودرنجتون " قباطين الحلفاء على ظهر بارجته آسيا وأصدر إليهم تعليماته فيما يجب عليه عمله عند بدء القتال وأحكم قواد الحلفاء تدابيرهم فى الوقت الذى كان الأميرال محرم بك والأميرال طاهر باشا مطمئنين إلى الموقف وموقنين أن ليس ثمة حرب أو قتال .

وفى الساعة العاشرة من صبيحة ٢٠ أكتوبر بدأت سفن الحلفاء تتأهب لدخول الميناء عند أول إشارة تصدر إليها وفى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر أصدر " كودرنجتون " أمره إلى أساطيل الحلفاء بالتأهب للقتال وعند تمام الساعة الثانية اقتحمت البوغاز فأرسل الأميرال محرم بك رسولا إلى " كودرنجتون " ينبئه بأن يمنع

---

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٢٠

(٢) سأورد هذه المعركة فى إيجاز تام حيث أنه غير مطلوب شرح المعارك البحرية بالتطويل .


جزيرة اسفاختريا
نافارين القديمة
بطاريات من المدافع
مدخل الميناء
(البوغاز)
سفن الحلفاء
ميناء
نافارين
جزيرة
نافارين
السفن المصرية والتركية
سفن الحلفاء

أساطيل الحلفاء من الرسو فى "نفارين" ولكن الأميرال الإنجليزى أجاب فى لهجة جافة بأنه لم يجئ ليتلقى الأوامر بل جاء ليلقى أوامره وسرعان ما اصطفت سفن الحلفاء على شكل نصف دائرة تقريبا مواجهة للسفن المصرية والتركية (انظر خريطة رقم ٤) وقد اقتربت منها حتى أصبح واضحا أنها قد جاءت لتتحداها للقتال .

وابتدأت المعركة فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر واستمرت إلى نحو الساعة الخامسة وانتهت بالقضاء على البحرية المصرية والتركية فقد هلك معظمها نسفا وغرقا وجنحت البقية الباقية على السواحل فأحرق بحارتها أغلبها حتى لا تقع فى أيدى الأعداء وبلغ عدد القتلى المصريين والأتراك ٣٠٠٠

وتعد معركة " نفارين" من المعارك القليلة التى يتمثل فيها الغدر ونقض العهود والمواثيق فإنها وقعت من غير أن تعلن حرب بين تركيا والدول المتحالفة وأخذ الحلفاء السفن المصرية والتركية غيلة من غير أن تنذرها أو تستعد للقتال وكل ذلك مناف لأبسط قواعد الحروب المتفق عليها بين الدول المتمدينة .

موقف إبراهيم باشا بعد معركة نفارين :

لم يشهد إبراهيم باشا معركة نفارين لأنه كما أسلفنا كان قد تقدم إلى داخل بلاد المورة لنجدة الحاميات المصرية بها فلما بلغه نبأ تدمير الأسطول المصرى عاد إلى "نفارين" وشاهد آثار المعركة فأمر بإعداد بعض السفن التى نجت من الكارثة وتعويم بعض التى غرقت وأنفذها إلى الإسكندرية ثم رأى أن يلزم خطة للدفاع فأخلى معظم مدن المورة وامتنع بمعظم جنوده فى مينائى "كورون ومودون" حتى تصله أوامر والده .

اختلاف وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة نفارين :

ولقد اختلفت وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة "نفارين" هذه فيما يختص بحرب المورة فأما تركيا فقد أصرت على رفض مطالب الدول المتحالفة وطالبتها بتعويض عما لحق أسطولها من الدمار ووقفت موقف الصلابة والعناد بإزاء الحلفاء

فأعلنت روسيا الحرب عليها واحتلت " أدرنة " وأرسلت فرنسا إلى بلاد اليونان جيشا مؤلفا من ١٨,٠٠٠ جندى بقيادة الجنرال " ميزون " لإجلاء المصريين والأتراك عنها ولقد انتهت الحرب الروسية التركية بعقد معاهدة أدرنة (١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩) وفيها وافقت تركيا على قرارات الدول فى معاهدة لوندرة فاعترفت باستقلال اليونان استقلالا داخليا وألا يكون لها عليها سوى حق السيادة الاسمية .

وأما مصر فقد رأى محمد على باشا بثاقب فكره أنها لن تجنى شيئا من مواصلة القتال بعد فقدها لأسطولها فى معركة " نفارين " وانقطاع المواصلات البحرية مع جيوشها فى المورة واعتقد أنه من الحكمة ألا يجعل سياسة مصر مقيدة بسياسة تركيا وأن يتفق مع الحلفاء .

الاتفاق بين مصر والحلفاء على إخلاء الجيش المصرى لبلاد المورة :

ولقد عقد الاتفاق فى أغسطس عام ١٨٢٨ على وقف القتال وجلاء الجيش المصرى عن بلاد المورة بالشروط الآتية :

(١) يتعهد محمد على باشا بإعادة الأسرى اليونانيين وتحرير من بيع منهم فى مصر .

(٢) يتعهد الأميرال الانجليزى بإرجاع الأسرى المصريين وإعادة السفن المصرية التى أسرت أثناء القتال .

(٣) أن تخلى الجنود المصرية المورة وينقلهم محمد على على سفنه .

(٤ ، ٥) تقوم بحراستها ذهابا وإيابا سفن حربية انجليزية وفرنسية .

(٦) ألا يكره اليونانيين المقيمون بمصر على الرحيل عنها ولا يجبرون على البقاء فيها وكذلك يسمح لمن يشاء منهم أن يصحبوا الجيش المصرى فى عودته .

(٧) يجوز لإبراهيم باشا أن يترك فى المورة عددا من الجند لا يزيد على ألف ومائتين للمحافظة على " مودون " و " كورون " و " نفارين " و " باتراس " و " كستل توريزة " أما المواقع الأخرى فتخلى فورا [1] .

---

(١) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوار جوان ص ٧١٥

عودة ابراهيم باشا ورجاله :

وعندما أبلغ ابراهيم باشا وهو فى اليونان هذه الشروط سخط كثيرا لرؤيته جهود جيوشه قد ضاعت فضلا عن الخسائر التى تكبدها وخاصة إغراق الأسطول المصرى ولكنه اضطر للإذعان فأصدر أوامره بإخلاء المدن اليونانية والسير إلى الموانئ حيث أقلعت بهم السفن إلى مصر فى أكتوبر عام ١٨٢٨

انتهاء المرحلة الثالثة :

وبذلك انتهت المرحلة الثالثة من حرب المورة وكريت وقد امتازت هذه المرحلة بالتواء الأهداف السياسية فيها وبعدم قيام حملات برية كثيرة إذ طغت معركة ”نفارين“ البحرية على كل ماعداها من أحداث . والحق إن هذه المعركة وإن قادها الأسطول البريطانى والفرنسى فإنها كانت فوزا لا أساس له من السياسة القوية والنظر الصادق الحكيم لأنه أفضى بالدولة العثمانية إلى الوقوع بين براثن روسيا بعد أن جردت من أهم الوسائل لديها للذود عن حماها فى البحر الأسود وبحر الأرخبيل وبحر سوريا ولشد ماأسف الانجليز لوقوع هذه النكبة التى وصفها بعض رجالهم بالطامة الكبرى وقد وصف أحد كبار رجال الحكومة الفرنسية هذا الانتقام الذى أنزلته الأساطيل الأوربية الثلاثة بالمصريين والعثمانيين بأنه تهوس وطنى إنقادت لعوامله اعتباطا ومن غير روية كل من الدولتين الفرنسية والانجليزية لخدمة المصالح الروسية فقط ولقد أعرب إبراهيم باشا إلى قادة هذه الأساطيل عن سخطه على هذا التصرف فكان جوابهم له أن نشوب المعركة كان نتيجة سوء تفاهم بسيط وأن حالة الحرب لم تكن موجودة بين الفريقين وأن الأوربيين ما برحوا أصدقاء أمناء للعثمانيين والمصريين[1] .

---

(١) نفس المصدر ص ٧١٢

الخاتمـــــة

نتـائج الحـــرب اليونانيـــة

خسائر مصر فى هذه الحملة :

لقــد عاد الجيش المصرى من بلاد المورة فى أكتوبر عام ١٨٢٨ وقد أنهكته الحروب والأمراض وتكبدت مصر فى هــذه الحملة متاعب وضحايا هائلة ونفقات جسيمة وحسبنا أن نعــرف أن الجيش الذى جردته فى حرب اليــونان بلغ اثنين وأربعون ألفا خسرت منــه ثلاثين ألفا وبلغت نفقات الحمــلة ٧٧٥ ألف جنيه وفقدت أسطولها الحربى فى واقعــة "نفارين" لندرك أن خسائرها فى هذه الحملة كانت فادحة وتضحياتها بالغة [1] .

ما كسبته مصر من هذه الحملة :

(أ) الكسب المـادى :

لم تنل مصر من الحرب اليونانية من الوجهة المـادية أى من وجهة التوسع والفتح شيئا سوى ضم جزيرة "كريت" إليها إذ قد عهد السلطان محمود إلى محمد على باشا ولاية تلك الجزيرة مكافأة له على خدماته فى حرب المورة .

(ب) الكسب المعنوى :

أما من الوجهة المعنوية فقد كسبت منزلة كبيرة تتلخص فيما يلى :

(١) ارتفع شأن مصر فى نظر الدول الأوربية لأن جيشها قد برهن على كفاءته وأثبت أنه يضارع أرقى الجيوش الأوربية فى أول حرب أوروبية خاض غمـارها .

---

(١) كتاب عصر محمد على الرافعى بك ص ٢٢٧

(٢) اكتسب الجيش المصرى فى تلك المواقع مرانا على الكفاح وممارسة لفنون الحرب وخططها وأساليبها الحديثة .

(٣) كانت هذه الحرب خير إعلان عن قوة جيش مصر وحسن نظامه وكفاءة قواده وشجاعة جنوده .

(٤) ظهر أن الجيش المصرى أرفع شأنا وأشد باسا من الجيش التركى فكان لهذه الخبرة أثرها فى توطيد دعائم الدولة المصرية الفتية وإعلاء شأنها حيال تركيا .

(٥) اكتسبت مصر مركزا دوليا ممتازا لأن دول أوربا فاوضت محمد على باشا رأسا دون وساطة تركيا وأرسلت إليه الحكومة الإنجليزية تبدى شديد أسفها على ما لحق الأسطول المصرى فى واقعة " نفارين " وتظهر رغبتها فى جعل علاقتها به علاقة ودية بل وفاوضته فى أن تبقى على الحياد إذا نشب القتال بين تركيا ومصر .

استقلال مصر :

ولا شك فى أن أكبر مغنم غنمته مصر من هذه الحرب هو أنها صيرتها دولة مستقلة فعلا عن تركيا وأهم مظهر لذلك هو عقد دول الحلفاء الثلاث اتفاق أغسطس ١٨٢٨ رأسا مع مصر وقد وقع هذا الاتفاق بوغوص بك وزير خارجية مصر وهذه أول وثيقة سياسية أبرمها وزير خارجية مصر مع دولة أجنبية فى عصر محمد على .[1]

---

(١) نفس المصدر ص ٢٢٩

المراجع الهامة التي استخدمت في هذا البحث

١ — كتاب مؤسس مصر الحديثة ... ... دودويل
٢ — كتاب التاريخ العسكري لمحمد علي وأبنائه للجنرال فيجان
٣ — كتاب عصر محمد علي ... ... عبد الرحمن الرافعي بك
٤ — كتاب مصر في القرن التاسع عشر ... ... ادوار جوان
٥ — كتاب إبراهيم مصر ... ... كريتس
٦ — كتاب إبراهيم باشا لكريتس ... ... ترجمة محمد بدران
٧ — كتاب الامبراطورية العثمانية ... ... ميلر
٨ — كتاب التيارات الرئيسية للتاريخ الأوربي هيرنشو
٩ — كتاب نفارين ... ... دوين
١٠ — كتاب تاريخ مصر في حكم محمد علي ... ... مانجان
١١ — كتاب مصر الحديثة ... ... فولابل
١٢ — كتاب محمد علي ... ... كريم ثابت بك
١٣ — كتاب الامبراطورية المصرية ... ... الدكتور محمد صبري
١٤ — كتاب الهيلينية ومصر الحديثة ... ... اثنازي ج . بولتيس
١٥ — كتاب الجيش المصري في عهد محمد علي... عبد الرحمن زكي
١٦ — كتاب تاريخ اليونان السياسي ... ... دريو
١٧ — كتاب حملة كريت والمورة ... ... دريو
١٨ — كتاب سوريا ومصر ج ٢ ... ... باركر
١٩ — البطل الفاتح ابراهيم باشا ... ... لداود بركات
٢٠ — أعلام الجيش والبحرية في مصر أثناء
القرن التاسع عشر ... ... عبد الرحمن زكي

٢١ — صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ... سمو الأمير عمر طوسون

٢٢ — كتاب تاريخ مصر من الفتح العثمانى ... عمر الاسكندرى وسليم حسن

٢٣ — كتاب مصر من عهد المماليك الى نهاية
حكم اسماعيل ... ... جورج يانج

٢٤ — كتاب تاريخ مصر وحالها فى الوقت الحاضر
١٨٢٤ ... ... ياتس

٢٥ — كتاب حروب محمد على ... ... سيد فرج

٢٦ — مقالات الدكتور محمد بك رفعت ... ... بمجلة الكاتب المصرى

٢٧ — رسائل محمد على

٢٨ — كتاب الاستراتيجية الألمانية ... ... نيام

٢٩ — كتاب الاستراتيجية البريطانية ... ... ف . موريس

٣٠ — كتاب تاريخ العالم العسكرى ... ... ميتشل

٣١ — كتاب عمليات النصر ... ... جينجاند

٣٢ — كتاب الاستراتيجية كما استخدمت فى الحرب
العالمية الثانية ... ... بورن

٣٣ — كتاب ذكريات عن اليونان ... ... لوفرنى

٣٤ — كتاب فن الحرب على الأرض ... ... بورن

حمـــلة الشـام الأولى والثـانية

(١٨٣١ — ١٨٣٩)

للبكباشي عبد الرحمن زكى

عضو الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

مقـــدمة

لا يتسع المجـال لكتابة مقدمة فى فضل التـاريخ الحربى المصرى على التربيـة القومية ، فقد أهملت دراسته إهمالا شائنا ، ولم تنسج فصوله بعد باللغة العربية .

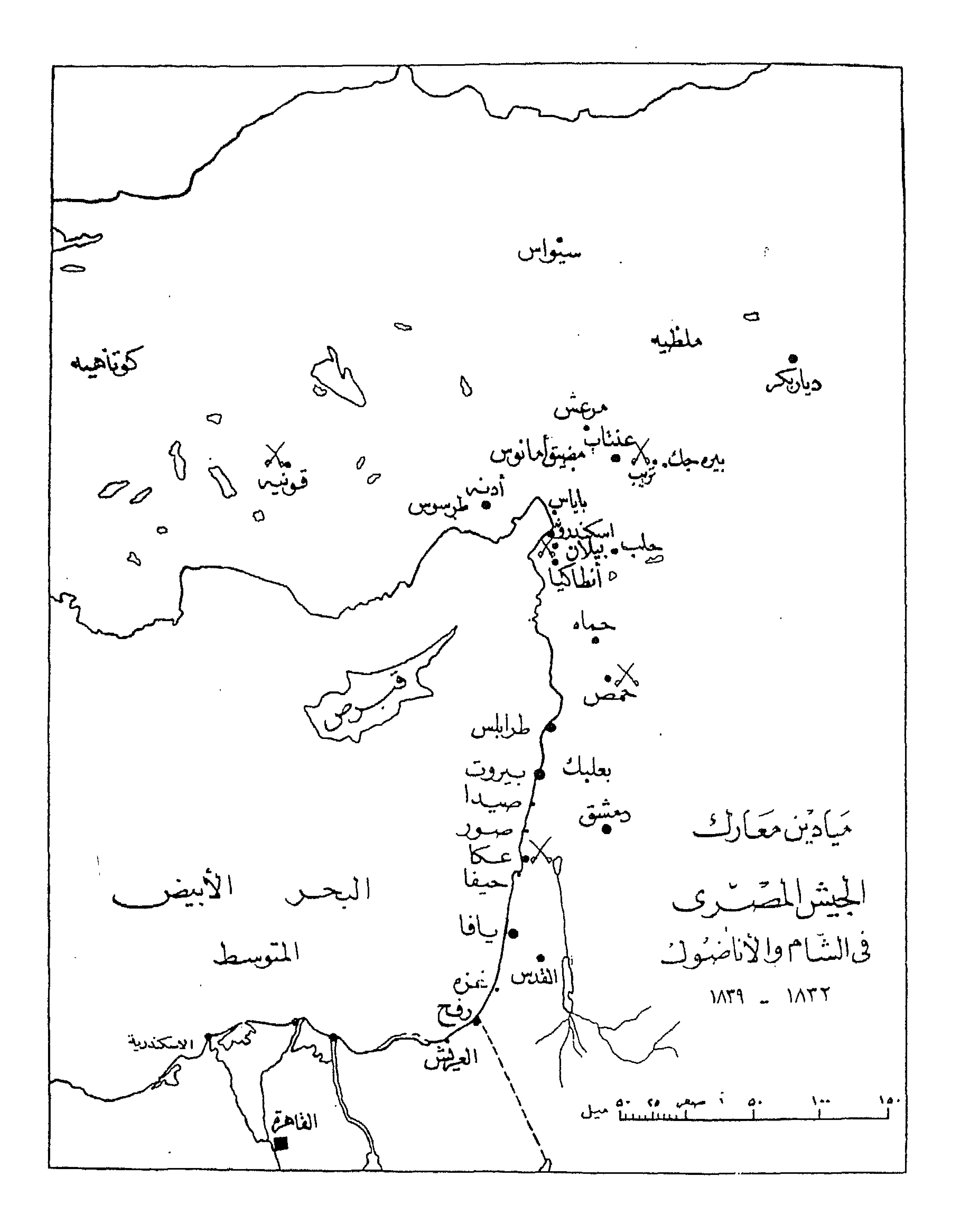
ولولا بضعة أسطر فى كتب التاريخ المصرى العـام عن فتوح محمد على فى بلاد المشرق الوسـيط ، لمـا نالت هـذه الصفحات النواصع من تاريخنا القـومى أية عناية — رغما عن أنهـا كانت موضوع بحث ودراســة الكثيرين من المؤرخين الأوروبيين، آخرهم الجنرال فيجان الذى وضع كتابين عريضين فى فتوح محمـد على البرية والبحرية ، منذ اثنى عشر عاما .

وأخيرا واتت الفرصـة الذهبية — وهى الاحتفاء بمرور مائة عام على انقضاء البطل ابراهيم باشا — أب الجيش وصديق رجاله — فكانت أن اهتمت رئاسـة الجيش المصرى والجمعية الملكية للدراسات التاريخية ، بتوجيه ضـباط الجيش الى الكتابة فى موضوع حروب ابراهيم و بحثها بحثا فنيا عسكريا، على ضوء ما تعلموه فى معاهد الحرب .

ولقــد حاولنا أن نتجنب الطريقة الجافة فى كتابة التــاريخ الحربى بالاقتصار على وصف المعــارك ، وسـير الجنود ، وذكر أعداد القتلى والجرحى وما اليهــا ، أو المغالاة فى وصف الانتصارات بأسلوب أخاذ ، بعيدين عن روح النقد السليم ، لكننا تناولنــا الموضوع فى آفاقه الواســعة ، معنيين بالأفق السياسى . أفليست الحرب متممة لأعمال السياسة والسياسيين كما قال كلوسو يتز وغيره ، وأوضحنا دوافع محمد على الحقيقية للحرب الشــامية ، معتمدين على الوثائق التاريخيــة أو الخطابات المتبادلة أو التصريحات الرسميــة ، وتناولنا المناحى الاقتصادية التى أحاطت بمصر والموارد المــالية ، التى بفضلها حافظ محمد على على ملكه وكرامته ، وموارده البشرية من رجال هيأهم قادة الجيش للقتال ، فضلا عن قوة التنظيم والإدارة التى اتصف بها رجلان من طراز محمــد على وابراهيم ، ثم عرجنا على وصف الجيشين المتقاتلين بعدما انتهينــا من وصف الأحوال المحيطة بالدولتين ، ولم نهمــل وصف طبيعــة الأراضى التى قامت عليها المعارك ، فالأرض تسيطر على شكل العملية التى يتبعها القائد لاستحواذه على النصر .

وحاولنا — قدر استطاعتنا — أن نزوّد الموضوع بالخارطات الضرورية التى تبين ملامح المعارك ، كما أثبتنا فى نهايته ثبتا بالمراجع التى أفدنا منها .

ونسأل الله أن نكون موفقين فى بسط هذا الموضوع ، كيما نساهم بلبنة متواضعة فى تاريخ مصر الحربى ، وهى أمنيــة سوف تحقق بإذن الله بفضل جلالة المليك المعظم — الفاروق — القائد الأعلى حفظه الله .


ميادين معارك
الجيش المصرى
فى الشام والأناضول
١٨٣٢ - ١٨٣٩
سيواس
ملطيه
ديار بكر
كوتاهيه
مرعش
عنتاب
مضيق أمانوس
بيره جك
نزيب
قونيه
أدنه
طرسوس
باياس
اسكندرون
حلب
بيلان
أنطاكيا
حماه
حمص
قبرص
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
دمشق
صور
عكا
حيفا
يافا
القدس
غزه
رفح
العريش
البحر الأبيض
المتوسط
الاسكندرية
القاهرة
ميل

محتـــويات البحث

مقـــدّمة عامـــة :

(٧) هدنة مسلحة بين حربين (١٨٣٣ — ١٨٣٩) :

اتفاقية كوتاهية — الإدارة المصرية فى الولايات — ثورة فلسطين — ثورة الدروز فى حوران — الدولة العثمانية فى ١٨٣٩

(٨) معركة نزيب (الجولة الخامسة) :

الجيش العثمانى فى عام ١٨٣٩ — الجيش المصرى بعد صلح كوتاهية — الجيش المصرى فى معركة نزيب — الحوادث الممهدة لمعركة نزيب — معركة نزيب — أزمة دقيقة — تحليل معركة نزيب ونقدها .

(٩) خاتمة النصر (الجولة الأخيرة) :

خطة ابراهيم فى آسيا الصغرى — موقف الجيش المصرى فى آخر يوليو — أوربا ضد محمد على — اتفاقية لندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ — الاعتداء على الشام وتهديد الاسكندرية — العودة الى الوطن .

ابراهيم القائد .

مراجع الموضوع .

سـياسة محمـد على العسكرية

لم تك القوّة ، فى نهج محمـد على ، إلا وسـيلة لا غاية . لم تك إلا آلة العيش الكريم ، والحيـاة الحرّة . فقـد كان بطبعه وطبيعته كارها لسـفك الدماء ، مؤثرا للاعتدال ، لا يضع سيفه حيث يكفيه سوطه ، ولا سوطه حيث يكفيه لسانه .

وفى هذا المعنى يقول رفاعه الطهطاوى عن حروب محمد على إنها "لم تكن من محض العبث ولا من ذميم تعدّى الحدود ، إذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود" .

كان قبالة محمـد على ، بعد ترتيب نظام داره (ملكه) وتنظيم شئون ولايته ، أن يتطلع بأفقه الوسيع إلى الميدان الفسيح الأرجاء المحيط به . رأى البحار العربية وسواحلها أجزاء أساسية من العالم العثمانى ، أهملها السلاطين إهمـالا مشينا ، وهى شرايين الحياة بين الشرق والغرب ، تصلبت ولا بدّ أن يجرى فيها الدم الجديد . وخلف تلك السواحل ، فى أفريقية ، أجزاء من دار الإسلام مشتتة ، فاترة الحياة . فسعى فى السنوات الأولى من حكمه لينشئ صلات بينه وبين السلطات البريطانية فى الهند . ثم ساعد الباب العالى على إخماد ثورة الوهابيين ، فى بلاد العرب ، ونجد ، واليمن . ثم فتح السـودان ، وضم أوصاله إلى أمه مصر . وعاون العثمانيين ضـدّ اليونانيين فى ثورتهم ، وانتصر ابنـه إبراهيم عليهم فى عدّة معارك ، وفقـد أسطوله فى سبيل مرضاة السـلطان . ولولا تدخل الدول لظلت اليونان ولاية عثمانيـة ، وأخضع محمد على جزيرة كريت وما حولها من الجزائر الصغرى [1] .

ولقد سجل محمد على هذه الفعال ، بل نلقاه قد اعترف بما يجيش فى صدره من آمال فى حديثه مع الفرنسى بوالكمت :

---

(١) محمد شفيق غربال بك — محمد على الكبير . من سلسلة أعلام الاسلام .

”لقد وضعت يدى على كل شىء، ولكن لكى أجعل كل شىء مثمرا، والمسألة مسألة إنتـاج ، وإذا لم أقم به أنا ، فمن يقوم به غيرى ... أين الذى كان يقـدّم الأموال اللازمة ، ويشير بالخطط التى تنتهج ، والمزروعات التى تزرع . أين الذى كان يتهيأ له أن يأخذ الناس بطلب العلوم والمعارف، التى ترتب عليها تفوّق أوربا . أتعتقد أن أحدا فى هـذه المملكة خطـر له أن يجلب القطن والحـرير والتوت . لا أحد . كان لا مناص لى أن أقود هذه البلاد قيادة الأطفال . وأن تركها لنفسها يسلمها للفوضى التى أخرجتها منها ... “ .

أنشأ محمد على قوات مصر الدفاعية — ولأجلها نهض بجميع مرافق البـلاد : من تعليم وصحة وتجارة وصناعة وزراعة . ولسنا ندّعى بأنه وصـل بقوات الدفاع، فى عام ١٨٣٢ إلى درجة الكمال — كلا ، فقد كانت للجيش المحمدى العلوى مزاياه وعيوبه . تدرّب أفراده فى خلال العشرين عاما ، على حروب المورة ، وكريت ، وبلاد العـرب، والسودان . فجاهـدوا وناضلوا ، واكتسبوا ميزات شتى . وكان قادته بين بين، أى عاديين، خبروا القيـادات الصغرى . أما الجنـود فلم يكونوا آلات كما كانوا فى حروبهم السابقـة ، بل أصبحوا — بعـد ممارستهم فن القتال فى ميادين العراك التى خاضوها — فخورين بمـا أحرزوه من نصر . ثقتهم بقائدهم أو قادتهم كبيرة لا حدّ لهـا، ميالين إلى النظام ويخشون الخروج عليـه، خوفا من بطش أبيهم وقائدهم إبراهيم — وهذا إبراهيم بطلهم ورمز مجدهم ، فى يده مقاليد القيادة العليا ، رأس عسكرية أثبتت أن صاحبها من طراز القـادة الكبار ، تزينها الشجاعة والجرأة، وكذلك البطش ، فضلا عن اتصال روحى بأولاده الجنـد الذين ارتبط بحبهم وتقديرهم كلما أتقنوا واجبهم .

وكان سليمان بك ، رئيس أركـان حرب إبراهيم ، نابغـة فى أمور التكتيك والاستراتيك ، يتحلى ببديهة نشطة ، وروح وثابة ، ونشاط ديناميكى . متفاهم مائة فى المـائة مع قائده وصديقه وتلميذه إبراهيم . تبادل الاثنان المحبة والاحترام .

أما خير وصف لإبراهيم خال من الغلو أو الإسراف هـو قول المـارشال الفرنسى فيجان عنه :

"Vainqueur, L'histoire doit légitiment lui laisser les lauriers de la victoire".

آلــة الفتح :

استعان محمد على بالقوّة للوصول إلى مراميه . فمثله وهو الرأس المفكر ما كان ليغيب عنه هـذه العقيدة التى ما زالت إلى اليوم مبتغى القادة فى تحقيق أهدافهم ، أو التوصل إلى أطماعهم . فمن يستطيع أن يمارى فى أن القوّة أهم وسائل السلطان والســيادة .

إن الحـديث عن الجيش والأسطول ، فى عهد محمـد على ، يتطلب عشرات المجلدت ، وليس بوسعنا ، ونحن نتناول فتوح ابراهيم باشا فى الشام ، أن نغفـل هذه الناحية ، وهى بمثابة القاعدة ولا سيما ونحن فى مناسبة الحديث عن الخطوط الرئيسية لسياسة محمد على العسكرية .

فعلى الرغم من قلة عدد سكان مصر، فى أوائل القرن التاسع عشر ، وما أورثها حكم الأتراك والمماليك من الفقر والجهل، وما قاوم به الترك والشرا كسة مشروعاته لإنشاء جيش ، استطاع محمد على أن ينشئ جيشا حديثا وأسطولا قويا ، وأن يمدّهما بكل ما يحتاجان اليه مما يصنع فى قلب البلاد، ولولا ذلك لعجزت البلاد عن القيام بأعباء الكفاح الحربى الطويل ، الذى اضطر اليـه محمد على فى البلدان المجاورة .[1]

وفى هذا المضمار استعان محمد على ببعثة عسكرية فرنسية، استقدم ضباطها من فرنسا، وآخرين من اسبانيا وإيطاليا . كما عنى بإرسال البعوث العسكرية المتباينة إلى المعاهد الحربية .

---

(١) الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير لليوزباشى عبد الرحمن زكى (١٩٣٩) .

وأنشأ مدارس شتى للتعليم العسكرى، وقسمه إلى أنواع : منها مدرسة للدفعية وللمهندسين ومدرسة للفرسان وأخرى لأركان الحرب ومثلها للمشاة وواحدة للموسيقى، فضلا عن المشافى ومدرسة للطب .

ولما كان إنشاء جيش قوى يتطلب أن تكون فى البلاد كل حاجاته من السلاح والذخيرة والمؤونة والأدوات والملابس وما إلى ذلك — فقد أقام هذا العاهل مصانع السلاح فى مصر، فأنشأ فى ترسانة القلعة مصانع لصناعة الأسلحة وصب المدافع من أنواع شتى، كما شاد معامل للبارود فى جزيرة الروضة والبدرشين والفيوم...

وأنشأ مصانع للغزل والنسيج والبطاطين ليمد الجيش والشعب بحاجاتهم ومصانع للحبال والطرابيش وسبك الحديد وطرق ألواح النحاس ودبغ الجلود ... .

وشيد الحصون والقلاع ، على ساحل مصر، لأغراض الدفاع ، وأمدّها بالمدافع والثكنات والورش .

أنشأ محمد على كل هذا، حتى صارت البلاد كلها تعمل للجيش، فى بابى الزراعة والصناعة ، وما يتعين إبرازه — فى هذا السياق — إنه استطاع أن ينظم جيوشا كبيرة وأسطولا ضخما محاربا، وأن يقيم جل هذه المصانع والمعاهد، لتدريب الجيش وتخريج رجاله وتغذيته بمطالبه جميعا، وأن يستمر على ذلك زمنا طويلا، ويخوض حروبا عدّة ، معتمدا على مرافق البلاد وقدرتها الاقتصادية دون سواها . ومن غير أن يقترض قرشا واحدا من الخارج — وهذه وحدها حسنة تدعو إلى تمجيد ذكرى هذا الرجل، فى كل آونة . ولولا ذلك لكانت منشآته الضخمة الواسعة النطاق نكبة على الأمة ... .

ولا نستمرئ الكلام عن تنظيم الجيش، ومدارسه، ومصانعه، و بعثاته إلى الخارج ، وأسلحته وما إليها مما خلقه محمد على فى مصر خلقا . فقد كتب فى هذا الكثيرون، وسيتبدّى من حديثنا عن الحملات الكثير من التفاصيل الفنية التى تكمل استجلاء هذه المناحى ... .

سياسته الاقتصادية :

اعتمد رأس الأسرة العلوية على مبدأ الأرض للحاكم ...فحسن طرائق الزراعة، وراقب عمـل الفلاح وزوده بالنصائح ، بل وأمـده بآلات ، وحفـر له الترع والمصارف — كما أدخل المحصولات الجديدة كالدخان والنيـلة والقطن والحرير وزراعة الأشجار . فضلا عن إدخاله مساحات كبيرة من أراضى الصحراء وأصلحها للزراعة ... وبذا استطاع هذا الموفق أن يبيع المحصولات المصرية فى الأسـواق الأوروبيـة . فأحرز ربحا وافرا سهل له مواصـلة إصلاحاته الكثيرة بدون ضيق أو عنـاء .

وكما أن محمد على صار المزارع الوحيد(١) أضحى التاجر الوحيد، ثم الصانع الوحيد، أى أنه احتكر اقتصاديات البلاد، أو بعبارة حديثـة أسسها ليضبط موارد البـلاد بيد مدبرة، ولينفق منها ما شاءت إرادته، كما يقتضيه الصالح الوطنى .

وكانت الضرائب موردا هاما لزيادة الدخل . وكانت منها ضريبـة الأرض (الميرى) وضريبـة " فردة الروس " التى فرضها على كل فـرد مصرى بلغ سنّ الثانيـة عشرة ، وتتفاوت بحسب ثروة الرجل . فكانت تتراوح بين ٥٠٠ قـرش و١٥ قرشا فى السنة — هذا فضلا عن عوائد الجمارك والذبح والسفن .

وتسـنى لمحمد على، بتشجيعه الصناعات، أن يستغنى تدريجيا عن الواردات والبضائع الأجنبية ، بحمايتـه تجارته وصناعتـه، ولولا ذلك لمـا تهيأ له أن ينهض بقوات مصر الدفاعية وجعلها تعتمد على موارد البلاد، على قدر الإمكان .

ومما يذكر أنه لم يتوفر المـال لمحمد على، فى بداءة الأمر، لأن أبواب الإصلاح كانت مفتوحة على مصراعيها ، فضـلا عن مطالبـة السلطان بالنجدات العسكرية

---

(١) ليس المقصود أن محمدا عليا كان يضع يده على جل محصول الفلاح ، بل كانت الحكومة تترك له كيانها من المحصول ليبيعه بحرية .

المستمرة . فلم تنعم مصر بحالة سلم طويلة المدى، فى ظل حكم محمد على . ولم يكد يقضى الأعوام الخمسة الأولى (١٨٠٥ — ١٠) فى التعرّف إلى حاجيات مصر وما يستدعيه التنظيم الجديد للدار ، حتى التجأ إليه السلطان يطلب نجدته فى حرب الوهابيين (١٨١١ — ١٨١٨) . ثم شغل فى حروب السودان ودارفور (١٨١٨ — ١٨٢٠) . وعقب ثلاثة أعوام طالبه السلطان بنجدته فى حملة المورة القاسية (١٨٢٢ — ١٨٢٨) فصرف كل دخله بوجه التقريب على إعداد الأسطول والجيش والعتاد . وفى عام ١٨٣٠ ظهرت بوادر سوء التفاهم بين محمد على وعبد الله الجزار، ونشبت الحرب بينهما سنة ١٨٣١ ثم أعلن السلطان الحرب عليه (١٨٣٢ — ١٨٣٣) .

أما المدّة بين ١٨٣٣ و١٨٣٩ فكانت هدنة مسلحة أعدّ نفسه لحرب كبيرة. حتى لا يؤخذ على غرة [1] .

وهكذا استنزفت الحروب معظم ما كان يجنيه محمد على من موارد الدولة إبان السلم .

الهـــدف :

والآن ، وقد انتهى محمد على باشا من وضع أسس دولته ، وخط الخطوط الرئيسية لسياسته وأهدافه التى هيأها نصب عينيه ، ننسل إلى توضيح هذه الأهداف ، التى أرغم على تحقيقها مستعينا بالقوة ، وكان ينبغى أن يتوصل إليها بالسياسة .

فعلى أثر انسحاب الجيوش المصرية والتركية من المورة، عقب معركة نفارين، بدأ محمد على يراجع خطته السياسية العامة . فرأى أن الباب العالى لم يكافئه على خدماته وتضحياته حسبما وعده . فقد منحه حكم جزيرة كريت .

(١) A. E. Crouchley; The Economic Development of Modern Egypt; pp. 41 - 43.

عندئذ بدأ لا يرحب بطلبات الباب العالى للنجدات العسكرية فى حربه ضـد روسـيا أو فى البلقان ، مكتفيا بإرسال إعانة مالية . فما كان من السـلطان إلا أن اشتدّ حنقه على واليه فى مصر، وراح يوقع بين محمد على وابنه ابراهيم .

ونرى محمـدا عليا ، بعد معركة نفارين ، يعـدّ نفسه لمـا عسى أن يحصـل فى المستقبل . فلما استقر جنود حمـلة المورة بمصر ، شرع ابراهيم باشا يهيئ عقول الضباط لاستقبال السياسة الجديدة مع الباب العالى . ومثل هـذه السياسة تتجلى فى الخطبة التالية ، التى ألقاها خلال وليمة للضباط :

" ما ذا استفدنا أنا وأنتم من السلطان . ألسنا فى الحقيقة كلنا أولاد محمـد على الذى ربانا وعلمنا . ألم نأكل جميعا من خيره . إن مصر حق لمحمد على . حق اكتسبه بالسيف ولا نعرف لنا ملكا غيره .[1]

الشـــرق أم الغـــرب :

ولم تكد الجنود المصرية ترتد إلى أوطانها بعد معارك الروم حتى يقدّم دورفتى مندوب فرنسا فى مصر إلى محمد على مشروعا يتعاون فيه الباشا مع فرنسا لفتح الجزائر وتونس وطرابلس ، وإخضاع شمال إفريقيا لهما . وامتدّت الأحاديث بين الرجلين شهورا — واشترط محمـد على طائفة من الشروط الهامة فى صـدرها تقديم سفن حربية ومدفعية ثقيلة وتمويل الحملة وغيرها وقبلت فرنسا غالبية الاقتراحات ولكن محمدا عليا وازن القيم الاستراتيجية لهـذا القطاع من شمال إفريقيا وتلك التى للشـام والعراق . وتبدّت له أيضا ثمرات النصر فى الحالتين .

وأخيرا اعتمد على نفسه ، وعلى جيشه ، وعلى الله أوّلا ، وأهمل نهائيا مشروع الجزائر . وهل بعد ملك الشام شيئا آخر . إن امتلاكها يحميه ضد عدوان السلطان ،

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) — من قنصل انجلترا العام ٨ يناير ١٨٣٢

ويستر جناحه الأيمن ويمنحه السيادة على بيت المقدس ، حصن الأديان الثلاثة ، ويعطيه دمشق إحدى مدن الثقافة الاسلامية ، وتلبي معظم حاجياته الاقتصادية .

ولم تك رغبة محمد على فى الاستحواذ على فلسطين (فقط) نتيجة لمشروع الجزائر ... كلا — فإن محمدا عليا صرح فى عام ١٨١٢ للقنصل الإنجليزى فى مصر عن عزمه لفتح فلسطين عندما تحين الفرصة (١) بيد أنه لم يقدم لأسباب شتى أظهرها عدم انتهائه من تنظيم قواته العسكرية على الأساليب الحديثة . ونجدته للسلطان فى حرب الجزيرة العربية . كما أنه خشى الأثر الروحى للسلطان فى ولايته . فلما واتته الظروف ، امتشق الحسام ، وكان ما سنتناوله فى هذا المقال .

دوافع الحرب بين مصر وتركيا
١٨٣١ — ١٨٣٢

يتفق فريق من المؤرخين على أن النزاع بين محمد على باشا والسلطان محمود الثانى لا يرتد لأسباب قومية أو جنسية . والدليل على ذلك تصريحات محمد على لكبار الساسة أو ما خلفته لنا المحفوظات التاريخية .

فقد قال ابراهيم باشا ، فى خلال حملته الأولى فى الشام (١٨٣٢ — ١٨٣٣) إن أبى لا يزال العبد الخاضع للسلطان ، والمحامى عن الدين الحنيف (٢) . ثم أكد محمد على للكولونيل هودجس (Hodges) فى سنة ١٨٤٠ إخلاصه لعرش الآستانة قائلا ما ترجمته : "أما من حيث تأييد العرش التركى فمن أكثر منى حمية فى ذلك ؟ . إن الشعب الملتف حولى يثور على إذا حاولت أن أقلب ذلك العرش (٣) " . أضف إلى ذلك أن محمدا عليا كان على جانب وفير من الفطنة السياسية ، فعرف أنه

(١) Missett, June 20, 1812 (F. Office. 24-4).

(٢) St. John, Egypt aud Mohamed Ali. Vol. II, Page. 522.

(٣) Paton, History of the Egyptian Revolution. Vol. II, p. 169.

لا يستطيع التغاضى عن مناهضة الدول الأوروبية الكبرى إذا ابتغى أن يبدل الحالة الراهنة فى الآستانة .

إذن لم يك فى عزمة محمد على أن يحل محل السلطان على عرش الآستانة . فماذا كانت غايته من حروبه ؟ هل كان يرمى إلى إقامة عرش له فى وادى النيل فحسب ؟ نحن نذهب مع أصحاب هذا الرأى ، فلقد ثبت أن محمدا عليا طفق يذكر الاستقلال فى أحاديثه حوالى سنة ١٢٨٥ . وأثبت الجنرال بوييه رئيس البعثة العسكرية فى مصر ما قاله له محمد على حينما تناول أمنية الاستقلال هذه . والعبارة التالية مقتبسة من رسالة بعث بها الجنرال بيار فى الثامن عشر من يوليو عام ١٨٢٥ . قال فيها ما ترجمته :

" أسهبت إليك فى كتاب سابق عما يتعلق بانتصارات ابراهيم باشا فى اليونان ، وأودّ أن أطلعك الآن على حديث سرى دار بينى و بين محمد على باشا حدثنى فى خلاله عن أمانيه . قال محمد على : أنا أعرف أن السلطنة تسير يوما فيوما إلى الردى ، وأنه ليصعب علىّ أن أنشلها مما هى فيه . فلماذا أحاول المستحيل بوسائلى القليلة ؟ على أنى سأقيم على أنقاضها مملكة كبيرة ولدىّ جل الوسائل التى تساعدنى على الفور . إنى أستطيع أن أفتح عكاء ودمشق و بغداد بكلمة واحدة منى و بوساطة مقدرتى وجيوشى . وابنى المنتصر سيتوجه فى أقل من عام ليحقق مقاصدى على ضفاف دجلة والفرات لأنها حدود ثابتة للدولة التى أسعى فى إنشائها ، وستمكنه شجاعته العظيمة من الفوز[1] " .

الدوافع الحقيقية لحرب الشام الأولى

(١) تلق المحفوظات الملكية المصرية ضوءا نتبدى خلاله دوافع الحرب المصرية التركية (الأولى) وفى طليعتها — ولا مراء — نيات الباب العالى السيئة

(١) Correspondance des Genreaux Beillard et Boyer, p. 50.

حيال مصر . وأول دليل على ذلك ما كتبه ابراهيم باشا فى خطاب الى والده يقول له فيــه :

” إن ســوء النية والخديعة كامنان خلف المفاوضات ، التى تستتر من ورائها الضربة القاصمة ، التى تعدها حكومة الآستانة ضد ابراهيم ووالده[١] “ .

وكان محمد على قد رفع شكواه الى الأميرال الكبير خليل باشا من المؤامرات التى تحاك حوله فى العاصمة التركية[٢] . وكان ابراهيم ، على الرغم من انتصاراته فى الوقائع الثلاث عكا وحمص و بيلان ، على بينة من أن هزيمته فى الأناضول ستكون سببا لخلاص مصر من أسرة محمــد على[٣] . وكان القائد لا يأمل فى توطيد سلم حقيق بينما يجلس السلطان محمود على عرش آل عثمان .

ولا يغيب عنا أنه فى عام ١٨٠٥ ولى السلطان مكرها ولاية مصر لمحمد على ، وقد حاول فى السنة التاليــة أن ينقله الى ولاية سالونيك . وفعلا وصل الى مصر موسى باشا ، والى سالونيك ، يحمل فرمان سيده . وفى عام (١٨١٣ — ١٨١٤) اجتذبت الآستانة ، الى صفها ، لطيف باشا أحد رجال الحكومة المصرية ، وسلحته بفرمان لتقليده ولاية مصر ، إذا كللت مساعيه بالنجاح لقلب حكومة محمد على ، الذى عرف سر المؤامرة[٤] . وفى عام ١٨٢٩ شاعت الآستانة أن توغر صدر محمد على ضد ابنــه ، حينما نصبت ابراهيم باشــا على مكة ، أظهــر المناصب الشريفــة فى الامبراطورية العثمانية . وفى السنة التاليــة ، اقترح الباب العالى على الباشــا (محمد على) أن يولى إدارة الثغور المصرية : إسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، الى قبودان باشا ، عدوه القديم ... الخ .

---

(١) وثيقة رقم ٥٨ محفظة ٢٣٢ بتاريخ ٢٣ رمضان عام ١٢٤٧ هـ من ابراهيم الى محمد على .

(٢) وثيقة رقم ٩ — ١٠ محفظة ٣ بتاريخ أول ربيع و ٢٥ جمادى الأولى عام ١٢٤٨

(٣) وثيقة رقم ٤٣ محفظة ٢٤١ بتاريخ ١٩ رجب عام ١٢٤٨ من ابراهيم الى محمد على .

(٤) Driault, Mohammed Ali et Napoleon (1807 – 1814) . pp. 233 - 239.

ولكى يذهب السلطان بعيدا فى الكيد لمحمد على ، فقد منح منصب الصداوة العظمى الى خسرو باشا ، عدوّه اللدود القديم .

ومجمل القـول أنه منذ تقلد محمـد على حكم مصر ، لم تفتر عزيمة السلطان عن إنتاج كل سبيل ، لعزل والى مصر من منصبه — ولذلك لا نعجب مطلقا إذا نهض محمـد على بمحاربة السلطان ، تستحثه الى ذلك غريزة الدفاع عن النفس . يحارب للمحافظة على جاهه ، ومنصبه ، ومقامه . وأكثر من ذلك ، من المحتمل أنه كان يحارب للمحافظة على حياته أيضا .

٢ — استقلال مصر :

هـذه النوايا السيئة ، التى كان يضمرها السلطان لمحمد على ، خلال السنوات ١٨٠٥ — ١٨٣١ أيقظت الحذر بين جوانح محمـد على ، الذى كان يتوقع نشوب الحرب فى أى وقت . لذلك رأيناه يعبىء موارد دولته ، ويؤمم تجارتها وصناعتها بل وأرضها ، وينشئ القوّات الدفاعية ليحمى ذمارها ، من العدوان المرتقب . ولكى يعلن الاستقلال فى الوقت الملائم — وان نضاله فى سبيل استقلال مصر أبانت عنه طائفة من الرسائل الرسميـة المتبادلة بين الباب العـالى وكبار رجاله ، الذين يشـغلون المناصب الهامة ، فى حكومة الشام . وكذلك فى الخطابات المتبادلة بين محمـد على وابراهـيم .

وكان فى طليعة أعداء محمد على من هؤلاء الموظفين — عبد الله باشا الجزار والى عكاء ، فكان يكيل التهم جزافا ضد محمد على ، وكان يطلق عليه الثائر والخارج عن طاعة السلطان . وكثيرا ما طالب رعايا السلطان أن يعلنوها حربا شعواء لا هوادة فيها ، لنصرة السلطان على محمد على .

وكان ابراهيم يعـبر بصراحة عن الاستقلال ، سـواء فى مجالسه الرسمية ، أو فى مكاتباته مع والده أو كبار الموظفين . كتب مرة من حلب الى حاكمها التركى

محمود باشا، الذى هزمه فى حمص معبرا عن تصميمه على الاستيلاء على الأراضى العربية، وليقطع نهائيا صلتهم بالحكومة التركية[1] .

وبعد أيام قلائل، صرح ابراهيم باشا للأمير بشير بعزمه على احتلال أدنة، ليغلق الاتصال بالآستانة . وقد ثبت ذلك فى نشرة الجيش بتاريخ ٤ ربيع الأول عام ١٢٤٨ هـ . وفى مكاتبة أخرى لإبراهيم نادى أبيه بلفظ يا صاحب الجلالة وذكر كلمة مصر المستقلة[2] . وفى تقرير سرى آخر من ابراهيم لأبيه أشار الى الجهود المخلصة التى اضطلع بها لتدعيم أسرتهما[3] .

وعقب انتهاء معركة قونية، وقبل احتلال كوتاهية، وبينما كانت مفاوضات السلم دائرة، كتب ابراهيم باشا الى أبيه الخطاب التالى، يقول له فيه :

"... وطالما يتربع على العرش — السلطان محمد — فسوف لا نصل بقضيتنا الى حل مقبول وأنه بالرغم من الظروف والأحوال التى قد تظهر فى صالحنا، فإنه سيعمل كل ما فى وسعه لتنفيذ مآربه الظالمة، مما يجعل الأمة الاسلامية لا تعيش فى سلام — ولذلك فإن آلتزاماتنا الدينية والشخصية نحو العالم الاسلامى تتطلب منا أن لا نفكر فى مصالحنا فقط . بل وفى صالح رفاهية وسعادة الأمة الاسلامية . وعلى ذلك سنحاول جهد طاقتنا لطرد هذا المخلوق اللعين لكى يجلس على العرش العثمانى وريثه حسبما يتفق مع سياستنا السابقة . وباتخاذنا هذه الخطوات يمكن إنهاض العالم الاسلامى . وإذا طرأ فى ذهن أى أحد أن هذه الإجراءات سوف

(١) نشرة الجيش التى كان يقوم بها وحيد أفندى . وثيقة رقم ١١٩ محفظة ٢٣٦ عابدين بتاريخ ٢٠ صفر عام ١٢٤٨ هـ .

(٢) من ابراهيم باشا الى محمد على باشا — وثيقة رقم ٧٢ عابدين محفظة ٢٣٨ بتاريخ ٩ ربيع الثانى عام ١٢٤٧ هـ .

(٣) من ابراهيم باشا الى محمد على باشا — وثيقة رقم ١٩٠ عابدين محفظة ٢٤٠ بتاريخ ٢٧ جمادى الثانى عام ١٢٤٨ هـ .

لا توافق عليها الحكومات الأوروبية . فليس هناك خوف من تداخلهم . وإذا لم يرضوا بإجراءاتنا فلن يستطيعوا معارضتنا والوقوف أمامنا . فإذا أحيطوا علما بما تم . نكون قد وضعناهم أمام الأمر الواقع " .

" إننى فى طريق الى بروسه ومودانيا وسأسرع للوصول اليها . وسوف لا أستطيع القعود فى مكانى مدّة أطول وإلا ساءت الأحوال لأن المؤنة فى قونية وما حولها لا تكفى قواتنا " .

وفى أثناء فترة الهدنة المسلحة ، وقبيل نشوب الحرب الثانية بين الدولتين . كتب ابراهيم لأبيه من كوتاهية رسالة تفصح عن أهدافه لما علم بوصول خليل باشا مندوب الباب العالى ، والجنرال مورافيف الروسى ، الى محمد على ، لعقد الصلح على صورة مرضية . قال ابراهيم : " إن أهم ما يلزم البحث فيه معهما هو طلب الاستقلال وطلب إلحاق جزيرة قبرص وألوية انطاكية وعلائية وجزر ايجه الى مصر — ثم ضم تونس وطرابلس الغرب اذا أمكن " .

وقال له أيضا : " إننا إذا تهادنا فى طلب الاستقلال يذهب كل عملنا الذى عملناه هباء وسدى . ولا يمكننا فيما بعد أن نخلص أنفسنا من إرهاق تلك الدولة بالتكاليف التى لا تنقطع . وما اليها مما تأتى فى هذه الوثيقة الهامة[1] " .

ولا ندرى — الى أى مدى — كان الأب متفقا مع الابن ؟ هل شاركه فى سياسته أم كان له نظرة أخرى . ولكن الشىء الذى لا ريب فيه أن محمدا عليا كان يهدف أيضا الى الاستقلال . فقد تحدّث عنه فى بدأة عام ١٨٢٥ ، ففى الخطاب الذى صاغه الجنرال بوييه رئيس البعثة العسكرية فى الجيش المصرى الى الجنرال تبليار (١٨ يوليو ١٨٢٥) . وقد سبق ذكره .

---

(١) الوثيقة رقم ٨٥ عابدين محفظة ٢٤٣ بتاريخ ١٣ رمضان عام ١٢٤٨ ﻫ

وبعد خمس أو ست سنوات ، كتب محمد على لابنه رسالة سرية ، كانت تنم عن رضاه التام بخطة الابن فى استقلال مصر التام ، بيد أنه كان حذر للغاية فى طريقة تنفيذ الخطة ، أى فى نوع التكتيك ، وإن كان هدفهما واحد وهو (استقلال مصر) .

مصر لا تفى بحاجيات الدولة الناهضة (المواد الخام) :

قبالة أمنية محمد على وابراهيم للاستقلال بوادى النيل ، ارتأى الاثنان أن يعجلا بوضع أيديهما على الشام ، للاشراف على مقدرتها[١] .

لقد كانت مصر ، منذ مائة عام ونيف ، بالرغم من خصوبة تربتها لا تفى سكانها . وما كان يزرع فيها من أشجار الجميز والسنط لم يسد حاجة الأسطول والتعمير الى الخشب . فكانت مصر تستورد معظم الوقود والأخشاب التى تدعو اليها حاجتها ، فى الحرب والسلم ، فى بناء السفن التجارية لنقل الغلال ، عن طريق النيل الى اسكندرية ، وبحرا الى مرفئ الشرق الأدنى . وصنع البوارج والنقالات الحربية ، التى لم يكن هنالك مندوحة من إنشائها فى حروبه .

نعم ، زادت ثروة مصر من الحاصلات الزراعية ، كالقطن والنيلة ، ومختلف المواد الغذائية . فلم يكن من الصواب فى شيء أن تزرع فيها الغابات ليستعاض بأخشابها عن الاستيراد ، كما أنه لم يستفد من خشب السودان بعد أن تم فتحه . فاضطر محمد على الى أن يحذو حذو تحتمس الثالث ورمسيس الثانى وابن طولون للبحث عن الخشب ، فى سورية وبلاد القرم . وقد عرف رجال محمد على الانتفاع بحراج الشام والأناضول ، فى الفترة بين ١٨٣٢ و ١٨٤٠ ، فأرسلوا الى مصر مئات من جزوع الأشجار ، انتفع بها فى بناء البوارج ، وفى معامل الذخيرة والسلاح فى مصر .

---

(١) Asad Rustum : The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria (1830 - 1841)

كذلك كان لبنان غنيا بالمعادن ، من حديد ونحاس وذهب وفضة وزنك ، وقد كانت لأبحاث بعض المعدنين ، الذين أوفدهم محمد على للبحث عنها ، من أقوى العوامل على تقرّب محمد على من ولاة سورية ورغبته فى ضمها الى مصر .

هذا كان موقف محمد على من المواد الرئيسية لصناعة الحرب وعتادها . كذلك كانت حاجته الى المادة البشرية — وهى الرجال — أهم خامات القتال .

لا ريب ان مصر أمدّته فى كل حروبه بالرجال المكافحون . ولكن بعد فشل جهوده لتجنيد السودانيين ، رأى فى رجال الشام مادة تعينه . فتطلع اليهم لأنهم كانوا بطبيعة بلادهم شديدى البأس كما أنهم كانوا كثيرى العدد . يعادلون سكان مصر آنذاك(١) وقد رحل من هؤلاء عدد وفير من أشدّائهم الذين لجأوا الى والى عكا . لذلك لا نعجب إذا ألفينا محمدا عليا يعتمد على أهل الشام فى جيوشه . وهو القائل " من جبال لبنان أجند جنودى . فأدرب منهم جيشا كبيرا ولا أقف به إلا على ضفاف دجلة والفرات(٢) " .

والى جانب الرجال أراد المال وهو عصب الجهاد . رأى أن يطبق الاجراءات التى نفذها بنجاح فى مصر ودرّت عليه المال اللازم لجيوش — فى الشام أيضا . والقطران يمكن أن تؤلف منهما وحدة اقتصادية واحدة فيجعلهما سوقا واحدة للصادرات والواردات . وكانت أسواق مصر فى حاجة الى الحرير والصابون وزيت الزيتون والتبغ والماشية ، فضلا عن الخشب والمعادن .

اذن كانت الشام وضمها الى وادى النيل أظهر العوامل فى نشوب الحرب لأنها كما يقول المؤرخ أسد رستم :

Supplementd Egypt in a number of its economic necessities and offered an endless number of possibilities for the monopolies of the Pasha.

Guys: Beyrout et Liban. Vol. I, 275 - 276. Vol. II, 209 - 210. (١)

Correspondance des Generaux Beillard et Boyer, p. 79. (٢)

(٤) مصر والشام وحدة طبيعية وجغرافية :

ارتأى محمد على ، مثلما ارتأى أسلافه الأيوبيين والمماليك ، أنه لا يتسنى التوسل بالسلم وحدود بلاده مفتوحة فى وجه سلطان آل عثمان . فان صحراء سيناء وحدها لا تعدّ خطا منيعا للدفاع — والدفاع عن وادى النيل من الشرق يبدأ خطه الأوّل فى جبال طوروس كما لا يخفى . كذلك جبال سوريا الشاهقة وأوديتها العميقة وشعابها الضيقة . هذه وتلك كانت حاجزا طبعيا دون تقدم جيوش السلطان محمود جنوبا ، إذ لم تك فيها طرق صالحة لسير الجيوش . وهى مقبرة لجيوش الفرنج فى العصور الوسيطة ، كما كانت لجيوش المغول والحيثيين من قبلهم .

كان على الجيش العثمانى ، الذى يقدم على غزو الشام ، أن يجتاز جبال طوروس من طريق واحد أو طريقين . وهذا أمر كان يعوق تقدمه كثيرا . وكان متعينا عليه أن ينقل جل مهماته وحاجياته فى طريق وعر . فاذا أكره على التراجع استهدف لخطر كارثة تحل به فى ارتداده على عقبيه لاجتياز جبال طوروس ثانية .

أما محمد على فكان له وراء هذا الخط الأوّل من خطوط الدفاع خط ثان فى لبنان ، حيث كان فى وسعه الاعتماد على تأييد الأمير الشهابى واتباعه . كذلك كان له خط ثالث فى جبل الكرمل . وخط رابع فى صحراء سيناء . فضلا عن انتفاعه بالثغور على الساحل الممتد من اسكندرونة الى اسكندرية .

والخلاصة أن الشام ومصر كانتا ، منذ مائة عام ، تؤلفان وحدة اقتصادية وجغرافية طبعية . وقد اعترف محمد على بهذه الحقيقة منذ أوائل عهد ولايته . ورغب بحروبه فى أن يجعل الإقليمين وحدة سياسية أيضا . فقد كتب الى وكيله فى الآستانة نجيب أفندى يقول " إن الشام لازمة لسلامة مصر "[1] .

---

(١) وثيقة رقم ٨ — عابدين محفظة ٣ بتاريخ ٣ محرم سنة ١٢٤٨ﻫ من محمد على باشا الى نجيب أفندى .

(٥) ابراهيم والقومية العربية المصرية :

يقول الأستاذ المؤرخ شفيق غربال بك إن محمدا عليا بدا وعاش وانتهى عثمانيا مسلما، وإن مهمته كما حددها من مستهل الأمر الى آخره كانت إحياء القوة العثمانية فى ثوب جديد . ورمى الى أن يجد مكانا لعالمه العثمانى الحى ، فى الدنيا الجديدة، التى خلقها الانقلاب الاقتصادى فوصل بين أجزائها (بلاد العرب والشام ووادى النيل) وصيرها وحدة حقيقية على الرغم من المنافسات القومية[1] .

وفى مكان آخر من كتابه عن محمد على الكبير يجيب المؤرخ عن السؤال (وما قدر مصر فى تفكيره وغاياته ؟) بالجواب الآتى :

ان قدرها فى عينه عظيم عظم المشروع كله . هى القلب من الجسم الحى الذى يروم أن يرى . وأبناؤها أعوانه فى البناء الكبير . نالت من حبه ونالوا من حبه القدر الأكبر رفض أن يتخذ منها عالما صغيرا ضيقا محدود الآفاق ضعيف الآمال . كما رفض أن يكون معول الهدم فى العالم العثمانى حتى ولو كان الهدم اسمه الاستقلال والباعث المحرك له اسمه العصبية القوميـة . وكان خير من يعلم أن انفصام الوحدة العثمانية معناه تشتت قوتها وأجزائها ووقوع الأجزاء جزءا جزءا فى حكم الدول الغربية .

لقـد أحب محمد على مصر الحب كله . أو لم يقل فى منشور له من تلك المنشورات الممتعـة التى يعبر بها عن كل ما يجول فى نفسه : "إن نيلنا لوطن عدم النظير كهذا هو من النعم الجسيمة وعدم القيام بالسعى والاجتهاد فى عمارتها يكون عين الكفران بالنعمة وهـذا ما لا تقبله شيم جبلتى وتأبى نفسى أن أكون شريكا لكم فى ذلك" .

وعن ذلك يقول المؤرخ رفاعة رافع الطهطاوى : "إن منافع مصر العمومية قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العلوية وتسلطنت على قلبه وأخذت بمجامع

---

(١) الأستاذ محمد شفيق غربال بك — محمد على الكبير — سلسلة كتب أعلام الاسلام .

لبه . وإنه عمل تماما بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : (من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم) " .

هذه مصر هدف محمد على . كانت وحدها كل شيء فى برنامجه ، فلم يك من عشاق الامبراطوريات كغيره ممن سبقوه . ألم تعرض عليه حكومة فرنسا بوساطة بوليناك وسمو وهودار عام ١٨٢٩ معاونتها فى فتح طرابلس وتونس والجزائر ليضمها الى مصر فيشملها حكمه ؟ ولكن بعد أن وزن الأمور بميزان حكمته رفض الاقتراح الفرنسى لأنه كان ينطوى على إذلال شعب إسلامى .

أما ابراهيم فقد كان أبعد مرمى من الأب فى القضية العربية . فقد كان يرغب باخلاص فى إحياء نهضة عربية . فقد حل بالديار المصرية ونشأ فى وسط عربى بحت . ثم قرأ تاريخ العرب وثقافتهم مع ما تلقنه من مبادئ العلوم والفنون . وكانت إقامته أعواما طويلة فى بلاد العرب والشام . قد قربته الى فضائل العرب وعيوبهم أيضا . فعرف محاسن هذا الجيش ومساوئه وهى خالصة قبل صهرها لدى اختلاطهم لحك هذا خياله وأيقظ عطفه . ومن هذا البحث الشخصى كون ابراهيم خلاصة مشروع الدولة العربية عن عقيدة واقتناع — رأى أن هذه الدولة التى يريد الأب تحقيقها لا تتم ولا تكون كاملة إلا إذا دعمت على أساس متين هو إحياء الشعب العربى و إنهاضه فتكون الدولة شامخة قوية ، روحا و بنيانا .

ولقد يخيل إلى البعض أن تصريحات ابراهيم عن العروبة ، و إحياء التراث العربى ، لا تخرج عن عبارات الدعاية ، التى يلجأ إليها الساسة والفاتحون لتخدير الأعصاب . أعصاب الشعوب المغلوبة على أمرها . ولكن يبطل هذا الراى أن كل الذين كانوا يعملون معه كانوا يؤمنون بالعقيدة نفسها ؛ فقد صرح مختار بك ياوره فى حرب الشام وقد قابل وزير الخارجية الفرنسية فى مهمة خاصة إلى محمد على وابراهيم عام ١٨٣٣ قائلا : " لقد قدمنا إلى مصر ولم نكد نتجاوز سن الطفولة ولذلك لم نعد تركا قط ولم تبق رابطة تربطنا بذلك الشعب . أننا الآن

ننتسب إلى شعب أنبل وأكثر تنوّرا إلى هـذا الشعب العربى الذى سبق أوروبا فى مضار الحضارة . وزين تاريخه باقامة المـدن المزدهرة والآثار الفخمة التى غطى بهـا وجه الأرض من جبال الأندلس إلى وادى النيل إلى حدود إيران " .

واتجهت فكرة ابراهيم إلى تحـويل الدولة التى أنشأها أبوه إلى دولة عربيـة صميمة ينتسب فيها الحاكمون والمحكومون الى شعب واحد. وإعطاء الجنس العربى جنسيته الخاصة وكيانه السياسى كما أن له لغته الخاصة وأدبه الخاص وتاريخه الخاص .

ولقـد كانت أعمال ابراهيم ورجال حكومته فى بلاد العرب والشام خير برهان[1] صادق على إخلاصه فى عقيدته ، يؤيد ذلك ماقام به من المشروعات فى البلدان ، التى خضعت للحكومة المصرية[2] .

ويتفق مؤرخو مصر الحديثة : شفيق غربال ، ومحمد رفعت ، ومحمد صبرى ، وأسد رستم ، فيما كتبوه عن عقيدة ابراهيم العربية . الذى يعتبر بحق المؤسس الأوّل لمنظمة الجـامعة العربية ، التى أعيد التفكير فيها بعـد مائة عام من انقضاء الحكم المصرى فى البلاد العربية .

لذلك نعتبر ابراهيم باشا المنادى الأوّل بالوحدة العربية ، فهو — ولا مرية — يستحق مكان الشرف فى تاريخ الوحدة القوميـة فى الشرق العربى ، وهو كما قال عنه أسد رستم :

"He is the first Moslem of rank in the Arab World who conceived of an Arab Nationalist Movement and who was determined to make it effectual".

هذه أهم دوافع النضال التى استثارت الحرب بين محمـد على والباب العالى ، وإن كان بعض المؤلفين جروا فى كتبهم على إيراد أسباب سـلمية أخرى ، تكاد تتفرع عن الأسباب الرئيسية التى بسطناها . يذكرون من بينها :

---

(١) George Douin: La Mission de Baron de Bois le comte l'Egypte et la Syrie en 1833 – p. 249 – 250.

(٢) الأستاذ محمد كرد على — خطط الشام — جـ ٣ ص ٧٥

إن سوء التفاهم الذى ساد بين عبد الله باشا الجزار والى عكاء ومحمد على باشا مرجعه هجرة الفلاحين من مصر الى ولاية الآخر، وعدم وفاء عبد الله بدين عليه ، وسوء نيته، وطموح محمد على للتسلط والتملك .

وما أشبه من أسباب أخرى .

حمـــلة الشـــام الأولى
(الجولة الأولى)

الجيش المصرى فى عام ١٨٣١ :

كان عدد الجيش النظامى، حينما أعدت حملة الشام، حوالى ٧٠,٠٠٠ موزعة بين الأسلحة على الوجه التالى :

١٨ آلاى مشـــاة .
٨ آلاى خيـــالة .
١ آلاى مدفعية .

وحدات من المهندسين واللغامين وقوات غير نظامية

أما الوحدات، التى خصصت للحملة بقيادة ابراهيم ورئاسة هيئة أركان حرب سليمان باشا، فكانت تتألف من :

٥ آلاى مشاة، وهى الآلايات ٨ , ١٠, ١٢, ١٣ وآلاى الحرس
٤ آلاى خيـــالة، وهى الآلايات ٣ , ٥ , ٦ , ٧ المدرّعة والرماحة
١ أورطة مدفعية تحتوى على ٤٠ مدفع ميـــدان و٢٠ مدفع حصار و١٠ هاون (زيدت فيما بعد) .
٤٠٠ جندى من المهندسين .
١٤٠٠ خيـــالة من البدو .

وكان فى كل آلاى خيالة أربعمائة جمل، لنقل المتاع والمياه، كما ألحقت بكل أورطة حملة لنقل حاجياتها وقد أربى تعداد الحملة بأسرها على ٢٥٫٠٠٠ جندى، منها ٣٠٠٠ خيالة.

الأسطول

وتألف الأسطول المصرى من ٢٣ سفينة حربية، منها ٧ فرقاطات، و٦ قرويته و٣ أباريق، و٧ سفن مدفعية وغيرها من النقالات الصغيرة. ومثل هذه الوحدات البحرية كانت تحت إمارة أمير البحر عثمان نور الدين باشا.

الخطة العامة :

تتفق — الى مدى بعيد — خطة فتح الشام بقيادة ابراهيم ومثيلتها بقيادة نابليون. والفارق الأوحد أنه لم تك لهذه السيادة البحرية التامة فى شرق البحر المتوسط نظرا لوجود الأسطول الانجليزى ومنعه من حرية العمل. بينما اعتمد ابراهيم على تعاون قواته البحرية والبرية، مثلما فعل تحوتمس ورمسيس من قبل فقد كان الاتصال مستمرا عن طريق البحر، بين مصر وقوات ابراهيم البحرية الشيء الذى افتقده نابليون، وبعبارة أبين لم يك متيسرا.

قسمت وحدات الحملة الى قسمين كان رأس القسم الأول ابراهيم، الذى اتخذ البحر طريقا يصل به الى يافا، وكانت قاعدته ثغر العريش. أما القسم الثانى فكان يقتاده ابراهيم يكن وقد تحرك برا من الخانقاه.

وصف ميادين الحرب (الشام وفلسطين) :

قبيل الخوض فى الحملات العسكرية، فى فلسطين والشام، يتعين أن نأتى بوصف موجز لأراضى هذا الإقليم، التى تتألف منها ميادين المعارك التى يتناولها هذا الموضوع، لأن الأرض وشكلها — كما لا يخفى — هى التى تملى نوع الحركات

---

(١) جاء فى كتاب تاريخ الحرب الشامية لكاد لفين و بارو وصفا موجزا لآبار المياه، التى مرت بها الحملة فى طريقها الى يافا وكفايتها.

العسكرية وعملياتها التى ينفذها القائد الكبير إلى الجندى الصغير . ولا تعدو الحقيقة إذا أورينا بأن الجيش فى الميدان أشبه بالماء فى الوعاء ، يتشكل به حسبما يشاء !

يتيسر تقسيم سورية إلى أربع مناطق ، تتباين فى السعة ، تمتد من الشمال إلى الجنوب بموازاة بعضها تقريبا . وأولى هذه المناطق — الشاطئ ويتكوّن من عدّة سهول ساحلية تختلف فى اتساع رقعتها ، وينفصل بعضها عن بعض بالجبال التى تمتد فى بعض الجهات إلى ساحل البحر المتوسط ، مثل جبل الكرمل فى لبنان ، وجبال أحمر داغ بالقرب من أنطاكية . ومعظم المناطق الساحلية ضيقة ، إلا أنها تتسع فى الجنوب لدى سهل شارون . ويبلغ متوسط عرضه هناك حوالى ١٥ ميلا . وكثيرا ما تتجه السهول الساحلية نحو الداخل ، سائرة من مجارى المياه ، ووديان الأنهار ، كسهل اسدرائيلون شمال الكرمل ، ووادى العاصى (الأورنت) لصق أنطاكية . غيرأنه فى الوسط ، حول طرابلس وبيروت ، تضيق المنطقة الساحلية وتشبه شريطا وعرا للغاية .

والمنطقة الثانية تشتمل على الجبال المشرفة على السهل الساحلى ، وهى ثلاث سلاسل جبال الأنصارية فى الشمال (كابسوس قديما) ولبنان فى الوسط ، واقرايام ويهودا فى الجنوب . والسلستان الأولتان عبارة عن جبال شامخة تصل فى بعض جهاتها إلى ١١,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . أما الأخيرة فلها سطح فسيح غيرمنتظم ، وقليلا ما يتجاوز ارتفاعها ٣٠٠٠ قدم . وتحتوى ثنايا رقم هذه الجبال على مناطق خصبة آهلة بالسكان .

والمنطقة الثالثة تشمل الأودية العميقة ، التى تسلك فيها الأنهر الثلاثة : العاصى والليتانى والأردن . ويصب الأوليان فى البحر مباشرة — الأول فى فجوة لدى جبال الأنصارية وجبال أحمر داغ : والثانى فى فجوة أضيق لصق صور من الشمال . أما الأردن ، ومعظم مجراه ينخفض عن سطح البحر ، فإنه يصب فى البحر الميت المغلق . ويتميز العاصى والليتانى بخصب وديانها الفسيحة ، أما وادى

الأردن فضيق وغير مملوء بالمستنقعات ولا يتهيأ عبوره إلا فى مناطق قليلة ، ويمتد وادى الأردن إلى الجنوب : ويتصل بوادى العرابة الذى يصل إلى خليج العقبة .

وإلى شرقى منطقة الوديان ، تقع الهضبة الشرقية الشامخة (التى يسميها القدامى جوف سورية) وهى مسطحة فى بعض الأماكن ، جبلية فى البعض الآخر ، ومتصلة بصحراء قاحلة فى كثير من المواضع . ومع ذلك تكثر فيها الأماكن الخصبة الوافرة المياه والثمر ، كالأراضى الواقعة حول حلب وحول دمشق وأرض مؤاب .

وفى الشمال يكون نهر الفرات وروافده حدا فاصلا ، تصلح فى حناياه العمليات العسكرية الوسيعة الحركات .

هذا هو وصف جغرافية الشام ، مسرح العمليات الحربية ، بإيجاز . أما من الناحية الإدارية فقد كانت الشام مقسمة إلى خمس ولايات :

ولاية حلب ، وهى القسم الشمالى من البلاد .

ولاية بيروت ، وهى السواحل البحرية وما يليها فى داخلية البلاد ، من اللاذقية شمالى حيفا جنوبا .

ولاية الشام (سورية) وقاعدتها مدينة دمشق ، وهى تشمل داخلية البلاد وشرقيها .

متصرفية القدس ، وهى تتضمن جميع البلدان الواقعة بين حدود ولاية بيروت وحدود مصر الشرقية .

متصرفية لبنان ، وهى الخامسة ، وكان لها نظام خاص واستقلال إدارى ولها والٍ تعينه الدول مع الباب العالى كل عشر سنين ، وموقعها فى أواسط بلاد الشام ، بين ولايتى سورية وبيروت .

وكانت مقاليد الحكومة بيد والى الأيالة الشامية ، وكان فى معظم الأحوال مستبدا ، وكثيرا ما صادر الناس فى أموالهم . أما الشئون العسكرية فكان مرجعها مشير الجيش العثمانى ، ومقره فى دمشق .

كان الخراب شاملا البلاد ، والضرائب فادحة ، والظلم فاشيا . وظل الحال سنين طويلا على هذا النسق، حتى صارت البلاد على شفا الدمار . إلى أن منّ الله بالفرج ، بدخول القوّات المصرية ، فأمن الناس على أرواحهم وأموالهم[١] إلى قبيل مبارحتها فى عام ١٨٤١ . ولم يزل أهل الشام يتحدثون بإبراهيم باشا وحكومته إلى هذا الحين — وكان محمد باشا شريف واليا على الشام من قبل محمد على . يجرى على خطة مولاه من الإصلاح والعدل ، مما اعترف به المؤرّخون من أهل البلاد وغيرهم وكذلك ما شاهده الرحالة أو رجال الحكومات الأجنبية .

مسير الحملة :

حدّد ميعاد مسير الحملة فى أوائل عام ١٨٣١ ، بيد أنه تأجل من جراء انتشار الكوليرا فى مصر، وقضت على حوالى خمسة آلاف من الجيش فحسب !

وفى يوم ٢٩ أكتوبر عام ١٨٣١ ، تحركت الطليعة من معسكر الخانقاه بقيادة اللواء إبراهيم يكن[٢]، فمر ببلبيس والصالحية فقاطيه فبئرالعبد والعريش، حيث استراح يوما ، ثم وصل خان يونس فغزة[٣] ، ومنها اتجه إلى يافا حيث تقابلت القوات مع وحدات القائد إبراهيم باشا الذى بلغها بحرا . فلما رسا الأسطول قبالة ثغرها نزل وجهاؤها وعرضوا عليه التسليم . وكانت حاميتها ٢٥٠ جنديا فنزل بلوك لاستلامها واستولى على مدافع قلعة يافا وكانت ٤٧ مدفعا بذخائرها[٤] . وهنا اجتمع قسما الجيش لتنفيذ الخطة الرئيسية .

---

(١) حسر اللثام عن نكبات الشام — طبع مصر سنة ١٨٩٦ .

(٢) الملقب بالصغير — وهو ابن شقيقة محمد على باشا — ولد فى مصر عام ١٨٠٤ ، وهو شقيق أحمد باشا يكن الذى ولى على الحجاز ثم عين ناظرا للجهادية — ويلاحظ أن معظم قواد الحملة كانوا شبانا ومنهم إبراهيم باشا الذى لم يتجاوز الثالثة والأربعين بعد — كذلك أحمد المنكلى وسليم الحجازى وعباس حلمى .

(٣) كانت لغزة قلعة منيعة تقع على مرتفع خربها الفرنسيون تخريبا تاما ولم يلق المصريون أية مقاومة من رجالها .

(٤) ليافا موقع أهم من غزة لقربها من البحر ، وثغرها يسمح لرسو السفن وكان للمدينة سور وأبراج منيعة .

ثم اندفعت كتيبة صوب بيت المقدس فاحتلتها ، كما تقدمت وحدات خفيفة أخرى يقتادها حسن المناسترلى واستولت على صور وصيدا و بيروت وطرابلس .

الترتيبات الإدارية :

إن حملة عسكرية كبيرة مثل هذه كان لا بدّ لها من ترتيبات إدارية منظمة . ففضلا عما كان يحمله الجنود معهم من التعيين الميدانى . فقد كان يرسل البقسماط على سفن من مصر إلى ثغور الشام . وأنشئت النزلات فى المدن والموانئ ، خزنت بها كميات وفيرة من التعيين الجاف ، والذخيرة ، والبارود ، والخرطوش والأكياس ، والقذائف الجرية ، وغيرها من الفشنك وعتاد الخيل ومهمات المدافع . وكان يرسل بانتظام كشوف عن الموجود من مختلف الذخيرة فى مستودعات الجيش ، كلما امتدت خطوط مواصلاته . وقد حفظ لنا التاريخ اسم مدير أكبر مستودعات التموين وهو نظيف بك ، كما أقيمت مستشفيات الميدان .

وقد عثرنا على وثيقة هامة ، عبارة عن تقرير من المهندس قاسم أغا بتاريخ ٢٤ رمضان ١٢٤٧ هـ (١٨٣٢ م) تحتوى على آراء هامة فى هذا الصدد ننقلها لأهميتها[(١)].

بما أن الجيش المصرى أصبح بعيدا عن مصر يحول بينه و بينها الصحراء . وأن طريق البحر ليس بمأمون دائما وأنه ليس هنالك غلال تموين الجيش لسبب ما استحكم فى البلاد المفتوحة من القحط والغلاء فاقترح ما يأتى :

أولا — مد خط من مصر و إنشاء شون للغلال على خط مستقيم طول الجهات التى تمتد فيها الحركات العسكرية — فى الصالحية وقاطية والعريش وغزة و يافا وحيفا وصور وصيدا و بيروت وطرابلس وما إليها . و يودع فى كل هذه الشون مقدار واف من وسائل النقل ليتولى إيصال ونقل مؤنة الجيش من مصر إلى محطة فمحطة حتى المعسكر .

---

(١) وثيقة رقم ٦٩/٢ محفظة رقم ٢٣٢ عابدين بتاريخ ٢٤ رمضان ١٢٤٧ هـ تقرير مقدم من المهندس قاسم أغا .

ثانيـا — ينشأ فى دمياط مستشفى كبير ليرسل إليه من الجيش العساكر المرضى والضعاف للمعالجة فيه — وتنشأ فيها أيضا أورطة مؤقتة أو بلوكات تؤلف من الذين يشفون من هؤلاء المرضى ومن العساكر الجدد . فيعين منهم الحراس فى الشون كما يسد منهم النقص الذى يحصل فى الآلايات — وإذا أخذ بهذا النظام فيصان كيان الجيش بحيث يبـقى الآلايات التى يكون منها كاملة العـدد ويحفظ أيضا الطريق المشترك الذى بين مصر وبر الشام ويقل للغاية عدد الخسائر التى تحدث فى الدواب بسبب طول الطريق الممتد من مصر إلى هنا .

معارك حصار عكة :

كانت عكة محصنة بأسـوار متينة وتحميها عدة أبراج من الشرق والشمال . أما من جهة البحر فكانت الأسوار أقل متانة من الأسوار القائمة من جهة البر . والمياه المجاورة لهـا قليلة العمق لا تسمح للسفن الكبيرة بالرسـو على مقربة منها . وكانت جميع الحصون فى حالة جيدة . وقـد وصفت حصون عكاء فى كثير من الكتب المعاصرة . وممن تناولها بالإفاضة الأستاذ أسد رستم (١) . وقد رأينا أن نبينها فى خارطة مرفقة بهذا رغبة فى الإيجاز المبتغى . وكانت حامية المدينة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم مدفعية قوية وكميات وفيرة من المؤن والذخيرة والمياه والطعام . تكفى الحامية لحصار طويل الأمد . وبالإختصار كانت استحكامات عكا غاية فى المنعة بعد الإصلاح الذى شملها عقب إنسحاب الفرنسيين منها .

وفى يوم ٢٦ نوفمبر (١٨٣١) استهل إبراهيم محاصرة عكا فاستبسلت حاميتها فى الدفاع عنها — وقد امتاز العكاويون بروح قتال وبمعنوية عالية إلى نهاية القتال —

---

(١) Notes on AKKA and its Defences uuder Ibrahim Pasha. 1926.
Assad Rustum

وانتصرت حاميـــة بعض الأبراج على المصريين ، ممـا حدا بابراهيم أن يطلق نيران مدفعيته عليهـا أياما متواليات لكن بدون جدوى . وفى هـذه الأثناء أرسل محمد على إلى عكا مهندسا قديرا تولى إدارة أعمال الحصار بكل دقة . وقد تمكن المصريون . بالرغم من شـدة مقاومة الحامية ، من فتح ثغرتين فى الجهة الشرقية من السور ، وأمطروا المدينة وابلا من القنابل والرصاص ، برا و بحرا ، فخربت المدينـة ومات الكثيرون من رجالهـا . ومع ذلك استمرت تدافع بكل شجاعة . وصبت المـدافع المصرية النيران على أسرارها ونجحت فى فتح ثلاث ثغرات ولكن بدون أثر . وفى خلال تبادل النيران أصيبت بعض السـفن المصرية بتلف كبير ، الشيء الذى دفع إبراهيم على القيام بهجوم عام . ولكن قبيل شروعه فى تنفيذ خطته دعا عبدالله باشا إلى التسليم فأبى .

استعصمت عكا على الجيش المصرى ، وانقضت ثلاثة أشهر بدون معـارك تستحق الذكر ، فارتأى إبراهيم الصمود قبالتها بينما تقدمت بعض وحداته — كما قلنا — واستولت على صور وصيدا و بيروت وطرابلس فى الشمال . ولـما وضح فوز إبراهيم باشا العسكرى ، وتقدمه الخاطف ، واستيلائه على ثغور الشام الأخرى ، وهى مفاتيح ينفذ منها الفاتح إلى داخلية البلاد .

محمد على خارج على الخليفة :

رأى السلطان امام اعتداء محمـد على أن يعلن عصيانه وخروجه عليه[1] . وذلك لكى يؤلب عليه العالم الإسـلامى . ولـما لم يذعن هـذا إلى تهديده بادر فى إعداد جيش يهاجم به قوات إبراهيم خلال انشغاله فى حصار عكا . ولكى يحرم خصمه من الانتفاع بالمبادأة ويربك خططه التى وضعها .

---

(١) الفرمان الموجه من السلطان لحسين باشا الصادر فى الأستانة فى آخر ذى القعدة عام ١٢٤٧ هـ .

الجيش العثمانى النظامى

وهنا يجمل بنا أن نتناول الجيش المقابل، الذى أعدّه السلطان محمود الثانى ونظمه بهمة ونشاط ، على الأساليب العسكرية الحديثة ، بعد قضائه على قوّات الإنكشارية فى مذبحة فظيعة (١٦ يونيو ١٨٢٦) . وقد انتهى من ترتيب ٢٠ ألف جندى فى أخريات العام المذكور كانوا نواة القوة المسلحة المنظمة عند خليفة آل عثمان. ولم يك ليتم له هذا الموضع العسكرى الجديد فى بلاد ارتبط شعبها بالروح الدينية . مما جعل قبوله للنظم الأوروبية المتحدثه أمرا غير مستساغ .

وكان على رأس الجيش العثمانى السرعسكر حسين باشا ، الذى تم على أيديه إبادة الإنكشارية. ومثل هذا القائد بدأ حياته حمالا بخاسوسا ثم قائد قلعة ثم مهيجا بخلادا ثم باشا الباشوات. قيل عنه أنه كان سيفا ماضيا فيما مضى ولكنه الآن سيف لا يخرج من قرابه . وقبل تقلده الجيش ألبسه السلطان محمود كسوة القيادة العليا، وهى المعطف القصير المزركش بأسلاك الذهب ، وأهدى اليه سيفا مرصعا بالماس وجوادين عربيين مطهمين ، وقلده رتبة المشيرية ، ولقبه بالمشير الأكرم . وولاه على مصر وكريت والحبشة . ومثل هذا القائد كان نصيبه الفشل فى معركتى حمص و بيلان بعد أن كان واثقا بالنصر فلم تمض ساعتان على نشوب القتال ، حتى بات طريدا شريدا ، فلم يقفوا له على أثر . الى أن كشف أمره . وقد أصيب بالرمد وفقد نظره ، فى إحدى مزارع ولاية بروصة .

وكان حسن باشا — بالرغم من مكانته وقوة شخصيته — يمثل الرجعية العسكرية ، لأنه لم يتحول عن تفكيره القديم ، ولم تتطور وجهة نظره ، بالرغم من المستحدثات التى أدخلت على الجيش الذى قدر عليه أن يتولى قيادته . فرأى السلطان أن يدعم الموقف بتعيين قائد آخر معه اسمه محمد باشا ينهض بقيادة جميع الوحدات المنظمة ، فيما عدا قوّات الحرس ، وهما دعامتا الجيش المقاتل . وكان

محمد باشا هذا نير التفكير ، ميالا الى التجديد الحديث ؛ لذلك انقسم الجيش الى فريقين : فريق المحافظين وفريق المجدّدين ومما زاد الطين بلة أن أصيب السردار بعلة مضنية كانت هى الأخرى سبب الكارثة التى تنتظره .

وكان الجيش الذى وضع تحت قيادته يتألف من ٦٠,٠٠٠ جندى منها ٤٥ ألف من وحدات النظام الجديد، من الجنود الذين عنى بملبسهم ومأكلهم ورواتبهم تجمعهم فضائل القناعة، والشجاعة ، والصبر . وكانوا فى الواقع عدّة المعارك، وآلة القتال الحقيقية . ولكن كانت تنقصهم أظهر ميزات النجاح وهو النظام فضلا عن إسرافهم فى الحصول على الغنائم — وكان ضباطهم على شىء من التدريب . أما قادتهم فكانت تعوزهم الكفاءة .

أصدر السلطان أوامره الى القائد حسين باشا ، بعد أن رقاه الى رتبة المشير (سر عسكر)، بأن ينظم جيشا فى الأناضول، ثم عين عثمان باشا اللبيب حاكما على طرابلس . ومن العجب أن يكون الاثنان خصمين لدودين ! واستطاع عثمان باشا الحصول على معاونة حاكم حلب ، فأمدّه بالرجال والعتاد ثم تقدم على رأس قواته صوب اللاذقية وطرابلس ، ليتولى شئون ولايته الجديدة . وقد نجح فى تأليب سكان الجهات التى مر بها ضد محمد على، الخارج على الدولة والدين ! بالرغم من أن محمدا عليا كان قد اكتسب احترام العالم الاسلامى أجمع ، عقب انتصاره الساحق على الوهابيين .

القوات المصرية

وكانت الحامية المصرية ، الموجودة فى طرابلس لحمايتها ، تبلغ ٣٠٠٠ جندى وكان قوامهم من القوات النظامية (الآلاى المشاة ١٨) تحت قيادة القائم مقام ادريس بك ، ومن قوات الأعراب والدروز بقيادة الأمير خليل، أحد أبناء الأمير بشير الشهابى .

وبالرغم من تفوق قوات عثمان باشا على قوات ادريس بك فى الناحية العددية فلم يهاجم المدينة بل انتظر للعمل فيما بعد، حسبما تملى عليه الظروف . وفعلا صادفه الحظ إذ خرج القائم مقام ادريس بك على أورطة الى السهل المكشوف ، خارج المدينة ، وهاجم قوات عثمان باشا ، التى تفوق قواته عددا وعتادا ... فأبيدت الكتيبة وفر ادريس تاركا خلفه بقية وحداته .

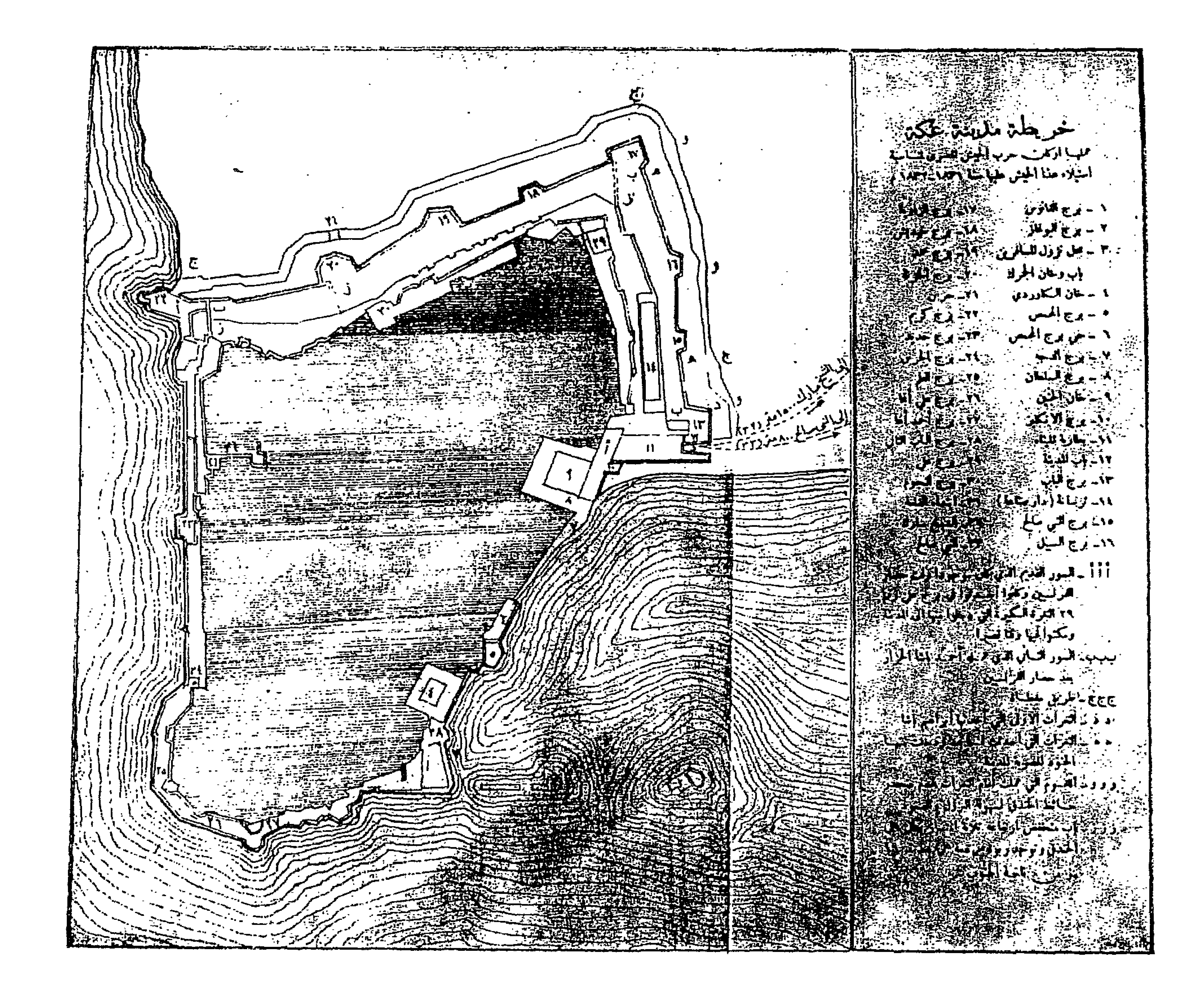
وشجع هذا النصر السريع عثمان باشا على تدعيم معسكره أمام طرابلس . وفى ٣١ مارس هاجم المدينة فخرجت الحامية المصرية بقيادة محافظها الشجاع مصطفى بربر ومعه ٤٠٠ من الدروز الشجعان بقيادة الأمير خليل ، وأصلت المهاجمين نيرانا حامية ، وأبدوا من ضروب الجرأة والشجاعة ، وأنزلوا بالأعداء هزيمة منكرة — وفروا أمامهم الى مينة .

وصلت أخبار معركة طرابلس الى أسماع ابراهيم باشا فى عكاء ، وبلغه أن طليعة جيش تركى تتجمع فى منطقة حماه، فرأى أن يزايل عكا تاركا إياها للقوات المحاصرة ، وكان ذلك فى التاسع والعشرين من شهر مارس، وتقدم الى صيداء وبيروت رأس قول مؤلف من ١٠,٠٠٠ جندى منها آلاى الحرس والالآى السابع الخيالة وستة مدافع .

وفى ٤ ابريل وصل الى بادرون على مبعدة ست ساعات من طرابلس . فلما سمع عثمان باشا بهذا التحول السريع ، واقتراب ابراهيم منه ، استولى عليه الفزع ، وترك مدفعيته وعتاده ، وولى الأدبار الى منطقة حماه ، حيث عسكرت طلائع الجيش التركى .

---

(١) نهر ينبع فى لبنان بالقرب من بعلبك ويمر بحمص وحماة وأنطاكية ويصب عند السويدية ويعرف باسم نهر العاصى .



خريطة مدينة عكة
٨ - برج السلطان
١٠ - برج الانكليز
١٢ - باب المدينة
١٣ - برج الباب

وفى اليوم التـالى دخل ابراهيم طرابلس ظافرا وأمر باعدام بعض الخونة من كبار الموظفين الذين اتصلوا بالعـدو . ثم قرر مطاردة عثمان باشا . فتجاوز لبنان ، وأدرك حمص ، وأصـبح مشرفا على وادى نهـر الأورنت[1] على مبعـدة مرحلتين جنوبى حماة .

معركة الزراعة

قدر ابراهيم موقفه فرأى أنه لايبعد كثيرا عن عكاء . ولذلك ارتأى أن يترك حمص حيث لايتوفر العيش والمؤنة لجيشه ، واعتلى وادى الأورنت (العـاصى) حتى وصل الى خان قصير، حيث عسكرت قوّاته الى الشرق فى سهل الزراعة[1] .

توهم عثمان باشا أن تراجع ابراهيم عن حمص علامة ضعفه ، فجمع إلى قوّاته حشـدا من أهالى المنطقة والأكراد وفرسان العرب بلغ عددهم ١٥,٠٠٠ مقاتل ، وسار بهم لمقاتلة ابراهيم ، وكان هذا قد دبرله الخطة الناجحة وقسم قوّاته إلى قولين ، وحشد خلف كل منها مدفعيته فى أماكن مستورة عن بصر العدو . وخدع خصمه وأوهمه أنه سيلزم الدفاع . فانخـدع القائد العثمانى وهجم بكل وحداته على القولين فلبثت هـذه صامتة حتى إذا صار الأعداء على مسافة قريبة ارتدّ المصريون بسرعة عجيبه خلف المدافع وبمجرد انتهاء الارتداد طفقت المدافع تصب حممها . فحصدت المهاجمين حصدا ، ووقعت بهم الخسائر ، واختل نظامهم وسـادهم الهرج ، وفى وقت قصير تفرق جمعهم ، وارتدّوا خائبـين . فطاردتهم الفرسان المصريون حتى دفعوا بهم الى نهر الأورنت ومن نجا منهم مات غرقا .

انتهت معركة الزراعة (١٤ ابريل ١٨٣٢) بهزيمة الجيش التركى، وارتد عثمان باشا الى حماه ، وبقى فيها يرتقب وصول الامداد .

---

(١) قرية جنوبى حمص .

وعاد ابراهيم الى بعلبك ليستعد لجولة أخرى . وفيها التقى بابن أخيه عباس باشا ، الذى استدعاه من عكا على رأس الآلاى الثانى عشر المشاة والآلاى الخيالة الثالث وثلاث بطاريات .

أهمية موقع بعلبك :

تقع مدينة بعلبك ، ذات الشهرة التاريخية ، فى وادى نهر الليتانى الذى يربط قسمى لبنان (الخارجى والداخلى) ويصل بين وادى نهر الأردن والأورنت — وفى هذه المنطقة تخرج الأنهر الثلاثة الأردن ، والليتانى ، والأورنت وتعمل معا أخدودا طويلا يكاد يكون موازيا للبحر المتوسط — وقد مرت ببعلبك أكثر الحملات العسكرية فى التاريخ ، سواء القادمة من الشمال أو الشرق أو الجنوب . فلها موقع استراتيجى هام يسيطر على إقليم الشام . وهى على مسافة متساوية من دمشق وبيروت وطرابلس — وقد ارتأى إبراهيم أن يسيطر على ما حولها ليحول دون وصول إمدادات الى الأتراك تلك ويمنع قدوم أية قوة لمعاونة عبد الله الجزار لفك الحصار عنه . وكان قد أمن على أجناب جيشه بعد اطمئنانه لمسلك اللبنانيين نحوه .

لذلك رأى الاحتفاظ بأى جهد على بعلبك وما حولها ويحرم العثمانيين من الاستيلاء عليها . ولضمان هذا لم يتردد فى إمداد عباس باشا بالآلاى الثامن عشر من طرابلس ، وبالآلاى الحادى عشر الذى وصل حديثا ، والآى الحرس ، والآلاى السابع الخيالة ، الذى كان تحت قيادته .

وللأهمية نورد فى هذا السياق بيانا للقوات المصرية التى أصبحت مرابطة فى بعلبك — وهى بمثابة طليعة الجيش المصرى ، التى ستقابل الصدمة الأولى فى القتال المقبل :

٤ آلايات مشاة — ١١ و ١٢ و ١٨ والحرس .

٢ آلايات خيالة — ٣ و ٧ .

مدفعية كافية ووحدات مساعدة .

قوّات غير نظامية .

والآن وقد نظم ابراهيم وأركان حربه سليمان بك (الفرنسى) الأوضاع الجديدة لتوزيع قوّاته فى شمال سورية ووسطها ، واطمأنت نفسه للموقف العسكرى العام ، عاد الى عكا العتيدة ، التى لم تلن صخرتها بعد . وعزم على الخلاص نهائيا من إخضاعها وفتحها ، لأنها لم تزل شوكة فى جنب قوّاته الأيسر . هذا علاوة على ما وصل إليه من أن جيش المشير حسين باشا قد اجتاز البوسفور (١٢ أبريل) وتقدمت طلائعه فى خطوات حثيثة .

عود الى عكا

لم يكن الاستيلاء على عكا بالأمر اليسير، فهى التى وقفت صامدة أمام عبقرية نابليون وعزيمته، وهى التى يدافع عنها الآن عبد الله وهو رجل صارم القلب ثابت الجنان . فقد مرت أشهر أمام شجعان ابراهيم ولم تسقط فى أيديهم . ولم تكن منعتها هى الصعوبة التى قاومت قائدنا فحسب بل كانت للخطة التى انتهجها الباب العالى مانعا . فقد كان السلطان يصب على ابراهيم اللعنات، ويسلط عليه سيلا من فتاوى شيخ الاسلام . فمن ذلك أنه أصدر خطا شريفا يرمى فيه مصر بالمروق ثم تبعه فى مايو ١٨٣٢ بفرمان شاهانى بتجريد محمد على وابراهيم وإباحة دمائهما . وهذا — ولا مرية — له أثره على الروح المعنوية للمدافعين . وكان السلطان قد أعلن الحرب رسميا على محمد على فى ٢٣ أبريل .

عاد ابراهيم بعد أن اطمأن للموقف العسكرى فى الشمال الى عكا فى ٢٧ مايو ١٨٣٢، وحمل عليها حملة صادقة أشرف عليها بنفسه — وكان إذا حمى وطيس القتال فى مكان طالعته فيه يخوض غماره . وكان يتطلب من ضباطه أن يكونوا مثله صناديد لا يرهبون الموت . وطالت المعركة واشتد سعيرها . فلما أذنت

الشمس بالمغيب ، حمل ابراهيم على المدينة حملته الأخيرة . ولكن أبدى المهاجمون لدى مغيب الشمس من ضروب الجسارة والإقدام مثلما أبدوه فى أول النهار ، ودافع عبد الله دفاع الأبطال . بيد أن شجاعته لم تغن عنه شيئا ، وسقط هذا الحصن المنيع بينما كان الليل يرخى سدوله على جدران المدينة وأسوارها .

أوضاع القوات فى الاقتحام :

وقد وصف مستر سنت جون[1] استيلاء ابراهيم باشا على عكاء وصفا مسهبا نلخصه فيما يلى :

فى صباح يوم ٢٦ مايو عام ١٨٣٢ ، دعا ابراهيم باشا الى خيمته كبار ضباط القوات المهاجمة ، من قادة وأميرالايات وقادة كتائب ، وأصدر إليهم أوامره تتضمن الآتى :

اللواء أحمد المنكلى يتوجه بلوائه ومعه الكتائب الأولى من الآلاى الثانى المشاه للهجوم على برج (قبو برجى — قلعة الباب) .

الكتيبة الثانية المشاه تهاجم الثغرة المقابلة للنبى صالح .

الكتيبة الثالثة المشاه بقيادة عمر بك تهاجم الثغرة المعروفة بالزاويه . وعينت قوة احتياطية من الكتيبة الرابعة (الآلاى الثانى) تحت الثغرة الأولى لمساعدة إحدى القوات السابقة المهاجمة عند الحاجة .

وصدر الأمر الى كتيبة من الآلاى العاشر بقيادة أميرالاى للوقوف تحت الثغرة الثالثة للغرض المتقدم .

وصدر الأمر الى كتيبة أخرى بنقل السلالم ، قبيل الساعة الأولى بعد منتصف الليل الى الخندق الواقع بجانب قبو — برجى ، وبأن تكون هناك على استعداد للهجوم .

وزود القائد العام — فيما عدا ذلك — كل قائد بالتعليمات الخاصة به .

---

(١) St John - Egypt under Mohammed Ali. Vol. II, pp. 492 – 496.

ومن تحصيل الحاصل القول بأن استيلاء إبراهيم على عكا قد وضع حدا نهائيا للجفوة الناشبة بين محمد على وعبد الله . كما أثار موجة من الاغتباط فى وادى النيل، حيث أقيمت الزينات ثلاثة أيام متواليات [١] .

واشتغل المهندسون العسكريون بحفر الخنادق المتعرجة وإقامة متاريس قريبة من الأسوار ونصب المدافع، وأتموا جل هذه الأعمال فى غمار الظلام، بينما كانت نيران المدفعية تنصب باستمرار على المدينة .

وفى فجر ٢٧ مايو، عقب شروق الشمس ، صدر أمر القائد العام بالهجوم ، واستمر القتال كما ذكرنا طيلة اليوم . وفى المساء سقطت عكا فى قبضة المصريين .

ومن ثم جاء أعيان عكاء يلتمسون الرحمة — ولما كان دائما من شيمة الشجاع تعظيم الشجعان — فرأى ابراهيم فى فلول الجيش المنهزم أعداء له يفخر بمحاربتهم — فلم يسعه إلا أن يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم، وبلغ منه أن سمح لهم بأن يحتفظوا بأسلحتهم .

أما عبد الله نفسه فلم يعد بأكثر من تأمينه على حياته، لكنه تلقاه بما هو خليق بمقامه كوزير من وزراء الدولة من الحفاوة .

وكان طبيعيا أن يعمل الجند النهب فى عكا، مثلما يفعل زملاؤهم فى الشرق والغرب ، قديما وحديثا ، رغم ما أصدره إبراهيم من الأوامر . انطلق الجنود فى المدينة ينهبون محتوياتها، بيد أن النظام لم يلبث أن أعيد فى صباح اليوم التالى . وبذل القائد الكبير كل ما فى وسعه ليكفر عن خروج الجند عن النظام ، وكان مما فعله أن أذاع بين الناس أن كل من فقد متاعه سيردّ إليه إذا وجد، وأمر جنوده أن يعيدوا كل ما كان فى حوزتهم من الأسلاب .

---

(١) التقارير الرسمية لحصار عكا ، من البداءة الى سقوطها ، كثيرة فى مجموعة المحفوظات التاريخية بقصر عابدين ، نذكر من أهما .

— النشرة الثالثة للجيش المصرى فى الشام ، فى المحرم سنة ١٢٤٨ (٦ يونيو ١٨٣٢) .

— تقرير القائد العام سمو إبراهيم باشا عن الهجوم على عكا والاستيلاء عليها .

— تقرير إبراهيم يكن باشا بتاريخ أول المحرم ١٢٤٨ هـ (٣٠ مايو ١٨٤٢) .

أما خسائر المصريين فى معارك حصار عكا فهى :

الجــــرحى		القتـــلى	
١	قائمقام	١	قائمقام
١	بكباشى		
٢	قائد أورطة	٢	قائد أورطة
٣	صــاغ	٢	صــاغ
٨	يوز باشى	٣	يوز باشى
٤٧	ضابط	١٥	ضابط
١٣٦٨	جندى	٤٨٩	جندى
١٤٣٠	المجموع	٥١٢	المجموع

الجـــولة الثـانية

معركة حمص

فى ساحة الحركات :

فى أوائل مايو عام ١٨٣٢ ، كان معظم الجيش العثمانى قد تجمع فى قونية، على السـفح الذى يقع شمالى طوروس ، واحتلت أدنة بعض الوحدات فيما يلى الجبال المذكورة من الجنوب .

وفى ١٤ مايو كان حسين باشا يقيم مع جيشه فى قونية ، لا يبدى حراكا وكأنه لا يتأهب لمعارك أو حروب، تاركا الحبل على الغارب للجنود : لا تدريب أو مناورة ولا استعداد ولا نصائح للضباط أو توجيه . فعاثوا فسادا، ونسوا جيادهم فلا عناية بأمرها ولا علائف تقدم لهـا . وعبثا ما حاوله الضباط الأورو بيون فى هيئة أركان حرب القائد ، بل قل ضاعت جهودهم هباء منثورا .

وعلى نقيض ذلك ، كانت الحال فى صفوف الجيش المصرى . نشاط موفور ملحوظ بين الجند وضباطهم ، معنوية عالية نتيجة لانتصاراتهم فى ستة أشهر ، تدريب متوافر وتطعيم لروح الحرب بين أفراد وحدات الامدادات ؛ تصلهم بين الفينة والفينة أنباء زملائهم فى الميادين الجنوبية .

كان محمد على يلاحق ابنه بالآلايات المدرّبة أوّلا بأوّل . فوصلته الآلايات المشاة ٥ و١٨ و٢٠ والألآى الثامن الخيالة و ٣٠٠٠ بدوى لسد خسائر الوحدات ، وملء المراكز الشاغرة ، لتمسى مرتبات الحرب كاملة وسفن العتاد تواصل الليل والنهار فى موانئ الشام التى باتت كلها خاضعة للقوات المصرية . وأسرع إبراهيم فى إصلاح ثغرى عكا وحيفا بمعاونة الكولونيل المهندس (Romei) الفرنسى لتكونا قاعدتين ساندتين للحملة المصرية وساعده فى ذلك ٤٠٠ من جنود المهندسين و ٢٠٠٠ من العمال . وكان الآلاى العاشر المشاة وقليل من الخيالة تتولى حراسة خطوط مواصلات القاعدة .

وهنا كان على إبراهيم أن يعمل فورا ، دون مضيعة للوقت ، واقتناصا للفرصة السانحة . فما كان بوسعه أن يبدد الوقت فى السرور والحفلات . وعلى عاتقه أهداف أخرى ينبغى أن يصلها ببعضها و إلا تلاشت الظروف المهيأة ، و باغته جيش السردار حسين باشا ، الذى انتهى من حشده فى الأناضول .

لقد أراح جنده ، وتمتعوا بنوم هادئ بعض الليالى ، تحت قبة السماء الصافية . وانتهى من ترتيب الشئون العسكرية فى عكا ، وتقدم برأسه المفكر ينظم الخطوط الرئيسية ، فى الجولة الثانية إلى دمشق .

زايل عكا فى يوم ٩ يونيو (١٨٣٢) فى جيش مؤلف من ١٨ ألف جندى ، نصفهم من الوحدات النظامية ، قاصدا دمشق ، تلبية أو إذعانا لأمر محمد على . لأن الاستيلاء عليها وعلى حلب وعكا وطرابلس معناه الاستيلاء على الشام كلها . ولما كان الوالد يعتقد كما أدرك نابليون من قبل أن النصر يحب التقدم الذى تؤازره

الكتائب اللجبة "La victoire aime à marcher des gros bataillons." لذلك نشاهده يمد ابنه القائد بالوحدات والعتاد التى يتطلبها الموقف العسكرى أولا بأول.

وفى ١٤ يونيو، وصل ابراهيم الظافر ضواحى دمشق، برفقة الأمير الشهابى، على رأس ١٨٠٠٠ من المقاتلين (١٠٠٠ من الجنود النظامية) بعد مصادمة غير عنيفة بالأتراك الذين ولوا أمامه هاربين . ودخل دمشق فى ١٦ يونيو، فقابله الأهالى بفرح واغتباط . وجعلها مقر الحكومة المصرية فى الشام . ورتب الإدارة فيها على نسق جديد، وعين عليها ابراهيم يكن باشا حاكما، وأقام لها حامية من الآلاى الثانى المشاة وأورطة من الآلاى الخامس والآلاى الخيالة الثامن .

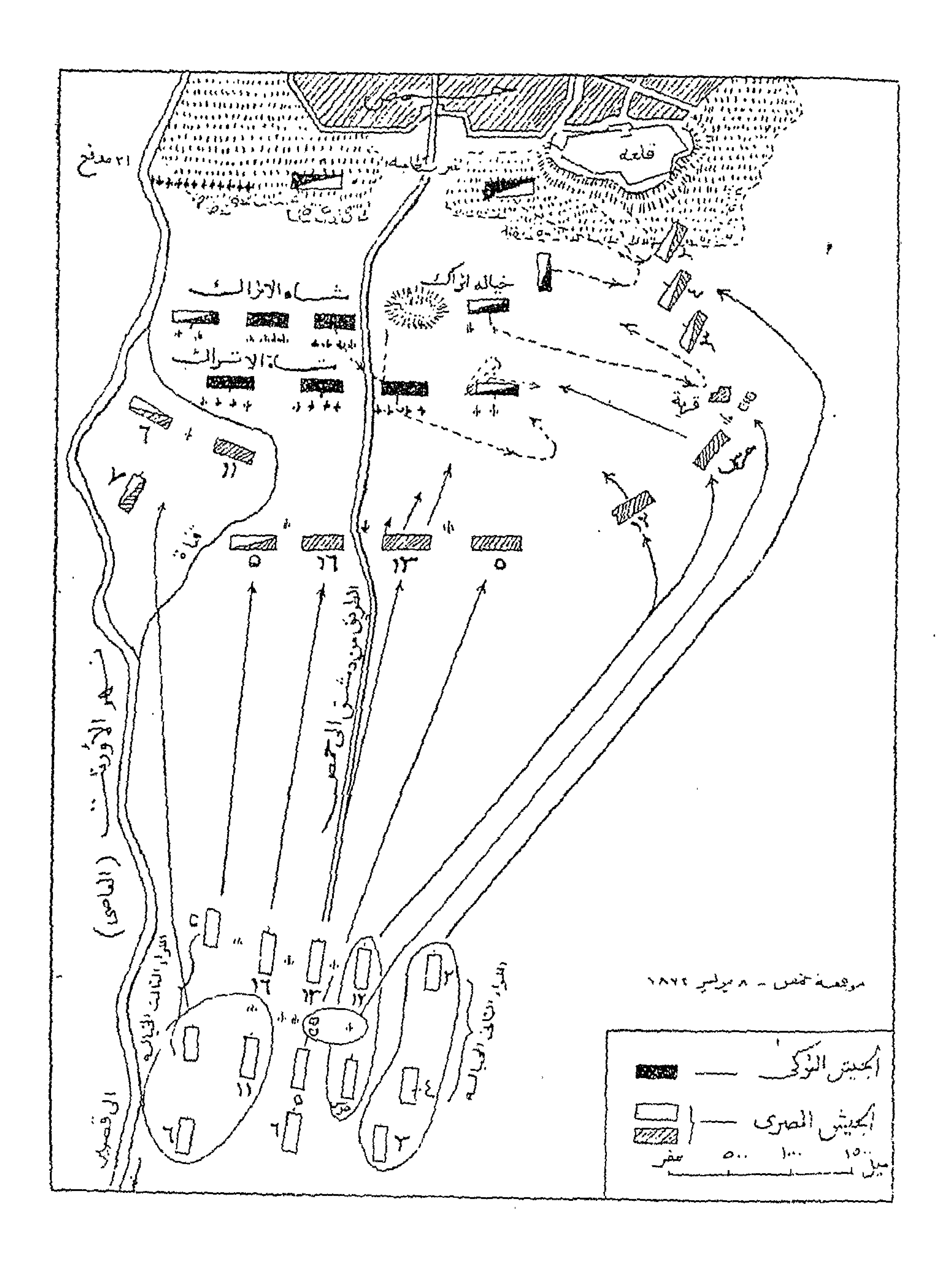
معركة حمص

اضطر إبراهيم أن يمضى أسبوعين فى دمشق إزاء الأنباء التى جاءته بانتشار الكليرا فى حمص حرصا على سلامة جيشه، ولم يبدد هذه الأيام هباء، إذ راح يعد العدة لأسباب التقدم، ويدرب جنده . أما حسين باشا فإنه — قبالة ضغط ضباطه الأوروبيين — قد تخلى عن مراكزه حول أدنه، وتقدم الى انطاكية ثم أنفذ محمد باشا، والى حلب، على قيادة مقدمة الجيش وأمره بأن يحصن نفسه فى حمص. والمسافة بين أنطاكية وحماه لا يستهان بها . ولا ندرى كيف أمر السردار أكرم قائد مقدمته بأن يبعد عن الجيش ... هل يا ترى نسى تعليمات المقدمة فى قانون الحرب ؟

فلما علم إبراهيم بالخطأ الذى اقترفه حسين باشا، عزم على الاتصال بمقدمة الجيش التركى وسحقها، ثم مهاجمة باقى الجيش بعد ذلك . فزايل دمشق زاحفا على حمص[1] التى كان القائد التركى محمد باشا قد وصل اليها، واستدعى من بعلبك وطرابلس بعض وحداته التى كانت تحت قيادة عباس حلمى باشا وحسن المناسترلى .

---

(١) تقع مدينة حمص على الشاطىء الأيمن من نهر العاصى (أورنت) وموقعها غاية الأهمية لأنها ملتقى عدة طرق . فهى على طريق بعلبك ودمشق جنوبا — وطريق أنطاكية وحلب شمالا .


قلعة
٢١ مدفع
مشاة الأتراك
خيالة الأتراك
مشاة الأتراك
قرية
قناة
موقعة حمص - ٨ يوليو ١٨٣٢
الجيش التركى
الجيش المصرى
١٥٠٠ ١٠٠٠ ٥٠٠ صفر
ميل

فصارت القوة ، التى تجمعت تحت قيادة إبراهيم لدى وصوله إلى مشارف حمص فى الجنوب ، حوالى ثلاثين ألف مقاتل (مانجان ج ٣ ص ٤٢) ورأى أمامه المعسكر العثمانى إلى جنوبى حمص ذات القلعة المهدمة وتحت أسوارها .

أوضاع الجيش التركى والمصرى :

كان محمد باشا يثق بالانتصار على خصمه " إبراهيم وفلاحيه " بل أوهمه اعتقاده أن سيفوز وحده فى معركة حمص وينال المجد بمفرده وبدون سرداره .

وفى صبيحة يوم ٧ يوليو وصل حمص وكانت أسوارها فى حالة طيبة ، تحيط بها الحدائق والقنوات التى يتسنى إعدادها لوسائل الدفاع . أما جنوده فقد أنهكها التعب ، وأسقمها السير الطويل فخطوا بأسلوبهم شمال المدينة ، على شاطئ الأورنت . بينما اقتنع القائد أنه فى مأمن من جنود إبراهيم — فأجل الى الغد وضع خططه وتدابيره وبدأ يستعد لتشريف الحفلة الأنيقة التى أعدها له ولضباطه — الباشا والى حلب — تكريما لشخصه .

وبينما كان يتنعم بما لذ وطاب مما تشتهيه النفس من أضراب الطعام العثمانى ، وألوان الشراب السورى ، كان جنده غادروا مخيمهم يتضورون جوعا فى أسواق المدينة يخطفون الخبز وشرائح اللحم ، وكلما وصلت إليه أيديهم .

وفى مساء يوم ٧ يوليو (أيضا) كانت وحدات الجيش المصرى قد اجتازت مسافة طويلة وصارت على مسيرة خمس ساعات من حمص . فعلم قائدها الكبير بوصول الجيش التركى إليها .

وكانت الوحدات المصرية تتألف من ثمانية آلايات مشاة وستة خيالة و ٣٨ قطعة مدفعية ، ومجموع القوة حوالى ٣٠،٠٠٠ مقاتل يضاف إليها البدو غير النظاميين . وقد أفاده هؤلاء — وهم مهرة فى أعمال الاستكشاف — بوجود الجيش العثمانى .

وتناقل المعسكران المعلومات بوساطة عيونهما ، فأدرك محمد باشا ، وسط ضجيج الحفل والمرح ، تحرج الموقف ، فجمع كبار ضباطه لتقرير المصير . وهنا ارتأى البعض أن الأصوب التقهقر المنظم إلى موقع آخر بينا فضل آخرون خطة التحرك والقضاء على الجيش المصرى .

ولا مرية أنه كان من الأصوب فى مثل هذا الموقف ، الذى كان فيه الباشا وجيشه ، التقهقر تجاه حلب ، للاتصال بقيادته العليا فى أنطاكية و بآلاف الأهالى الموالين للأتراك ، واستهواء إبراهيم إليهم حيث يسهل عليها إدارة المعركة حسب مشيئتها . ولكن هل يتفق هذا الرأى وحبه للمجد وهو قاب قوسين أو أدنى منه . إذن ليتقبل المعركة ، ويتحدى إبراهيم ، فى سبيل شهوه المجد .

وقادته فطنته بأن يلتزم خطة الدفاع ، و يشبك نفسه بحمص ، متخذا منها تكأة لحمايته ، ومن القناوات والمبانى المهدمة والأشجار موانع يقاتل جنده خلفها .

كان هذا حسن لو استبسل رجاله فى الدفاع والتشبث بمواقعهم . وبذا يعرقل تقدم جيش إبراهيم و يؤخره أياما ، فيعطى الفرصة للمشير حسين باشا باتخاذ الخطة الصالحة فى الوقت والمكان المناسبين له وفى الصباح المبكر من يوم ٨ يوليو ، أزال محمد باشا معسكره ، ونشرجل قواته قبالة جنوبى المدينة أمام مزارعها الغناء .

وزع جيشه فى صفوف ثلاثة . وضع فى الصف الأول أربعة آلايات مشاة نظامية عبر الطريق الموصل من حمص إلى دمشق لتكئ ميمنته على الزاوية الكبرى للقناة المتصلة بنهر الأورنت . وميسرته فى فضاء الصحراء . وخلف الصف الأول الصف الثانى ، وضع فيه آلايين وآلاى خيالة عبر الطريق بين الأورنت ودمشق ويدعم بها قلب وميمنة الصف الأول . والى شرق الطريق المذكور ، عند أكمة وضع آلايا آخر من الخيالة لتسند ميسرة الصف الأول .

وفى الصف الثالث ، الذى امتد بين الأورنت وضيعة مخربة ، تبعد حوالى ١,٨٠٠ متر عن جنوب شرقى حمص ، وضع قواته غير النظامية وآلايا من الخيالة النظامية لحماية ميسرته .

وهكذا وزع مشاته وخيالته ، أما توزيع مدفعيته فتم على الوجه الآتى :

وزع مدافعه بين صفوف وحداته الآنفة الذكر بمعدل مدفع فى كل أورطة مشاة ومدفعين فى كل آلاى خيالة . وصف ٢١ مدفعا فى مواقع مختارة خلف ميمنة قواته .

حركات الجيش المصرى :

وبينما كان الجيش التركى يتخذ أوضاعه المذكورة ، فى أحوال سادها الهرج والمرج ، كان الجيش المصرى ، الذى قضى ليلته على مقربة من طاحونة قديمة بالقرب من قصير ، قد طفق مسيره فى فجر يوم ٨ يوليه متجها صوب حمص . وكان ترتيب سير القوات كالآتى :

فى المقدمة " الآلايات المشاة " ١٢ و ١٣ و ١٨ يتبعها آلاى الحرس .

والآلايان الخامس والحادى عشر (المشاة) واتخذت كل أورطة فى تشكيل قول مزدوج مفتوح (غير كامل الانتشار) أما الآلاى الثامن فكان فى الاحتياط ، خلف منتصف القوة .

أما المدفعية فكانت ثلاث بطاريات منها فى الصف (الخط) الأول ، وأربع بطاريات وأبوسين بين الصف الأول والثانى[1] .

وكان توزيع الخيالة على النسق التالى :

ثلاثة آلايات على كلا جانبى التشكيل كله — فى ميمنته كما فى ميسرته ، وتحرس القوات غير النظامية من البدو أطراف الأجناب للقوات الاحتياطية .

---

(١) الصف هنا يطلق على الخط بأسره

وقد كان يسمح هـذا التوزيع أو التشكيل لقائد الجيش — ابراهيم باشا بأن يقوم بالمناورة بحرية واسـعة، حسبما تمليه عليه طبيعة الأرض التى سيتقدم عليها، وحسبما تصله المعلومات عن حركات العدو، إذا غير خطته فى اللحظة الأخيرة الى هجوم مضاد . وكانت الأرض الى شرق الضيعة المخربة تسمح لابراهيم بمناورة يقوم بها بحركة التفاف واسـعة حول ميسرة الأتراك، وهى أضعف نقط فى خط دفاعهم، والتى لم ترتكز على موانع قوية تكسر من حدة الهجوم المصرى إن لم نقض عليه .

وأخيرا اتخذ ابراهيم قراره النهائى :

" يقوم قلب الجيش المصرى بالهجوم على واجهة الجيش التركى بكل قوته ، يطغى بمشاته وخيالته ومدفعيته نحو ميسرة الأتراك فى حركة التفاف واسـعة ، بينما تقوم بعض مشاته بهجوم خادع بموازاة نهر الأورنت لشغل ميمنة الأتراك فى خطيه الأول والثانى، وبذلك يربك عملهم نهائيا .

" يتجه لواء الخيالة الثانى (الآلايان ٢ و ٤) والالاى الثالث الرماحة المدرعين نحو الضيعة المهـدمة، وعند وصـولها لأنسب المواقع تفتح تشـكيلها بين الضيعة المذكورة والمزارع (جنوبى حمص) وتلف حول ميسرة المؤخرة التركية .

" آلاى الحرس والآلاى المشاة ١٨ تدعم القوة السابقة وتفتح تشكيلها عنـد وصولها الى غرب وجنوب غربى الضيعة المهدمة .

" بطارية مدفعية وأبوسان تتخذ مواقعها المناسبة حيال الضيعة .

بينما تجرى هذه الحركات تأخذ الآلايات ١٣ و ١٨ مواقعها فى الأمام ويأخذ الآلاى الخامس مكانه بدلا عن الآلاى الثـانى عشر وتفتح وحداتهـا على طريق دمشق الكبير أمام قوات الأتراك فى الصف الأول .

" فى الوقت نفسه تقوم قوة منفصـلة مكونة من الآلاى الحادى عشر المشاة والآلاى السادس والسابع الخيالة وبطارية مدفعية بالتقدم نحو الأرض الواقعة بين

نهر الأورنت والقناة (وتشبه الجزيرة أو الدلتا) لمهاجمة ميمنة الأتراك وكاحتياطى لها الآلاى السابع المدرّع فى الصف الثانى — ولدى ظهورها تولى الرعب قلوب الأتراك ، وتحطمت أعصابهم ، فاضطر القائد الى إصدار أوامره الى أورطتين فى اليمين لتغيير مواجهتها لصدّ العدو المفاجئ ، ولكن كان الهرج قد عم الميدان .

لقد بلغ القتال عنفوانه — المعركة فى الساعة الخامسة مساء والمدفعية المصرية تقذف نيرانها الشديدة على صفوف الأتراك ، فتسدّد إصاباتها بكل دقة وإحكام ، وترد عليها مدفعية الأتراك بدون خطة محدّدة ، وتتبعثر طلقاتها هنا وهناك . بينما وهنت روح مشاتهم فى الميمنة فانضموا الى زملائهم فى القلب .

والآن تصل المعركة الى لحظاتها الفاصلة . ورأى ابراهيم باشا أن يستهل الهجوم الساحق ، فأمر آلايات الفرسان ٢ و٣ و ٤ ومكانها على ميمنة صفوفه بالزحف شرقا (كالخطة الموضوعة) لتقوم بحركة الالتفاف حول ميسرة الترك وتولى بنفسه قيادة هذه المعركة لأن على نجاحها يتوقف مصير المعركة .

تحرك الفرسان الشجعان واجتازوا الضيعة المهدمة بنحو ألفين الى ثلاثة آلاف ياردة وتقدموا لمهاجمة الخيالة الترك غير النظاميين الذين كانوا على مقربة من الضيعة وكان الهجوم شديدا ومحكما . فتراجع الترك وتفرقوا . واحتل المصريون الأرض الواقعة بين الضيعة وحدائق حمص ، ولما رأى الفرسان الترك النظاميون ما حل بزملائهم غير النظاميين تقدموا لصد هجمة المصريين وقد نجحوا — فأمدّ إبراهيم باشا فرسانه بقوّة من جنود الحرس والمشاة (١٢ آلاى) والمدفعية فأوقعوا بهم وفرّقوهم ، ثم هجم معهم المشاة المصريون من القلب فارتبكت ميسرة الأتراك بعد مقاومة عنيدة ثم تقهقرت الى الوراء وبذلك هزم الجناح الأيسر التركى برمته وتخلى عن مواقعه .

أما قلب الجيش التركى وقد اصطدم بنيران المصريين المحكمة . وفى الوقت الذى لم تمدّه مدفعيته بمعاونة كافية من النيران ، فبدأ ينثنى . وقام محمد باشا بوزن

وتقدير الموقف الذى أصبح حرجا بعد أن أصبحت ميمنته ووسطه فى حالة سيئة تهدد بالانهيار السريع . وكان ينبغى عليه استدعاء قواته الاحتياطية ليعزز بها المراكز التى ضعفت ويقوم بهجوم مضاد فى ناحية الضيعة . لكن لم يفعل — ووجد حلا يائسا يخرجه من الورطة فأمر آلاى خيالة فى ميسرة صفه الثانى بالهجوم على مدفعية المصريين الذين وصلوا الى الضيعة كما أمر آلاى مشاة فى قلب الصف الأمامى (وكان هذا الآلاى يرتكز على آلاى الميسرة فى الصف الثانى للقيام بالهجوم بالسونكى لاقتحام الآلاى المصرى الثانى عشر . وأسرع آلاى خيالته بتنفيذ الهجوم ولكنه كان متعبا فكان هجومه غير منظم وقابلته مدفعية الحرس بنيرانها المحكمة — فدار وولى الأدبار — أما آلاى المشاة (التركى) فتقدم من القلب كالأمر الذى صدر اليه ولكن أوقفته نيران الآلاى الخامس المصرى ثم هاجمة من الجنب الآلاى ١٢ المصرى فى تشكيل مدرج من الميمنة . ولم يفعل شيئا لمقاومة الهجوم المصرى .

ويسدل الليل ستاره . وتحت ظلام الليل يمتطى محمد باشا جواده قاصدا مدينة حمص ، وبدأ كل قائد يبحث عن وسيلة لينقذ نفسه ، واقتدى الضباط بقادتهم ، ثم بدت الفوضى والهزيمة والذعر ، حين تأتى دور الجند فى ترك صفوفهم وولوا الأدبار مدحورين .

ولقد خال المصريون أن الأتراك — بعد لم شعثهم فى الليل — سيعاودون القتال ، إذ كانت قلعة حمص تحمى ظهورهم . ومرت لحظات توقع المصريون أن يعاود الترك الكرة ويستأنفوا القتال ، ولكن شيئا من هذا لم يقع ! ولم يفكر الترك فى معاودة القتال . فتقدم ابراهيم باشا بحذر على رأس جيشه الظافر محتلا المواقع التى أخلاها الترك . وأعاد تنظيم قواتها وصفها على شكل مربع ووضع المدافع زواياه الأربع . فازداد مركزه منعة بينما كان الأتراك يمعنون فى الانسحاب مكسورين . وبادر ابراهيم باشا فأرسل الى أبيه ينبئه بهذا النصر الكبير الذى عرف عند المصريين بيوم هزيمة الباشوات .

وكانت خسائر الترك فى معركة حمص جد جسيمة — ٢٠٠٠ قتلى و٢٥٠٠ أسرى واستولى المصريون على عشرين من مدافعه علاوة على ذخائره وعتاده . أما خسائر المصريين فلم تزد عن ١٠٢ من القتلى و ١٦٢ من الجرحى .

وفى اليوم التالى دخل المصريون حمص (٩ يوليو) بينما كان الترك يعدون صوب حلب وأنطاكية . وغلب خيالتهم النظامية على أمرهم فاستولى غير النظاميين على جيادهم يمتطونها ! .

نقد عمليات الجيشين

يجد المعلق الناقد لحركات الجيش التركى مادة مستفيضة من الأخطاء التى اجترحتها القيادة . فبعد أن قررت الخروج من حمص لقبول المعركة صفت قواتها فى خطوط متقاربة بدون عمق كاف . فضلا عن عدم تفكيرها بوضع احتياط ينتفع به فى الوقت المناسب للقيام بهجوم مضاد . فقد كان صفه الثالث هزيلا (راجع الأوضاع السابقة) وكان تشكيل أوضاعه خطيا (formation lineaire) فلم يك قادرا على القيام بحركة مناورة لها تأثير ناجح على سير المعركة ، ولم تنتفع بطبيعة الأرض إلا من ناحية الميمنة (نهر الأورنت والقناة) ومع ذلك فقد كوم محمد باشا فى هذه الجهة معظم قواته ، وترك ميسرة جيشه فى الهواء لا تعتمد على قوات أو موانع . كما أنه لم ينتفع بالحدائق أو التخوم التى تحيط بجنوب حمص وتركها والضيعة المهدمة لعدوه الذى انتفع بها تماما .

ولم يعرف كيف يوجه مدفعيته فى نيران متجمعة على وحدات المصريين ، بل نثر توزيعها على أهداف كثيرة .

وبالاختصار كانت أوضاع الأتراك وتوزيع قواتهم لا يسمح بأى نجاح سواء فى حالة الدفاع أو فى حالة الهجوم المضاد . فقد أهملوا المبادئ الرئيسية للقتال الناجح .

أما فيما يختص بحـركات المعركة من الجانب المصرى فقـد كانت كل دقائق الخطة محبوكة من الطرفين واتسمت كل حركة بالنشاط والبراعة فى تنفيذها . فقد نظر ابراهيم جليا الى نوع المناورة التى يعملها مهتديا بطبيعة الأرض وبتوزيع قوات خصمه وموقفه — فكانت الأوضاع التى اتخذها فى توزيع قواته متفقة كل الاتفاق مع التكتيك المثالى وطاقته التى يستطيع بها تنفيذ الحركة من تقـدم أو هجوم جانبى أو جبهى أو تقهقر (وهذا لم يفكر فيه أبدا) وكانت وحداته موزعة فى عمق كاف يسمح له بالسيطرة على تنفيذ الحركات وفقا لمـا يبتغى . وأحسن تعبير لبراعة مناورة ابراهيم نجده فى عبارة المـارشال فيجان فى كتابه المعروف .

"La manouvre etait en germe dans le dispositif initial de son armée".

وكانت حركة الالتفاف حول جنب القوات التركية رائعـة كما أسلفنا محبوكة فى تفاصيلها ومجمـوعها . كذلك كان هجومه على ميسرة الترك . وكان اسـتخدام المدفعية يسـير حسب خطة موضوعة لا هبـاء ولا ارتجالا ، وهى قواعد المدرسـة الحربية الحديثة التى وضع أسسها نابليون ، وفهمها سليمان بك ، وهضمها إبراهيم ، فعرف كيف ينتفع بها . هى الأسس التى أهمها مرونة الخطة ، والقدرة على تنفيذها والسرعة فى إنجازها ، وأثر المفاجأة الذى ستحدثه على العدو .

ففى معركة حمص تقابل وجها لوجه للمرة الأولى جيشين شرقيين ، أسلحتهما واحدة ، وأسلوب حربهما متقنـة . فكان النصر من نصيب الجانب الذى تفوق فى تنظيمه ونظامه فى القتال وروح قيادته العليا ، وفى هذه المعركة هدم الجمود أمام الحركة والسرعة .

أجل . فى معركة حمص بانت روح القيادة المنظمة التى تسود الجيش المصرى ومحى الجنود المصريون هزيمتهم ، أو بعبارة أوضح هزيمة أسلافهم التى لحقت بهم فى عام ١٥١٧ (معركة مرج دابق) حينما اعتدى السلطان سليم على استقلال مصر وهزم سلطانها الغورى .

وفى التقرير الذى رفعه ابراهيم لأبيه عن المعركة ، قال عن العدو :

” لم أر فى حياتى هزيمة كهزيمة العدو . فانى لا أغالى إذا قلت انه لو زحف على مئتا ألف أو ثلاثمائة ألف من عساكره لما نبض لى بسببهم نبض أو اكترثت بهم ، ونحن بمشيئة الله ظافرون بأولئك العساكر أينما وجدوا . وقد أرسلنا الأسرى الى عكا وأمرنا ديوان أفندى بأن يقبل فى التقاعد كل من يريد تسجيل اسمه فيه ويرسل من يرغب فى العودة الى وطنه اليه فى مصر أو غيرها . وقد بلغ عدد القتلى منا ١٠٢ والجرحى ١٦٢ وخسرنا ١٧٢ جوادا .

معركة بيلان

الجولة الثالثة

قضى إبراهيم وجنوده ليلتهم فى المواقع التى كانت تحتلها بالأمس جنود الترك ، وفى تاسع يوليو دخل حمص على رأس شجعانه ، وقصد بهم إلى حلب . فبلغ حماه فى عاشره وكان رجاله يلتقطون الأسرى وقد ارتضى معظمهم الاندماج تحت رايته . هذا فضلا عن المدافع والعتاد . وفى حماه عثر على خيرات الطعام الوفيرة التى كدستها القيادة العثمانيــة ، لأنهم رأوا جعل حماه قاعدة لعملياتهم ، وقــد سارع إبراهيم فى مطاردته العدو ليحرمه من التجمع وإعادة ترتيب صفوفه ، فكان يسير بقواته فى الساعات الأولى من النهار ومن ثم يمنحهم الراحة . وقد تقدموا سراعا فاحتلوا ماهنيكه يوم ١١ ومعار ونعمان فى يوم ١٢ وتل سلطان يوم ١٣ وزيتان يوم ١٥

وهنا يحسن أن نعرض أعمال السردار حسين باشا مذ تركناه بعد إصدار أوامره لقائده محمد باشا . فإنه تقدم على رأس قسم من الجيش بين اسكندرونه وإنطاكية . كان من بينه ٨٠٠ خيال و ٧٠٠ جمل تحمل الذخيرة ميمما صوب حمص . وكان يظن أنه سيسبق إبراهيم ويملى عليه المعركة فالتقى فى طريقه بفلول جيش محمد على باشا وعرف نبأ هزيمة حمص . وعلى ذلك ارتد إلى حلب ليتخذها قاعدة حربيــة .

وطلب حسين من أعيانها أن يمدوه بالمؤونة والرجال ولكن كان أهلها قد بغضوا الحكم التركى وأشفقوا على مدينتهم أن يحل بها الخراب ، فأبوا أن يدخل أحد من جنوده إلى مدينتهم ، ولم يسمحوا إلا للجنود الجرحى والمرضى بالدخول ، ثم أغلقوا أبوابها ...

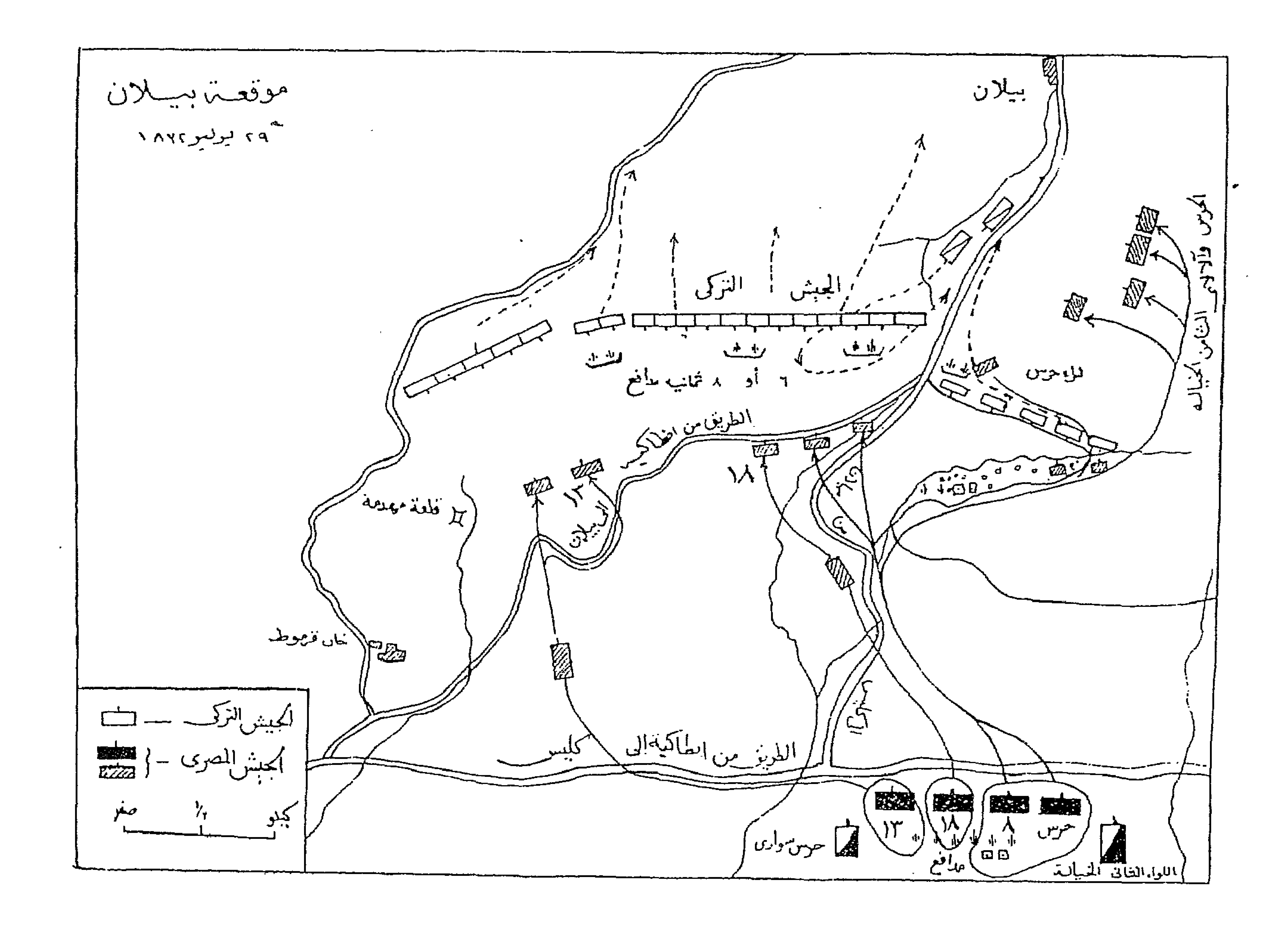
أحتفظ حسين باشا بالهدوء وقال مداعبا الذين حوله . إن جوادى لا أستطيع إرغامه على شرب الماء . فقد صمم على أن يرتوى من ماء النيل ...

وقبالة عناد الحلبيين اضطر السردار إلى مبارحة مدينتهم يوم ١٤ يوليو قاصدا اسكندرونة حيث كان يرسو الأسطول العثمانى ، فأصبح تحت عاملين ، هل يعود إلى بيلان (جنوبى اسكندرونة) أم ينطلق نحو الشمال ويحصن نفسه بالقرب من مضيق طوروس المفتاح الشمالى . وأخيرا قرر قراره على اتخاذ مكان حصين لدى مضيق بيلان (١) وساعدته طبيعة الأرض على الامتناع بها .

أما إبراهيم فقد وصل حلب يوم ١٧ واضطر للإقامة فيها عدة أيام لتستريح جنوده ، وينفضوا عن أنفسهم متاعب القتال والوباء ، الذى تفشى فى بعض صفوفهم ، نتيجة لما خلفه الأتراك وراءهم . وقد أفاد من بقائه هناك ، بعد أن أوضح للأهالى من جميع الملل أهداف أبيه من قتال الباب العالى . فانضموا إليه بعد أن تبدت نواياه ، وسمعوا خطباء المساجد يخطبون باسم خليفة المسلمين . وفى أثناء إقامته جاءته وفود من أورفا وديار بكر تعلن خضوع المدينتين لحكم محمد على .

---

(١) تقع مدينة بيلان جنوبى الاسكندرونة وشمالى المضيق والجبل المعروفين باسمها . ويصل إليها طريقان طريق من كايس وطريق من أنطاكية . ويقترب الطريقان فى سفح الجبل بحيث يفصل بينهما نحو ٣٠٠٠ متر ثم يلتقيان فى المضيق جنوبى بيلان — فيصبحان طريقا واحدا يصل إلى المدينة (الحركة القومية — للرافعى ج ٣ ص ٢٥٣) .



موقعة بيلان
٢٩ يوليو ١٨٣٢
بيلان
الجيش التركى
٦ أو ٨ ثمانيه مدافع
الطريق من انطاكية
الى بيلان
١٣
١٨
قلعة مهدمة
خان قرموط
الطريق من انطاكية الى كليس
الحرس والآلاي الثامن الخياله
حرس
١٣
١٨
٨
حرس
مدافع
حرس سوارى
اللواء الثانى الخيالة
الجيش التركى
الجيش المصرى
كيلو
½
صفر

وفى ٢٥ يوليو زايل حلب مبتغيا أنطاكية ، وقسم قوّاته إلى شعبتين : احدهما تؤلف من غير النظاميين اتخذوا طريقهم إلى أنطاكية مباشرة وثانيتهما قواته النظامية عبروا مضيق كليس للالتفاف شمال أنطاكية والاستيلاء عليها من الخلف .

وفى يوم ٢٨ وصل إلى قبالة أنطاكية ، وحدثت عدة مناوشات بين البدو وبضع مئين من الترك ، ثم دخل المدينة وكان حسين باشا قد أعلن أنه سيدافع عنها لكنه لم يفعل .

ووقف إبراهيم أمام جبل أمانوس ، وهو من شعاب جبال طوروس أو امتداد لها شاهق العلو ، يرتفع نحو ١,٨٠٠ متر ، يجتازه مضيق بيلان الذى يصل بين سهلى أنطاكية وخليج اسكندرونة ، أو يفصل بين سوريا وكيليكيا ، وهو الممر الذى اجتازه جميع من قادة العالم العسكريين لفتح الشرق ، من مصريين وآشوريين وفرس وأغريق ورومان وعرب وفرنج وترك وسواهم . واليوم يدنو منه قائدنا إبراهيم ليجتازه وليس عليه ذلك بعسير . هذا اليوم هو صباح ٢٩ يوليه .

مواقع الجيش التركى الدفاعية :

كان الجيش التركى مؤلفا من نحو ٤٥٠٠٠ من المقاتلين ، من جميع الأسلحة ، و ١٦٠ مدفعا بقيادة حسين باشا ، يرابط فى مواقع منيعة — اتخذ مواقعه على قمم جبال بيلان . فاحتشد المشاة وتؤلف من خمس أورط فوق هضبة ، يصل طرفه الأيمن (ميمنة الجيش) إلى طريق وعر يخترق جبال أمانوس آتيا من خان قرموط إلى بيلان ، وطرفه الأيسر (حيث القلب) إلى الطريق الوسط الواصل فى أنطاكية إلى بيلان ويؤلف من ١٤ أورط مشاة . أما ميسرة الجيش (٥ أورط) فكانت ترابط على امتداد ذلك الخط فيما يلى هذا الطريق ، تعاونها بعض المدافع الموضوعة على أكمة قريب من الطريق . وأقام الترك أمام صفوف المشاة بعض الموانع والبلانقات وزعوا خلالها المدافع . وفى واد ضيق يقطع الطريق جنوبى بيلان كان آلايان من خيالتهم .

وكانت مؤخرة الترك المؤلفة معظمها من المشاة موزعة فى خط واحد على قمة أمانوس ، وهكذا ترى من أول نظرة أن حسين باشا لم يك موفقا فى وضع خطة دفاعه . فقد اتبع الأسلوب الخطى فى توزيع قواته وأهمل العمق ، الذى يسهل عليه القيام بالمناورة ، على مقياس كبير .

خطة الجيش المصرى :

عسكر الجيش المصرى فى السهل المنبسط ، تحت مضيق بيلان ، غربى الطريق المواصل من كليس وأنطاكية ، واتخذ المشاة مواقعهم فى الصفوف الأمامية ، وخلفهم الخيالة والمدفعية فى الوسط ، وخلف هذه الصفوف مهمات الجيش وعتاده .

كشف إبراهيم باشا مواقع الترك على جبل بيلان ، فوجدها منيعة ، يصعب على قواته أن تنال منها فوزا . وفى مساء يوم ٢٨ جمع مجلسا من ضباطه لوضع قرارهم النهائى فى الخطة التى ستنفذ . فرأى بعضهم تأجيل الهجوم على المضيق إلى بعد الغد ، ورأى الآخرون القيام بهجومهم يوم الغد ليحرموا العدو من تعزيز مراكزه أو وصول إمدادات إليه من اسكندرونة .

ومن محاسن الصدف ، أن يقع المستشار الفنى لحسين باشا فى قبضة ابراهيم ، وهو الكابتن الفرنسى (Thévenin) بعد الاستيلاء على حلب ، فحرم الأتراك من معاونته . وينتهى قرار المجلس إلى الأخذ بخطة الهجوم ، فى اليوم التالى (صباح يوم ٢٩ يوليو) ، والقيام بحركة التفاف حول ميسرة الترك من الجنب ، تمهيدا للإحاطة بها ، تم احتلال بعض المرتفعات المتسلطة على القلب . ويجعل مشاة الأتراك هدفا لنيران المدافع المصرية ، وفى الوقت نفسه يرسل جزءا من قواته للإحاطة بميمنة الأتراك — وكانت خطته صورة لما اتبعه فى معركة حمص — وكانت خطة الالتفاف تتطلب القوات الآتية :

٤ آلايات مشـاة
٣ آلايات خيـالة
٤ بطاريات مدفعية ميدان (وفى مصدر آخر ٢)
٢ مدفـع أبوس

وأخذ ابراهيم باشا على كاهله قيادة هـذه الوحدات ، لأهمية دورها المطلوب تنفيـــذه .

وأمر أمير الآلاى حسن بك المناسترلى بالاســتعداد للهجوم المباشر على قلب وميمنة الأتراك والتقدم عن طريق بيلان أنطاكية، على رأس الآلاى ١٣ وبطارية مدفعية — فتقدم إلى الطريق واحتل المـوقع المطلوب بينما تبعه الآلاى الخيـالة الخامس كقوة احتياطية له فى هجومه على ميمنة الجيش التركى .

أما اللواء الثانى الخيالة ، والآلاى السادس الرماحين المدرعين ، فطلب منهم العمل بين القوتين الآنفتين، ومساعدة إحداهمـا لدى الضرورة ، بينما يكون الآلاى ١٨ المشاة وبطارية ميدان فى الاحتياط .

المعركـة :

ولمـا شاهدت القيادة التركية تقدم الشعبتين (القولين) المصريتين حتى أمرت بفتح النيران الشـديدة على طريق تقدمهما فغمرتهما القذائف بعنف . وفى الحال ردت عليها مدفعية البطاريتين المصرية التى فى القول اليمين بنيران محكمة الغاية وشديدة التأثير — وفتحت فصيلتان من القناصة تشكيلها بسرعة (من الحرس) واخترقت غابة صـغيرة وأقحمت الجبهة برصاصها السريع . وبعـد قليل التحق بالفصيلتين أورطة من الحرس ومعهما أبوسين واستمروا فى هجومهم الموفق ونجحوا فى إسكات الميسرة التركية ، واستمر وصـول بقية آلاى حرس بسرعة مع أفراد الآلاى السابق فى أمواج تدريجية متتالية . وفى نفس الوقت كان الهجوم الجبهى بقيادة المناسترلى

سائرا على ما يرام ونجحت البطارية التى تحت قيادته فى إنزال الخسائر الجسيمة بالأتراك . وهنا انحرف الآلاى ١٣ المشاة إلى غرب الطريق (انطاكية) وهاجم ميمنة العدو . وأخذ الآلاى ١٨ مكانه فى الهجوم الخفيف ضد قوات القلب .

وفى اللحظة التى انتهى فيها آلاى الحرس من تحقيق أهدافه الأولى ، تهيأ للالتفاف بميسرة العدو فلم ينتظر حسين باشا اللطمة التى كانت مسددة نحوه — وعمل على التقهقر السريع نحو بيلان . وانتهز الفرصة بالقناصة المصريين فهجم على بطارية تركية (٦ مدافع) كانت قد تركت وحدها بدون المشاة تحرسها وصعد جنودهما اليها على أكمة تطل عليها وأسكتوها . وحاولت الآلايات الخيالة التركية القيام بحركة تقدم إلى الأمام فصدتها نيران الحرس ، الشيء الذى جعلها تسرع نحو بيلان بغير نظام وقد تبددت جموعهم .

وهكذا أخلى الطريق إلى بيلان من قوات الأعداء ...

و بعد أن ارتدت ميسرة الترك ، وصل المصريون فى تقدمهم إلى طريق بيلان نفسه ، وتحرج مركز قلب الجيش التركى ، وأدركت قيادته أن خط الرجعة الى بيلان أصبح مقطوعا بوصول المصريين إلى الطريق . فلاذ العدو بالفرار ، وتخلى عما بقى له من المواقع ، وتشتتت وحداته فى الجبال .

وكان الآلاى الثالث عشر قد قام بمهمته خير قيام ضد ميمنة الترك ، ووصل رماتهم ومعهم مدفعيتهم إلى أكمة قريبة من أقصى الميمنة . ولما رأى العدو ما حل بالميسرة ، تخلوا أيضا عن مركزهم وتقهقروا نحو الجبال .

و باستيلاء المصريين على مواقع الأتراك انتهت معركة بيلان بهزيمة تامة ، بعد قتال عنيف دام نحو ثلاث ساعات ، قتل فيه ٢٥٠٠ تركى وجرح وأسر منهم نحو ألفين ، وغنم المصريون حوالى ٢٥ مدفعا وكثيرا من الذخيرة والعتاد . ولم تتجاوز خسائر المصريين ٢٠ قتيلا .

وهكذا فاز ابراهيم بالنصر، لأن تنفيذه للخطة كان دقيقا ورائعا . وأعاد حسين باشا السردار أمام بيلان موقف سلفه القائد محمد باشا قبالة حمص .

وكان نشاط ابراهيم فى المعـركة ، التى قام بأظهر دور فيها ، باديا فى كل حركة من حركات الجند والضباط ، فاستحق ثناء والده و إعجاب مواطنيه .

* * *

قضى الجيش المصرى ليلة ٢٩ يوليو فى مواقع الأتراك ما عدا أورطتين أمرتا بدخول بيلان وانفصـل منهما بلوكان وفصيلة خيالة مدرّعة لاستكشاف الطريق إلى اسكندرونة .

وفى يوم ٣٠ يوليو احتل ابراهيم باشا بيلان . أما الخيالة فقد سلكت طريق اسكندرونة بقيادة عباس باشا حلمى . حيث عثروا على كميات مكدسة من الغنائم و ١٤ مدفعا وأصناف التعيين التى تكفى الجنود أربعة أشهر .

وقـد تردّد حسين باشا فى تدميرها . وكان وصـول فلوله إلى اسكندرونه ، بعد قيام سفن الأسطول العثمانى بدقائق .

احتل ابراهيم ميناء اسكندرونة، واندفعت الخيالة الى باياس آسرة نحو ١٤٠٠ تركى وسلمت له انطاكية واللاذقية والسويدية . أما حسين فقـد أسرع نحو ادنه بعد اجتياز مضيق طوروس على رأس شراذم لا يفخر أى قائد فى الدنيا أن يكونوا جنـوده .

وعقب راحة قصيرة الأجل ، احتل جنود ابراهيم ادنه وطوروس ، وكانت الأولى مفتاح الزحف على الأناضول . و بعد أيام كان العلم المصرى يخفق على أورفا وعينتاب ومرعش وقيصرية .

و بعد هذا النصر، فأى الطرق السياسية يسلكها محمد على ! ؟

من الواضح أنه كان قبالته طريقان : فإما أن يعلن الاستقلال و يأمر ابنه أن يستمر فى الزحف للقضاء على جيوش السلطان الهاربة فيضطر الخصم إلى التسليم والاعتراف بالأمر الواقع ، أو أن يأمر ابنــه بالوقوف أملا أن ينال هدنة عن طريق تدخل الدول . ولم يخل أحد الطريقين من أخطار .

وستبين لنا مسيرة الحوادث ما سيكون بعد معركة بيلان .

احتل ابراهيم باشا طورسوس ، ثم دخل أدنة فى ٣١ يوليو سنة ١٨٣٢ ، وفيها تلقى القائد من والده أمرا بالوقوف ، فقد بلغ الغاية التى كان يسعى إليها ، أى الوصول آخر حدود البلدان العربية . ولكنه أرســل آلايين إلى أورفة وقــوة من فرسان العرب لمراقبــة الطريق من أرضروم وســيواس وديار بكر فاحتلت القوة مرعش كما أرســل قوة إلى نهر الفرات لحمــاية جناحه الأيمن وبقى إبراهيم فى خطة الدفاع منتظرا أوامر أبيه إلى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢

موقف انجلترا من نجاح إبراهيم :

وإلى هنا كانت الســياسة الإنجليزية أمام النجاح المصرى غامضــة . أمامها سبيلان أولهما أن تدع محمد على يؤسس دولة عربية قوية لصد التيار السلافى الروسى ، والسبيل الثانى أن تحتفظ بتركيا وتقويها لتظل هى الحاجز بينما تهــدم الامبراطورية المصرية الناشئة ، لأنها إذا عاشت أصبحت حاجزا قويا على طريق الهند .

فأى السبيلين تتجه إليــه سياسة الإنجليز ؟ لقــد فضلوا الوقوف فى منتصف الطريق فلا تقاوم محمدا عليا ولا تظاهر السلطان خوفا من روســيا . أما سياســة إبراهيم فهى أخذ الأمور بالقوة و إيقاف الدول أمام الأمر الواقع .

لذلك كان يســتأذن والده بالزحف على قونيــة ، ثم الآستانة ، ويرجوه فى أن يحمــل خطباء المساجد على إلقاء الخطبة باسمه . فكتب محمد على إلى ابنه فى الثامن من شهر سبتمبر يقول :

” تقول لى فى كتابك أنك تريد أن تمسك المعدن وهو حام . و إنك تريد أن يخطب باسمى فى جميع المساجد والمعابد — فاعلم يا ولدى أنا لم نصل إلى مركزنا الذى نشغله الآن إلا بقوة الوداعة وخفض الجانب فإنه يكفينى أن أحمل اسم (محمد على) خالصا من كل رتبة وزينة فهو أكبر لى من جميع ألقاب السلطنة والملك لأن هذا الاسم وحده هو الذى خولنى الشرف الذى يجللنى الآن . فكيف أستطيع ياولدى أن أتركه إلى سواه — لا ياولدى إنى أحفظ اسمى (محمد على) وأنت ياابنى تحفظ اسمك (إبراهيم) وكفى وعليك رحمة الله و بركاته “ .

أما فرنسا فقد أبلغت الباب العالى أن إصراره على القتال لا يوصله إلى نتيجة لضعف قوته دون قوة محمد على التى تتزايد بحرا و برا .

معـــركة قونيـــة

الجـــولة الرابعـــة

الجيش العثمانى :

أين قادة الترك ؟ لقد دحرهم إبراهيم الواحد تلو الآخر . ولم يتبق لدى السلطان محمود إلا القائد رشيد باشا ، رمين إبراهيم فى حرب المورة ، وزعيم حرب العصابات... ولكن أين الجيش الذى سيوليه قيادته ، بعد أن افتقد جنوده فى فيافى الأناضول !

نادى السلطان وزيره الكبير رشيد باشا ، بطل ميسولونجى وأثينا ، وقاهر ثورة أشقودرة ، فلبى القائد النداء . ومضى إلى الآستانة ليضع حياته فى خدمة السلطان . وليعد التدابير لجيشه الجديد . وفى أخريات أكتوبر انتظم الجيش الثانى فى أربعة أقسام : أولها مؤلف من ٢٠,٠٠٠ من النظاميين والألبانيين يحتشد فى أشقودرة حيث كانت الرئاسة العليا للجيش ومقر الوزير ، والقسم الثانى مكون من ٢٠,٠٠٠ فى أرضروم واحتشدوا بين سيواس وقيصرية بقيادة عثمان باشا والى طرابزون ومعه عثمان آخر ، والقسم الثالث بقيادة سليمان باشا تعداده حوالى ١٠,٠٠٠ يعدّ حشده فى منطقة طوروس على ميسرة إبراهيم باشا لستر "صاتاليا" ، أما القسم الرابع من الجيش التركى فقد تألف من أنقاض جيش حسين باشا وعدده يتراوح بين ٢٠ و٣٠ ألف يتجمع لدى قونية بقيادة رءوف باشا .

بلغ الجيش العثمانى فى مجموعة ٨٠,٠٠٠ أى ثلاثة أمثال جيش إبراهيم ، ولكن هذا التفوق العددى لم يك كل شىء ، فكانت تنقصه قوة الالتحام ، وكان كل قسم منه يختلف عن الآخر فى الكفاءة والتدريب والنظام والقيادة والتنظيم العسكرى أيضا . أما السلطان فلم يدّخر وسعا لبث الحماسة فى جنوده الذين يتوقف عليهم كيان دولته . وتوسل إلى ذلك بشتى السبل ، من طوابير العرض إلى مقابلة الضباط والتوسع فى إقامة الولائم للجند وتوزيع النياشين على الضباط إلى منح الرتب

المتعددة وكسوات التشريفة والخلع الثمينة والسيوف . وكان يداوم على حضور الصلوات مع أفراد جيشه .

ولما ودّع السلطان جيشه قال لرشيد باشا — وقد منحه ولاية مصر والحجاز وكريت وحلب وما إليها — " انقذ الدولة فإن شكرى لك ولعساكرك إذا أنت فعلت لا يكون له حدّ " .

الجيش المصرى :

وكان عدد الجيش المصرى فى الشام بعد وصول الإمدادات إليه من مصر — والأسرى الذين بدأ ينظمهم مع السوريين المجندين يتألف من :

١٠ آلايات مشاة .

١٢ آلايات فرسان .

مدفعيــة .

٥٠٠٠ وحدات مساعدة .

٢٠٠٠ بــدو .

وصل مجموعها إلى ٥٠,٠٠٠ مقاتل تقريبا .

مثل هـذا الجيش ، كان من الناحية الإدارية ، أفضل تنسيقا ، من الجيش الآخر . ولا غرو فقد كان أرقى الجيوش كلها ، التى أنشأها محمد على . وفى الواقع ، كان هذا الجيش موضع فخار مصر ، واعتزاز محمد على وإبراهيم وسليمان بك ، بل ومحل عنايتهم الأولى .

ومن بين الوحدات المذكورة قوات كبيرة تعمل على خطوط المواصلات ، أو موزعة فى الحاميات الرئيسية وتبلغ هذه حوالى النصف . ولذلك يتسنى القول بأن ٢٧,٠٠٠ مقاتل فحسب ، هى التى تحت قيادة إبراهيم باشا ، فى عمليات الميدان . يقابلها ٨٠,٠٠٠ تحت قيادة رشيد باشا[١] هم خليط من أجناس الامبراطورية العثمانية .

(١) فى إحصاء كادلفين ٥٣,٠٠٠ مقاتل — ص ٢٩٥ .

وبناء على المعلومات التى كانت تصل إلى إبراهيم عن تجمعات الجيش التركى ، طلب إلى أبيه أن يوافقه على اجتياز طوروس ، ليقضى على تجمعات الأتراك أولا بأول ، قبـل تكامل استعدادها . ولأنه كان يخشى حلول زمهرير شتاء هضاب الأناضول . وتمر الأيام والمواسلات متصلة بين قائد الجيش ورئيس الدولة (محمد على) أولها يتكلم بلهجة الجندى ، وثانيهما بلهجة السياسى ، وتتعارض آراؤهما . ويجهر إبراهيم على انتهاج خطة الدفاع ، بينما تجمعت قواته فى منطقة أدنة — طوروس بين خليج اسكندرونة وكليكيا . ثم تصل إبراهيم أنباء وثيقة بأن الفصائل التركية قد استحوذت على مضيق طوروس ، وهو الممر الذى يصـل بين أدنة وقونية ، وأن هـذه الفصائل بدأت تناوش نقطه الأمامية ، ممـا دعا إبراهيم إلى التصميم للاستيلاء على المضيق بدون انتظار أوامر عالية ، ليتحكم فى نقطه الأمامية ومخافره القوية . وكان لابدّ له أن يستولى على هرقله (اركلى) وقد دخلها فى يوم ١٥ أكتوبر .

وكان هناك طريقان يفضيان من أدنة إلى اركلى عبر طوروس ، أحدهما عن سبيل منارة خان وشفت خان وأولان كيشلى وشابان ، والآخر عن سبيل طورسوس ونمرود وشاكال وزانبيا .

وأصدر إبراهيم أمره إلى قواته غير النظامية والبـدو باتباع الطريق الأيمن ، للهجوم على شفت خان ، بينما يقتاد نفسه قوة مختلطة مؤلفة من آلاى خيالة وآلاى مشاة وبطارية مدفعية ويتبع الطريق الأيسر ليهاجم نمرود .

وفى ١٨ أكتوبر ، وصل إلى نمرود بدون قتال ، وفى اليوم التالى بلغ قول اليمين طوروس ، ثم اجتازت مقدّمته مضيق كولك بوغاز . ولمـا عبر وادى شفت خان اعترض التقـدّم المصرى قوة تركية فتسدّ الطريق فى وجههم واستولت أخرى على بعض المرتفعات الهامة . وقبالة هـذه الحركة الناجحة أمر القائد المصرى سليم بك الحجازى بفتح نيران شـديدة كما أمر خيالته باقتحام صفوف الترك فتبعثرها وتقتل منهم ٢٠٠ وتأسر ٣٠٠ ويستمر سليم بك فى المطاردة ، لكن تصله المعلومات بمقاومة

منظمة بيديها الأتراك فيزيلها بعد قتال شاق ويواصل المطاردة عبر طريق اركلى (هرقله) . ويقضى الجنود ليلتهم فى أولان كيشلى وقد أنهكتهم أعمال القتال خلال اليوم .

وفى يوم ٢٣ أكتوبر، بعدما وصلت أنباء القتال بالتفصيل إلى إبراهيم، بارح نمرود وتقدم إلى الأمام لعبر طوروس ويصل إلى زانيب .

وفى ٢٥ أكتوبر احتل اركلى، التى أخلاها الترك لدى اقتراب المصريين، وقد ابتهج السكان لمقدمهم . ثم استراح فى هذه المدينة ثلاثة أسابيع، فى انتظار موافقة أبيه على التقدم فى قلب الأناضول . ومثل هذه الفترة لم يبددها سدى، فقد حشد قواته التى كان معظمها يستجم فى جنوب طوروس .

وفى ١١ نوفمبر كان الحشد قد تم .

فى ذاك الوقت، كانت الاتصالات السياسية مستمرة بين الدول الأوروبية والباب العالى من ناحية، وبينها وبين محمد على من ناحية أخرى . وفى خلال ذلك كان إبراهيم يتبادل الرأى مع أبيه بوساطة الرسل أو عن طريق المكاتبات . وقد رأى القائد أن يتقدم إلى قونية تمهيدا لوثبة أخرى يهدد بها السلطان . أما الأب السياسى فكان يرى أن يعود من قونية بعد دخولها ويترك النتائج للرأى العام فى الآستانة لعله يؤثر فى موقف السلطان . وفى الرسالة التالية موقف الرجلين، حيث رد إبراهيم على أبيه فى الثالث من نوفمبر يقول :

"يجب علينا حسب أوامرك أن نتقهقر إلى الوراء بعد الاستيلاء على قونية . فالشائع أن الصدر الأعظم يزحف علينا بقوة كبيرة فإذا نحن تقهقرنا عزوا ذلك إلى الجبن والخوف وعلى عجزنا عن مقابلته وفوق هذا كله فإن الصدر الأعظم يغنم الفرصة للزحف على قونية . وقد يتجاوزها للحاق بنا مذيعا خبر تقهقرنا ومن يدرى ما يكون من وراء ذلك فقد ينضم إليه الشعب . وقد تثور سورية والأناضول علينا ويظل الغرض من تقهقرنا خفيا لا يفهم . وبناء على ما تقدم لا ينبغى لنا أن ندع الفرصة

تفوتنا فنحن نذهب إلى قونية ونشتت العدو ، وننتظر فيها وصول الصدر الأعظم لنقهره إذا أراد مهاجمتنا لذلك أطلب منــه يا والدى أن ترسـل آلايين من المدد فى الحـال .

ثم تلقى إبراهيم من والده فى الثالث عشر من نوفمبر الأمر بألا يتجـاوز قونية ، نظرا لأن التقدم إلى ما ورائها ، فى الظروف الراهنة ، لا تنظر إليه الدول بعين الرضا .

وفى ١٦ نوفمبر ، أجاب محمد على على كتاب إبراهيم الذى كان قد أرسله إليـه فى الثالث من نوفمبر فأقره على رأيه . بيد أنه نبه عليه ألا يتجاوز قونية ، لأنه لا يعرف بوجه قاطع رأى الدول .

الى قونيـــــة

كان قبالة إبراهيم باشا طريقان يفضيان إلى قونية من اركلى ، أحدهما فى اليمين يمر بالمدن : كيجيد — وكارابونار — وكاتانية — وايزميل — وقارخان ، وثانيهما فى اليسار يمر بكارامان — وكاسابا — وشـوميرة . وقد أمرت القوات النظامية باتباع الطريق الأول ، والقوات غير النظامية الطريق الثانى .

وفيما يلى أمر التحرك الذى أصدره إبراهيم لقواته النظامية :

يتحرك الجيش بالنظام التالى :

تسير المشاة فى قولين :

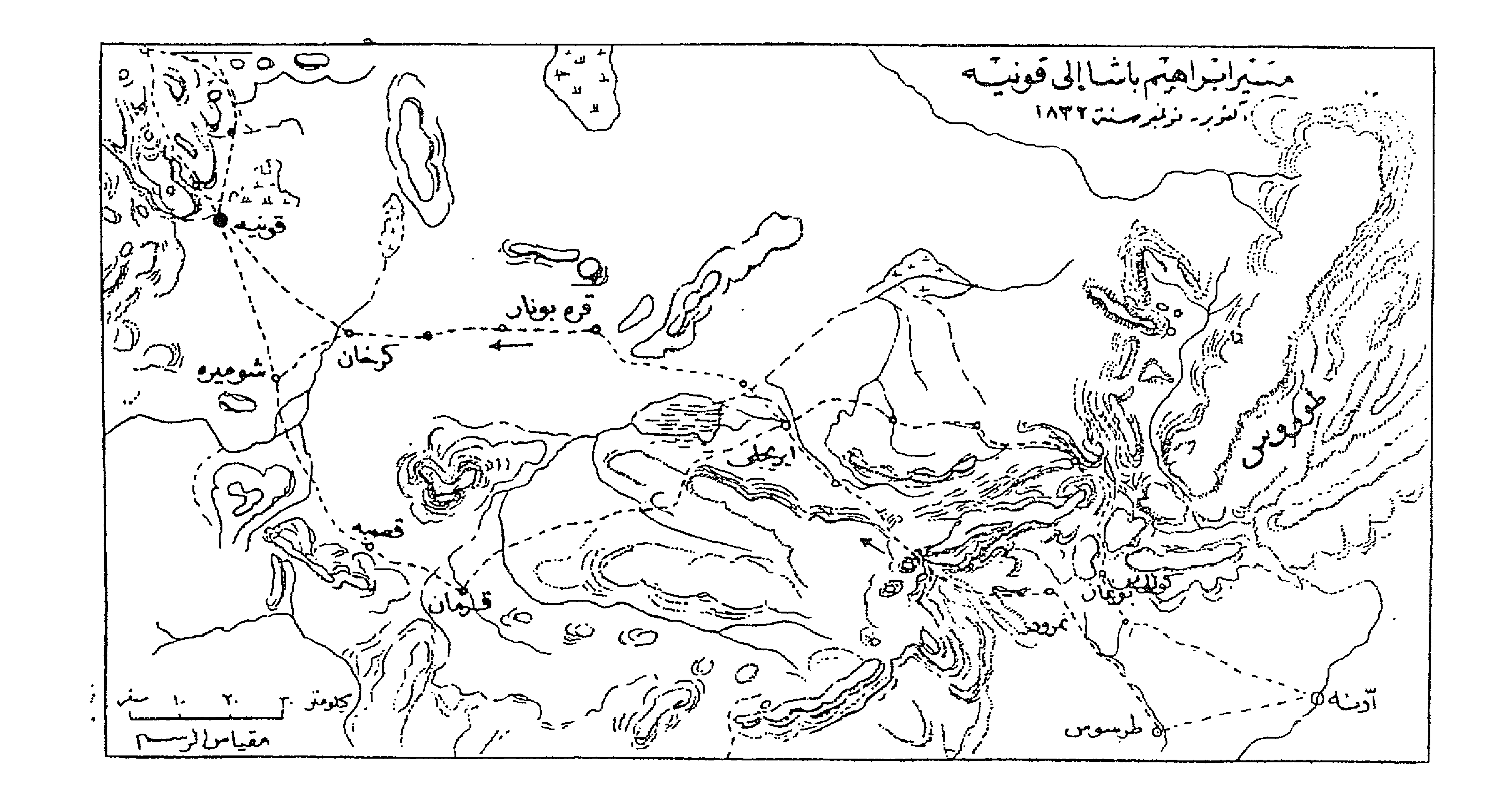
قول اليمين مؤلف من الحرس والآلاى ١٤

وقول اليسار من الآلاى ١٣ و ١٨

على أن لا يبتعـد القولان عن بعضهما إلا بمقـدار ما يسمح به تشكيل الفتح فى صفين :

الحرس والآلاى ٣ فى الصف الأول .

والآلاى ١٤ و ١٨ فى الصف الثانى .



مسير ابراهيم باشا الى قونيه
اكتوبر - نوفمبر سنة ١٨٣٢
قونيه
قره بونار
كرخان
شوميره
قصبه
قرمان
اريكلي
طوروس
كولك بوغاز
آدنه
طرسوس
كلومتر ٣٠ ٢٠ ١٠ صفر
مقياس الرسم

والمدفعية فى تشكيل القطار أو بالأصناف كما يسمح الطريق .

توضع مدفعية فى رأس القول على مسيرة الآلايين ١٤ و ١٨

يسير اللواء الخيالة الثانى فى المقدّمة على قولين — الآلاى الثانى فى طليعة الحرس والآلاى الرابع فى طليعته الآلاى ١٣ المشاة .

أما المهمات فتكون خلف المدفعية بثلاثمائة ياردة بالترتيب الآتى :

مهمات القائد العام ورئيس أركان حربه — متاع المدفعية — فالخيالة فالمشاة ويعمل الترتيب اللازم للمحافظة على المواصلات بين الوحدات .

١٧ نوفمبر :

تحرك الجيش بنظام كامل ، وبدون صعوبة أو مقاومة ، وفى ١٧ نوفمبر غادر قول اليمين كارخان متجها الى شوميرة ليلتق بقول اليسار . وفى هذا اليوم علم ابراهيم أن العدو أخلى قونية فى الليلة السابقة . فلم يبدد وقتا ، ونهض على رأس بعض قواته السريعة والمدفعية قاصدا قونية . فدخلها ليلة ١٧ وفى الصباح اتجه نحو آق شهر فصيلة المطاردة مؤلفة من الخيالة المنظمة والالآى الرابع الخيالة و بطاريتين مدفعية . وتلحق هذه القوة حرس المؤخرة التركى فى ضواحى ايلجون وتنزل به خسائر فادحة وتعود مسرعة الى قونية لتلحق بقوات ابراهيم .

يلق ابراهيم نفسه على مبعدة ٢٢٠ كيلو مترا من حدود بلاده — وهى مسافة طويلة واستطالت خطوط مواصلاته ولا بدّ أن يحتاط لحماية جناحى جيشه — ولذلك أشار فى الحال لأحد قواده محمود بك باحتلال أورفا حيث تؤدى الطرق الى سيواس وأرضروم — مستعينا بالبدو . كما يأمر بحوق ابراهيم (يكن) فى السير على رأس الآلاى المشاة وبطارتين وخيالة غير نظامية من حلب الى مرعش عن طريق عينتاب — ثم يأمر قائده محمد بك أن يذهب على رأس بعض الأورط وبطارية قيصرية (وكان فى هرقلة) . كل هذه العمليات كان الغرض منها نماية

خطوط عملياته ضد جيش عثمان باشا الذى طفق فى الاحتشاد فى أوائل ديسمبر حول منطقة سيواس ثم يأمر عباس باشا حلمى بمغادرة أدنة لرقابة قوات سليمان باشا التركية فى إيطاليا .

واتخذ ابراهيم باشا ضواحى قونية قاعدة عسكرية وأخذ يعدّ قوّاته لقتال الأتراك ويدرّب جنوده على التمرينات فى المواقع ، التى توقع نشوب المعارك فيها . ولئن كان جيشه الذى أصبح تحت يده الآن (بعد التوزيعات المذكورة وحماية خطوط المواصلات) لا يتجاوز عدده ١٨,٠٠٠ مقاتل ، منهم ألف من البدو ، إلا أنه كان يمتاز بحسن النظام ، وكفاية القيادة والتدريب على القتال ، وسمو المعنويات .

كانت وحدات ابراهيم فى موقفه الأخير ، تؤلف على الوجه التالى :

٢٠ أورطة مشاة و ٢٤ بلوك خيالة و ٤٨ مدفعا .

ومما يثير العجب حقا ، أن عدد الجيش المصرى كان ثلث الجيش التركى .

عودة للجيش التركى :

وصل رشيد باشا الى آق شهر ، ونزل فى قديم خان ، على مبعدة تسع ساعات من شمال غربى قونية ، على رأس جيش عدده ٥٤,٠٠٠ موزعين كالآتى :

٥٤ أورطة مشاة .

٢٨ بلوك خيالة .

١٠٠ مدفع .

٢٠٠٠٠ من غير النظاميين .

كان رشيد يتسنى له الافادة من طبيعة الأناضول القاسية ، لاستهواء ابراهيم الى عدّة معارك ، تنهك قواته ، وتؤثر عليه تأثيرا مرهقا ، لكنه كانت تحركه تعليمات الصدر الأعظم خسرو باشا . رجل الدولة فى ذاك العهد . وهو الذى أشار اليه مرارا بالإسراع لمهاجمة قوات ابراهيم والقضاء عليها . ولما طلب أن يرسل اليه

الفين من جنوده فى الاحتياط رفض السلطان رجاء قائده وأبان له أنه يريد الاحتفاظ بهم لحماية الآستانة .

ولم يك على رشيد إلا تلبية أوامر الباب العالى ، فزايل آق شهر ميمما صوب قونية .

١٨ و ١٩ ديسمبر
المصادمات الأولى

وفى يوم ١٨ ديسمبر ، يتعثر قول تركى فى قرية سيلة المنيعة[1] وكان يحتلها ألفا مصرى . فيمدهم ابراهيم بسرعة بآلاى مشاة وأورطة من (الآلاى ١٩) والآلاى الثالث الخيالة وخمسمائة فارس غير نظاميين و بطارية . وكانت النتيجة أن ردت الجنود التركية على أعقابها مدحورة بعد أن أسر منها ٥٠٠ أسير وتركت ثمانية بيارق وخمسة مدافع وكمية وفيرة من العتاد .

وفى اليوم التالى ، هاجم المصريون حامية تركية كانت تحتل دوكز لوخان ، التى تبعد ثلاث ساعات من قونية ، على الطريق المؤدى الى لاديك . وقد كان المهاجمون من الحرس والخيالة (٣ آلايات) وثلاث بطاريات . فلم يضيع الأتراك وقتهم و بادروا فى التسليم وانضموا الى زملائهم أسرى اليوم السابق فى قيصرية . وقد أفادوا بمقدمهم قوات محمد بك .

وفى مساء ٢٠ ديسمبر ، علم ابراهيم باشا أن رشيد غادر لاديك على رأس قواته فى اتجاه قونية لبدء القتال ، بعد أن وزع على جنوده تعيين بقسماط لأربعة أيام ، وشعير لمدة يومين .

وكان رشيد باشا قد أرسل كتابا الى ابراهيم ، يطلب منه الانسحاب من وجه جيوش السلطان ، فرد عليه بخطاب جاء فيه : " لسنا نحن أنت وأنا بمسئولين عن الدماء التى تراق ، ولكن التبعة تقع على الذين أمرونا به ولا سبيل الى مخالفة ما أمروا " .

---

(١) تقع على بعد ثمانية كيلو مترات شمال غربى قونية .

معركة قونيـــة

٢١ ديسمبر ١٨٣٢

كان صباح يوم الجمعة، والضباب يخيم على ميدان القتال، ونزلت درجة البرد الى ١١ سنتجراد ، وحال الطقس دون اكتشاف كل من القـائدين مواقع جيش خصمه ، على أن ابراهيم امتـاز على " رشيد " بأنه درس أرض المنطقة التى ستدور فيها المعركة دراسة دقيقة ، ودرب جنوده عدّة مرات على مناورات القتال مدّة كافية .

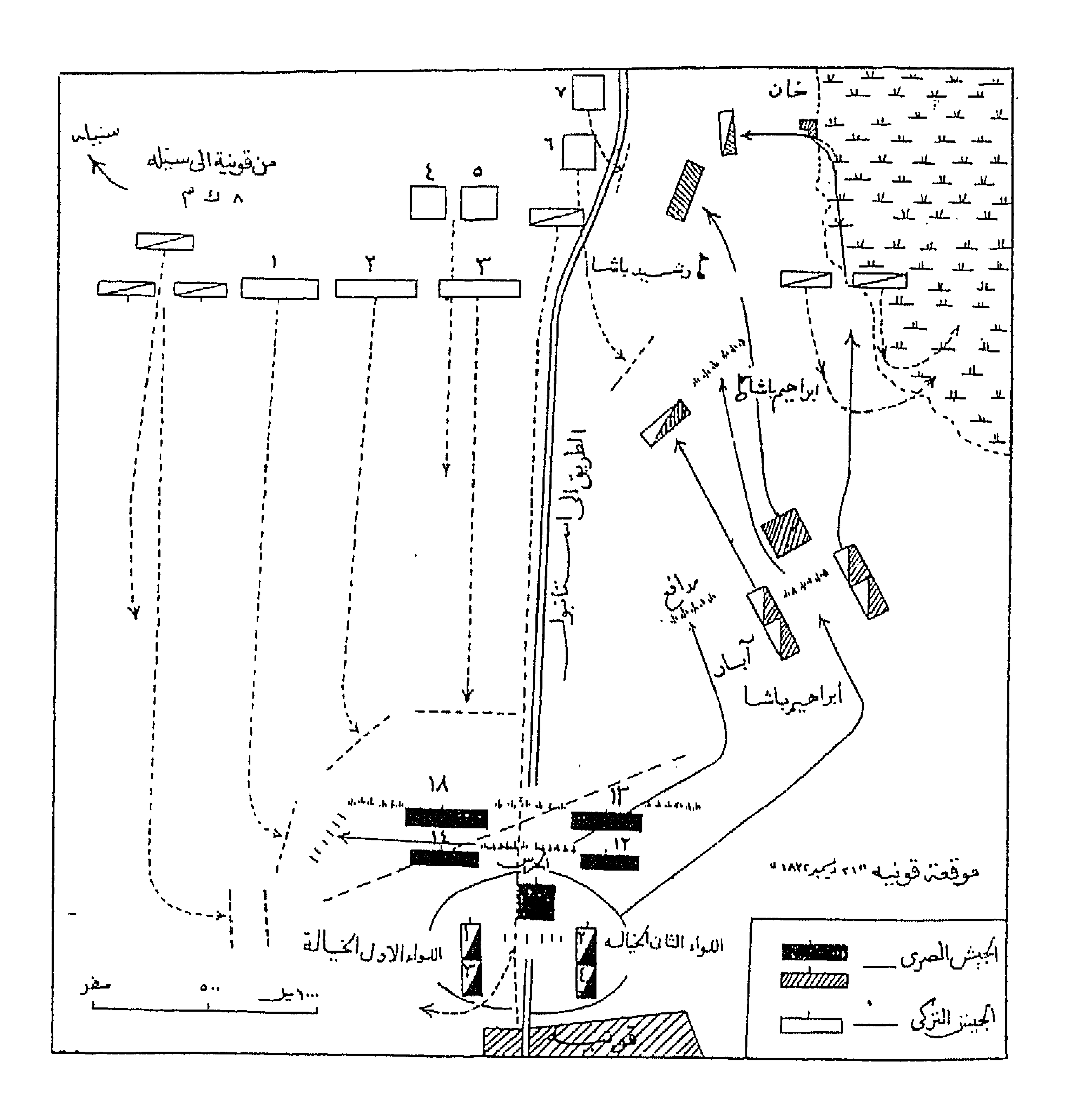
وقبل وصف توزيع قوّات الجيش ، يتعين علينـا أن نرسم صورة للموقع الذى سيدور فيه القتال :

تقع قونية فى ملتقى طرق الأناضول ، وتستند على شعاب جبـال طوروس، وقد بلغ عدد سكانها (١٨٣٢) حوالى عشرين ألف نفس ، يحيط بمعظم أحيائها سور قديم لكنه منيع، وقد امتدّ جزء من المدينة الى خارج هذا السور .

وكانت الأراضى التى سيدور عليها القتال تقع أمام المدينة ، فى الاتجاه الشمالى الغربى، حيث امتدّت هضبة خصـبة يقطعها فى أماكن عدّة وديان عميقة ، وقد اتكأ الميدان فى الغرب على ميول تلال سـيلة ، وتحدها من الشرق طائفة من المستنقعات ، وكان الطريق الموصـل بين لاديك والآستانة يمرّ بمنتصف ميـدان المعركة تمـاما .

وقد دبر ابراهيم خطته كما فعـل فى المعركتين السالفتين ، على المعـلومات التى وقف عليها عن جيش العدو ، ومعرفته التامة بأخلاق قائده منـذ تعاونا فى المورة، فضلا على معرفته بطبيعة الأرض .

توقع ابراهيم أن " رشيد " سيلجأ الى توزيع جيشه الضخم على امتداد الهضبة الفسيحة بين جبال سـيلة ومنطقة المستنقعات ، وأنه سيسدّد مرماه نحو قونية ، بالالتفاف حول ميسرة الجيش المصرى .



سنبله
من قونية الى سبله
٨ ك م
خان
رشيد باشا
ابراهيم باشا
الطريق الى استانبول
مراعي
آبار
ابراهيم باشا
١٨
١٣
١٤
١٢
اللواء الثاني الخيالة
اللواء الاول الخيالة
قونية
موقعة قونيه "٢١ ديسمبر ١٨٣٢"
الجيش المصرى
الجيش التركى
١٠٠٠ يارده
٥٠٠
صفر

استعرض ابراهيم ، بمساعدة سليمان بك ، الموقف . وجالت فى رأس الباشا خطتان : رأى إن هو هجم على ميمنة الأتراك فلن تكون النتيجة محمودة ، ذلك لأنها رابطت على سفح الجبل فى مواقع حصينة ، بعكس الميسرة التى كانت تستند الى مستنقعات مكشوفة .

ورأى الباشا أن يفاجئ خصمه ، قبل فتح قوّاته فى تشكيل القتال ، وبدأت خطته تتبلور ، وقرر ألا يبدأ فتح نيران مدفعيته ، حتى تصبح قوات رشيد باشا فى داخل المرمى ، فيوجهها الى قلبه ، وبذا يستطيع استخدام جناحه الأيمن على خير وجه . وكانت هذه الخطة السليمة خير ما اهتدى اليها ونتيجة لتفكيره المتواتر ، الذى بنى عليه تدريب الجند ومناوراتهم ، خلال مقامه فى قونية .

ويستدل من عدة شواهد على أن رشيد باشا لم يك واثقا ١٠٠ ٪ بالنصر . ومن الأدلة أنه سلم خاتم الدولة الى وكيله أحمد فوزى باشا ، فى الليلة السابقة للمعركة .

الجيش المصرى فى تشكيل القتال

وزع ابراهيم باشا قوّاته فى ثلاثة صفوف ، يرتكز وسطها على طريق لاديك :

الصف الأوّل بقيادة سليم بك المناسترلى يؤلف الآلايين المشاة ١٣ و ١٨ .

الصف الثانى بقيادة سليمان بك (سيف) يؤلف الالايين المشاة ١٢ و ١٤ ، وعلى بعد خمسمائة خطوة من الصف الأوّل فى تشكيل قول مزدوج .

والاحتياط بقيادة سليم بك ، وهو آلاى الحرس ، على بعد ثلاثمائة خطوة من الصف الثانى ، فى تشكيل قول مزدوج ومعه اللواءان الخيالة ١ و ٢

والى الطرف الأيمن فى المؤخرة قوات الدلاة والبدو .

أما المدفعية — ٣ بطاريات فى الصف الأوّل موزعة فى اليمين والقلب واليسار :

بطاريتان فى وسط الصف الثانى .

بطارية فى الاحتياط خلف الحرس .

وكاحتياط ضد حركة تطويق قد يهدد بها العدو، أمر ابراهيم كل آلاى مشاة فى الصف الثانى أن يعين أورطة فى تشكيل مربع على كلا الجانبين، على مسيرة ١٥٠ مترا من الآلاى .

الجيش التركى فى تشكيل القتال

أما رشيد باشا فقد وزع قواته فى صفوف أربعة : الصف الأول منها فى تشكيل مفتوح ، أما الثلاثة الأخرى فكانت فى تشكيل منضم بالأورط ، وقد تألف الصف الأول من آلاى الحرس و ٢ آلاى خيالة نظامية .

والصف الثانى ٢ آلاى مشاة و ٢ آلاى خيالة .

والصف الثالث والرابع كل منهما آلاى مشاة .

وفى المؤخرة ، الى اليمين وإلى الشمال ، قوات غير نظامية ، وألبانيين ، ورجال البوسنة مشاة وخيالة .

أما المدفعية فموزعة بطارياتها بين الصفوف بمعدل مدفعين فى كل أورطة مشاة ، وأربعة مدافع فى آلاى خيالة .

وتولى رشيد قيادة الميسرة ، وهى أضعف نقطة ، وتولى قيادة قوات القلب سعد الله باشا ، والميمنة خير الدين باشا .

وقد وجدت وحدات العدو صعوبة شديدة فى اتخاذ مواقعها من جراء الضباب ولكن مرت لحظة خفت فيها كثافته ، فاستطاع ابراهيم أن يلمح توزيع الجيش العثمانى ، وكان يبعد عنه حوالى ٣٫٠٠٠ متر .

ثم تقدمت صفوف الأتراك حتى صارت على مسيرة نحو ستمائة متر من مواقع القوات المصرية ، وفى الظهر أخذت المدافع التركية تطلق القنابل على المصريين ، فلم يردوا عليها بالضرب ، الى أن تعرف ابراهيم باشا على صوت إطلاق النار مواقع الترك ، وتقدم الصف الثانى المصرى حتى اقترب من الصف الأول ليتفادى فتك الشظايا التى كانت تنصب عليه .

ثم استهلت المدفعية المصرية عملها فى كل الجبهة — نيران شـديدة متواصلة من الجانبين ، وإحكام بالغ فى التسديد، حتى لقد زلزلت الأرض فى كل الجهات . وفى أثناء المعمعة ، كان يتنقل ابراهيم بين الجند مشجعا، ويثير الهمم قائلا :

" عفارم — عفارم — أيوه ياولد — ماشاء الله — عفارم " .

وصدفة اتجه الى بئر تقع على يمين الصف الثـانى من قواته . وفى خلال لحظة انكشف فيها الضباب إذ زاد علما بمواقع الترك ، وتبين نقطة الضعف التى يصيب منها الهـدف — ذلك أن قـوة الخيالة كانت تؤلف ميسرة الجيش التركى وقـد أخطأت القيادة التركية فى أنها لم تحكم الصلة بين الفرسان والمشاة خلال التقدم . وحدثت بينهما ثغرة ، يبلغ طولها نحو ألف خطوة ، جعلت الميسرة فى شـبه عزلة عن بقية الجيش .

فانتهز ابراهيم باشـا هذه الفرصة ، واعتزم الهجوم بقوات الحرس والفرسان ، خلال هذه الثغرة ، ليخترق صفوف الترك . و بادر فعلا فأصدر تعليماته بتحرك هذه القوات ، وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة . فزحفت قوة الحرس يتبعها الفرسان ، واجتازت البئر بقليل ، ثم انعطفت نحو الشمال حيث ميسرة الترك وهاجمتها هجـوما عنيفا ، وشـدت المدفعية أزرها . فصبت قنابلها على الترك ، واكتسحتهم من الجنب . وكان الهجوم شـديدا ، والضرب محـكما . فاهتزت مراكز الترك هزا عنيفا لقسوة الهجـوم ، واضطروا للتقهقر شمـالا من غير نظام ، فى المستنقعات . و بذا هزمت ميسرة الجيش التركى .

ومن سـوء الحظ ، لم يظاهرنا التوفيق لمعرفة أسماء الوحدات المصرية ، التى اضطلعت بهذا الهجوم وإن كانت تتفق جميع المصادر على ذكر « الحرس » واللواء الرابع الخيالة بقيادة أحمد المنكلى والمدفعية والآلاى الثانى الخيالة .

دبرت هـذه الهجمة على أفضل تدبير ، و بينما كان يستعد الحرس للسير الى خان قديم لمح ابراهيم الى اليسار آلاى من مشاة الترك (اتضح فيما بعـد أنه

الآلای ١٧) يتقدّم فى تشكيل منظم وكان رشيد باشا قد أمر قائده لمعاونة الخيالة فى الإطباق على الميمنة المصرية — فأمر ابراهيم الحرس بتغيير مواجهته وأن تنضم إليه فى الحال الآلايين الخيالة ١ و ٢ وبطارية مدفعية للقيام بهجوم ضدّ الجنب التركى (الآلاى ١٧) الذى انهالت عليه النيران الشديدة من ثلاثة مصادر، وأحاط به المصريون، وأوقعوا برجاله حتى سلموا سلاحهم .

ولما أدرك رشيد باشا أن ميسرته قد وقع فيها الاضطراب والفشل، أراد أن يلم شعثها، ويبث الحمية فى نفوس رجاله — فقصد مواقع الجند، بيد أنه لم يفز بطائل . وضل الطريق فى الضباب الكثيف . وبينما يمضى فى طريقه وقع فى أيدى العرب المصريين ، فأحاطوا به ، وجرّدوه من سلاحه ، واقتادوه أسيرا الى ابن محمد على الكبير .

ثم أمر ابراهيم قوّاته الاحتياطية ، بعد تركها وحدة من المدفعية وأورطة مشاة ، للتقدّم مع الحرس فى طريق مواز لطريق لاديك للقضاء على الاحتياطى العثمانى ، وانضم إليها نصف بطارية والآلاى الخيالة الثانى وكان منتظرا أن ينضم إليها اللواء الأوّل ، ولكنه لم يستطع السير فى الضباب، وقام بمناورة فيما بعد على مقربة من الخان والمستنقعات ، ثم ساعد الجناح المصرى الأيمن أمام قونية .

أما الآلاى الرابع فكان أكثر توفيقا فى مناورته . فقد تابع مطاردته الخيالة الأتراك فى المستنقعات ، ووصل الى الخان ولحق آلاى الحرس فى الوقت الذى كان يهاجم فيه الآلاى ١٩ المشاة الأتراك، الذى كان فى الصف الرابع العثمانى . وقد وصل الآن الى موقعه فى الصف الثانى . وكانت نيران الشرنجية المصرية تنصب كالمطر بإحكام ، تساعدها قذائف المدفعية ، على أجناب ومؤخرة هذا الآلاى (١٩) . وكانت إحدى كتائبه تشكلت فى هيئة مربع و باشرت العمل بهمة ، عندما أقدم الآلاى الرابع الخيالة . فاندثرت المقاومة بعد وقت قصير،

وعم الفزع فى قلب القوات التركية ، وفر الجند غير النظامى الى تلال سيلة ، عن طريق لاديك . وكادت تخرج القوات التركية من دائرة النضال .

ولكن كان هناك بصيص من الأمل لدى القائد العثمانى، الذى تسلم القيادة بعد انهيار ميسرته وقلبه . ورأى أنه إذا نجح فى مناورته ، مستعينا بقوات الميمنة، استطاع الصمود وتحويل نتائج المعركة ، ولكن كانت حركة المناورة البارعة التى نفذها ابراهيم فى الحال، أخرت، بل قضت على خطة خصمه .

الساعة الآن الخامسة مساء ... والقتال مازال مستمرا ، وأصبح موقف الأتراك يعتمد كل الاعتماد على الآلايات المشاة الثلاثة التى فى الصف التركى الأول وخيالته تكون منها خطا منكسرا للإحاطة بالميسرة المصرية، التى كان قوامها آلايين مشاة وآلاى خيالة الصف الثانى — وكان الطريق الرئيسى الى الآستانة يسير الى غربها .

وقد واجه المصريون هذا الخط ، الذى هددهم برباطة جأش وثبات . وفى الحال أجريت العمليات الآتية — أسرعت بطارية مدفعية الصف الثانى لمعاونة بطارية الميسرة فى الصف الأول . ثم صبت المدفعية سواء منها فى القلب أو فى الميسرة نيرانها صوب الأعداء — لحصد صفوفهم حصدا . واستبسلت الميسرة فى الضرب والقتال، إذ كان على دفاعها يتوقف مصير معركة اليوم . واستمرت الملحمة ثلاثة أرباع ساعة ثم أسفرت عن كسر هجمة الأتراك بل وهزيمتهم وتشتيت وحداتهم فى السهل وفى قونية .

ثم أراد العثمانيون أن يبذلوا جهدا آخر علهم يكسبون ظفرا — فتحركت قوة من خيالتهم ووصلت تجاه الصف الأول من قواتنا . فلم يحفل بها أبناء النيل، لأنها كانت صائرة نحو الفشل . فتقدمت الى ما وراء صفوف الجيش وهناك تشتت شملها .

انتهت وقعة قونيـة بهزيمة قوات الامبراطورية العثمانية ، بعـد أن استطال القتال فيها سبع ساعات . إذ بدأت فى الظهر وانفضت بعـد غروب الشمس بساعتين . وكانت خسائر الترك كالآتى :

٥٠٠٠ — ٦٠٠٠ أسير وقائد الجيوش وبينهم عدد موفور من الضباط .

٣٠٠٠ قتيـل .

٤٦ مدفعا وعدد كثير من الأعلام العسكرية .

أما ضحايا المصريين فكانت ٢٦٢ قتيلا و ٥٣٠ جريحا .

وفى الساعة الثامنة والنصف مساء . عاد ابراهيم باشا الى قونيـة ، ليلقى تهنئة ضباطه ورجاله .

وقد قال ادوار جوان (Gouin) عن معركة قونية : " إن قوة الأتراك كانت ثلاثة أضعاف المصريين ، إلا أنهم كانوا أقل تدريبا وبسالة وخفة " .

نتائج المعركة :

رأينا المعركة تنتهى بظفر رائع لا مثيل له . وأصبحت الأبواب التى تفضى الى عاصمة الخلافة مفتوحة على مصراعيها ، تستقبل جيوش مصر الغازية . وقد فقـد السلطان جيوشـه التى اعتمد عليها ، للقضاء على خصمه . يلتفت يمنة ويسرة فلا يجد نصيرا سوى حلفائه الروس ، الذين يكرههم العثمانيون لأنهم أعداء ملتهم ، وخصوم شعبهم ، منـذ استولوا على استانبول . وكان جديرا بالقائد العظيم ابراهيم أن لا يعبأ بالمفاوضات والإرتباكات السياسية ، ويواصل انتصاراته ، حتى يدخل على رأس جيوشه المظفرة الآستانة ، ويخضع السلطان محمـود ويملى عليه إرادته ، بينما يقتحم الأسطول المصرى المياه اليونانية ويعبر الدردنيل ، وينزل قواته فى الثغور العثمانية وما وراءها . ولكن ارتبط ابراهيم بعجلة والده السياسية ، فلم يقـدم على

التقـدم الى العاصمة الفتانة، ليصل إليها قبل قدوم القوات الروسـية، التى جاءتها فى ١٣ فبراير سنة ١٨٣٣ [١] .

ولم تكد تمضى أيام ، حتى يتبوأ محمـد على عرش آل عثمان ، مكان السلطان الذى كانت رعيته تنظر إليه كحليف للروس، بينما كانت فى صميمها ترنو حاكم قوى ينتشلهم من الهاوية التى أوقعها السلطان فيها ولنسأل أنفسنا سؤالا — وماذا يكون موقف المسلمين من محمد على ... وهـو فى نظر بعضهم ذلك الثائر الذى اعتدى على الخليفة ، وأنزله بقوة السيف، ونزع السلطة منه .

والجواب على ذلك نراه فيما اعتاد عليه البشر — مسـلمون وغير مسلمين — وهو الملك لمن يستحق الملك والحق للقوى وليس للضعيف . وما كان محمـد على إلا عبقريا من طراز الرجال المصلحين . بدأ إصلاح ولاية مصر ثم أراد إصـلاح السلطنة كلها . وكان جديرا بالقيام بهذه المهمة، وكاد يصل الى هدفه لولا تدخل الدول ، التى كان هدفها العمل على إضعاف الدولة العثمانية لكى يرثوها بعد القضاء عليها . وقد تحققت أهدافهم بعد نصف قرن من الزمان ، وذهبت الامبراطورية العثمانية فى عداد التاريخ .

سياسة التردد بين محمد على و إبراهيم

أقام إبراهيم باشا شهرا فى قونية، يعيد تنظيم قواته، عقب انتصاره الرائع، ولم يستطع مواصلة فلول جيش رشيد قبل وصول أوامر والده إليه . وقد كتب لأبيه خطابا فى ٢٨ ديسمبر يقول له فيه :

” أستطيع أن أصـل إلى الآستانة ومعى محمـد رشيد باشا ، وأسـتطيع خلع السلطان حالا، و بدون صعو بة ولكنى مضطر أن أعرف هل تسمح لى بتنفيـذ هـذه الخطة حتى أتذرع باتخاذ الوسائل اللازمة لأن مسألتنا لا تسـوى إلا

---

(١) انتهت معركة قونية فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٣٢ .

فى استانبول فالواجب أن نذهب الى استانبول حيث نملى إرادتنا وأنى مضطر أن أكرر على مسامعك أن الدعاوة لا توصلنا إلى أغراضنا و إذا أنت رميت من الاشاعات التى تذيعها الى غرض سياسى بأنا نهدد استانبول لتقبل شروطنا كان من العبث أن نقف فى قونية فلا نتقدم منها الى الأمام . فإن قونية بعيدة عن رجال الآستانة فهم لا يقبلون عقد الصلح معنا إلا إذا دخلنا عليهم فى العاصمة كذلك هم فعلوا مع الروس فإنهم لم يقبلوا إبرام الصلح معهم إلا بعد وصولهم إلى جلمجة بضاحية إستامبول . فالواجب اذن أن نواصل الزحف حتى بورصة على الأقل مع احتلال المدن الواقعة على بحر مرمرة وجعل هذه المدن مراكز تموين لجيشنا فى البحر حينئذ فقط نستطيع أن نذيع الأخبار التى قد تقضى الى عزل السلطان . و إذا نحن لم نفلح فى إسقاط السلطان توصلنا على الأقل الى إبرام صلح يحقق أمانينا وأننا لولا الأمران الأخيران اللذان تلقيتهما منك لكنت الآن على أبواب استامبول . و إنى لأسأل نفسى ما هو الداعى الذى دعا إلى اصدار تلك الأوامر الىّ؟ .

أهو الخوف من أوربا أم هو شىء آخر لا أعرفه ...

ألتمس منك أن تنيرنى فى هذه المسألة قبل انفلات الفرصة من أيدينا . نعم إنى التمس إبلاغى أمركم القاطع بهذا الصدد ...

وصل هذا الكتاب الى محمد على، فسلم برأى إبراهيم وأذنه بالتقدم ، وفى التو قام القائد على رأس جيشه فى ٢٠ يناير وقد قسمه الى شطرين. فوصل الى كوتاهية فى ٢ فبراير، وتحمل الجنود زمهرير الشتاء القارص، وصار على مبعدة ٥٠ كيلومترا من الآستانة .

وكان ابراهيم عندما زحف من قونية الى كوتاهية قد كتب الى أبيه الخطاب التالى :

” اليوم (٢٠ يناير سنة ١٨٣٣) بدأ الجيش بالزحف على قونية تتقدمه شراذم صغيرة لشدة البرد ولقلة عدد الجمال للنقل ولا توجد فى طريقنا أية مقاومة حتى

استامبول ليست فيها حركة استعداد للقاومة وهـذا يدل على أنهم قد وضعوا جميع آمالهم بالصلح . ولأجل هـذا الصلح أرسل إليك خليـل رفعت باشا ولكنى أرى جهد ما يصل إليـه علمى الضعيف أنه ما دام السلطان محمود المشئوم على العرش لا يمكن أن يكون هناك صلح صحيح ولا نهاية للا زمة لأنه سيكون عرضة للظروف يتنهزها للانتقام و يعمل لها . كما كان فى المـاضى وللجور على هذه الأمة الاسلامية التعسة وظلمها . فبحق حبنا لهـذه الأمة و بحق غيرتنا الدينيـة أرى من الواجب المحتم علينا لا العمـل لمصلحتنا فقط ولكن العمل فوق كل شيء وقبـل كل شيء لمصلحة هذه الأمة كلها ومن أجل ذلك يجب علينا أن نرجع الى القرار الأول أى خلع هذا السلطان المشئوم ووضع ابنه ولى العهد على العرش حتى يكون ذلك بمثابة محرك يحرك هذه الأمة من سباتها العميق .

فإذا اعترضت علىّ بأن أوربا تعترضنا قلت لك أننا لا ندع لها الوقت للتدخل و بذلك نتق الخطر من ذلك الجانب لأن مشروعنا ينفذ قبـل أن يعرف و بذلك نضع أوربا أمام الأمر الواقع — وإذا كانت أوربا تغتنم الفرصة لإشباع مطامعها من هـذه الدولة فأية تبعـة تقع علينا . وهل باستطاعتنا أن نمنعها عن تحقيق خطة تسعى لتحقيقها منذ ٨٤ سنة .

... ... ومع الاسـتعانة بالله لتحقيق ذلك عزمت على التقـدم الى بورصة ومودانيا فلا وقت إذن لتلقى شيء منك أو من استانبول يحرم على التقدم .

أما أنا فإذا بقيت هنا فانى لا أجد أقل وسيلة لتموين الجيش لفقر البلاد فلم يبق لى إلا الذهاب إلى بروصة ومن هنـاك أرسل إليك رسولا بما يكون قـد قررناه تبعا للظروف" ...

وكان إبراهيم على أبواب كوتاهية حينما تلقى خطابا من محمد على يأمره بالوقوف عن الزحف حيث يدركه خطابه هو يعـلم أنه ليس للسلطان جنـدى واحد

فى طريقه إلى عاصمة الخلافة . وذكر له أن السلطان أرسل خليل رفعت باشا اليه (محمد على) ليتفق معه .

وقبل أن يصل الى بروصة كما اعتزم ، تلقى الأمر من والده بأن يقف ، وكان هذا الأمر بعد وصول الجنرال مورافيف مبعوث قيصر روسيا الى اسكندرية ، ثم وصول خليل رفعت باشا مندوب الباب العالى . يحمل الى محمد على عفو السلطان عنه وولايته عكا وملحقاتها ، ولكن لصداقة محمد على له ، اتفق معه على شروط للاتفاق أهمها أن يعطى محمد على ولاية سورية وأذنة ، وأن تبرم بينه وبين خسرو باشا محالفة تعاون تضع حدا لنزاعهما .

ووصل الى إبراهيم باشا ثلاثة رسل من الآستانة ، الأول رسول الباب العالى ليبلغه أنهم أرسلوا الى والده رسولا للاتفاق ، والثانى رسول الجنرال مورافيف ، والثالث رسول سفير فرنسا . وكان إبراهيم يعتقد أن الاتفاق بين خليل رفعت باشا وبين أبيه أمر ممكن ، ولكنه كان يرى أن الصلح الذى يبرم مع السلطان محمود هو صلح غير دائم ، بل يكون بمثابة هدنة ، حتى يتمكن السلطان من العودة الى القتال . ويتضح رأيه بما كتبه لأبيه[1] ، فى الثالث من فبراير :

"أرى أن يكون الاستقلال مقدما على كل شىء فى المناقشات التى تدور بينك وبين الرسولين مورافيف وخليل باشا — فمسألة الاستقلال مسألة حيوية تقدم على كل شىء وبعد الاعتراف بالاستقلال يجب أن تطلب اضاليا وأدنة وجزيرة قبرص وأن يضم الى مصر — إن كان ذلك فى الإمكان — تونس وطرابلس . ذلك أقل ما يجب أن نطلبه ولا نتساءل عن أى شىء كان مهما كان الأمر لأن مصلحتنا تقضى به . أما إصرارنا على الاستقلال فلكى توطد مركزنا وتحوطه بالضمانات فاذا لم ننل الاستقلال ذهبت جميع مجهوداتنا ضياعا ومكثنا تحت يد هذه الحكومة

---

(١) كتبه فى كوتاهية بتاريخ ١٢ رمضان سنة ١٢٤٨ — ترجم بتصرف فى الأسلوب .

الحبيثة التى توقرنا بمطالبها الدائمة وبطلب المـال ، فمن الآن يجب أن تتخلص من الأعباء الباهظة ولا نجـد خلاصا إلا بالاستقلال . أما السبب الذى يدعونا لطلب أضاليا وأدنة فهو شدة حاجاتنا الى الخشب ، لأن مستقبل أسطولنا معلق على ذلك ما دامت بلادنا محرومة من الخشب وأنت تذكر أن انجلترة منعت ورود الخشب إلينـا فاضطررنا أن نلجأ الى النمسا التى أزعجنا رفضها إزعاجا لا نستطيع نسيانه . وهـل من حاجة بى لأبين شـدّة حاجتنا الى الخشب . فأنت أنت ذاتك قلت لى فى الأمر الذى أصـدرته حديثا كما أنه يجب عليك أن لا تهمل وسيلة من الوسائل لصـد الجيش التركى كذلك يجب أن تعمل كل ما باستطاعتك عمـله للحصول على الخشب .

أما ضم قبرص الى مصر فهو أيضا لا مندوحة عنه ، لسببين : الأوّل للنفعة الكبيرة لأسطولنا والثانى لمنع الباب العالى من أن يكون له طريق الى أملاكنا وإذا شئت أن تطلب بغداد فلا مانع من طرح هـذه المسألة على بساط البحث على أن تتنازل عنها فى المستقبل لأن هذه الولاية لاتنفع شيئا وهى كستارة بعيدة جدا عن مصر وتتطلب نفقات باهظة .

هذا ما أعرضه على مسامعك وأوجه إليك مع منتهى الاحترام انظارك .

وفى ٣٠ يناير كان خبر تقدم إبراهيم من قونية الى كوتاهية وقره حصار قد وصل إلى الآستانة فاستشاط السلطان غضبا ولجأ إلى أصـدقائه الروس يستنجد بهم . ومن حسن حظه أنه كان قد وصل لابراهيم أمر أبيه بوقف التقدّم . وكان ابراهيم هدّد بروسه كما استولى أربعة من جنوده وضابط على أزمير .

وهنا تبـدأ الدول تعدّل موقفها السياسى من ظفر جيوش إبراهيم . ويرفض محمد على اقتراحاتها المشينة . وتبدأ انجلترة تكشف عن سياستها نحو نجاح محمد على وقد خشيت أن تقف مصر شوكة فى طريقها الى الهند .

وتتضح سياسة انجلترا هذه من الرسالة التى كتبها بالمرستون إلى وليام كامبل السفير الانجليزى فى كابل ، وذلك بعدما أذيعت شروط الاتفـاق الأولى بين تركيا ومصـــر .

"إن الشروط المعروضة على محمد على باشا حسنة جدا ما دامت هذه الشروط تحرمه من دمشق وحلب وهمـا الطريق إلى العراق — وفوق هذا يجب أن يثبت كل سنة فيما أعطى له وإن كان تثبيته فى ولاية مصر دائمـا — وقـد كان قصده تأليف مملكة عربية لجميع بلاد العرب والمشروع جليل الشأن فى ذاته لولا أنه يقضى بتقسيم تركيا فلا يمكننا أن نسلم به .

أضف الى ما تقدم أن تركيا أفضل دولة تملك طريق الهند، فهى أفضل من أى ملك عربى يقوم على هذه البلاد، نزوعا للعمل كثير الحركة .

فالواجب علينا أن نساعد السلطان على أن يعيد تنظيم جيشه وأسطوله وماليته فإذا استطاع أن يعيد النظام الى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء .

وظلت المناورات السياسية تديرها الدول الكبرى ، بيد أنهـا ضعفت عندما رأت جيشا روسيا مؤلفا من ١٢٠٠٠ مقاتل وأسطولا كبيرا يحميان السلطنة، بناء على رغبة السلطان . فأقلق بال فرنسا وانجلترة واستمرت الدسائس الدولية تعمل فى الخفاء ضـد محمد على للحد من مطالبه وإجباره على سحب قواته ، واذا بالباب العالى يرضخ لمطالب الوالى العظيم !

فأثرت هـذه المفاجاة على خصومه . وأخيرا أبرم بين الطرفين اتفاق كوتاهية (١٤ مايو ١٨٣٣) فوضع حدا مؤقتا للنزاع بين الدولتين . وبهذا الصلح ولى محمد على مصر والحجاز وكريت وجعل ابراهيم باشا واليـا على سورية وعكا ودمشق وطرابلس وحلب ومحصلا لولاية أدنة، ورفرف العلم المصرى على جل هذه الأقاليم .

وبذا انتهى — ولو مؤقتا النزاع بين الدولتين رغم أنف الدول، التى كانت تهوى الصيد فى المـاء العكر . وكسب محمد على ثمرات النصر الحلوة . وبرهن للملأ أنه رجل

صريح لا يعتمد على الحرب بل يرغب السلام . وصرح للمندوب الفرنسى قائلا :

"إننى رجل سلام لا أهدف إلا لشىء واحد هو أن أقف أيامى الباقية لاسعاد البلدان التى أحكمها ويسألوننى أن أقدم الدليل على سلوكى هذا — فأجيب بأننى أتوسل لأوروبا أن تقنع تركيا بأننى لن أهاجمها كما تضمن تركيا فلا تهاجمنى"[1] .

وقد قضى احتلال الشام عسكريا بتوزيع حاميات الجيش المصرى داخل البلاد الآتية :

القوات المصرية فى فبراير ١٨٣٣[2]

الوحدات	مصر	بلادالعرب	السودان	كريت	سورية	المجموع
٢٢ آلاى مشاة	١٧٣٥٢	٩٠١٧	٥١٥٧	٥٠٠٤	٣٥٥٧٧	٧٠٣٣٧
٣ آلاى مدفية	٤١٠٢	—	—	—	٢٢٥٥	٦٣٥٧
فيلق مهندسين	٢٩٨٩	١٠١	—	—	٨٥٢	٣٩٤٢
١٣ آلاى خيالة نظامية	٢٦٧٠	—	—	—	٥٢٩٢	٧٩٦٢
خيالة غير نظامية[3]	٧٠٠	٧٠٠	٤٨٤	—	١٥٥١	٣٤٣٥
بدو	—	٦٦٨	٦٠٤	—	٤٠٩٨	٥٣٧٠
المجموع	٢٧٩١٣	٨٥١٦	٦٢٤٥	٥٠٠٤	٤٩٦٢٥	٩٧٣٠٣

(١) مراسلات مستر كامبل قنصل بريطانيا فى مصر الى وزارة الخارجية فى ١٣ مايو سنة ١٨٣٣

(٢) من خطاب كتبه البارون بواليكونت ممثل فرنسا فى مصر إلى الدوق (Broglie) وزير الخارجية الفرنسى فى ٢ يوليو سنة ١٨٣٣ .

(٣) فى مرجع آخر وجدنا هذا الرقم ١٩٨٠٠

وإلى جانب هذه القوات المحاربة ، كانت توجد الوحدات التالية :

طلبة المدارس الحربية ٣٤٨٨
قواد البوليس المحلية ٦٧٩٩٨
جنود البحرية ودور الصنعة ٢٥١٤٣
صناع وعمال فى خدمة الجيش ١٩٣٩٣١

وقد كانت معظم الوحدات موزعة فى حاميات الشام ، وقد بلغ عدد أفرادها من القوات النظامية فى عام ١٨٣٣ — ٧١٦٣١ ، أما غير النظامية فقد كان ١١٩ و ٧١ ، أكثرها موزعا فى أدنه وأورفا وحلب وعكا وعينتاب .

هدنة مسلحة بين حربين

١٨٣٣ — ١٨٣٩

كانت إتفاقية كوتاهية بين الدولتين هدنة لمدة سنين قلائل ، استعد الطرفان فى خلالها لاستئناف القتال . وكانت حكومة الباب العالى لا تنفك تنفث الدسائس بوساطة أعوانها بشتى الوسائل . فلما ضاق محمد على ذرعا ، وآيس من إصلاح ذات البين ، اعتزم على إعلان استقلال مصر ، واستدعى وكلاء الدول الأجنبية ، وحدثهم بعزمه ، كما سيأتى :

الإدارة المصرية فى الشام :

وكانت للحكومات المعينة من قبل مصر فى ولاياتها بالشام والبلاد العربية وكريت ... إدارات منظمة ، تعنى برفاهية سكانها ، عادلة فى أحكامها ، فرتبت فى الشام مجلسا للشورى على النظم الحديثة ، ونظمت الشئون المالية . بل هيأ إبراهيم نظاما لجباية الخراج ، ومعاملة الرعايا بالعدل والمساواة ، بغض النظر عن تفاوت الطبقات الدنيوية ، وتباين المذاهب الدينية ، مثل هذا التعديل فى أسلوب الحكم ، جعل الأمراء والمشايخ وأرباب النفوذ يستثقلون الإدارة المصرية ، ويتمنون

عودة البلاد إلى أحضان الدولة العثمانية . نظرا لأنهم لم يستطيعوا العيش وليس لهم جاه أو سطوة . بعد أن توطد الأمن فى ربوع أوطانهم، وأحييت الزراعة والتجارة والصناعة على النظم المنتهجة فى مصر ، وعمت تربية دودة الحرير ، واستخرجت بعض المعادن ، ودكت بعض القلاع التى كان يلوذ بها الثائرون وقطاع الطرق . وأكثر من ذلك قرب إبراهيم العلماء والأدباء، كما رخص للدول الأجنبية فى إرسال معتمديهم إلى دمشق وكانوا يمنعون من دخولها قبله [(١)] .

ثورة فلسطين (١٨٣٤) [(٢)] :

وسوف نمر سراعا على أهم الأحداث التى مرت بفلسطين، لعلاقتها بواجبات الحاميات العسكرية ، التى لم يعرف رجالها الراحة ، منذ عام ١٨٣٤ ولم يمض عام ونصف العام على معارك الحملة الشامية المظفرة . وبعبارة أخرى الدوافع التى بثت فيها بذور الثورة ، وأشاعت بها مظاهر التمرد .

(١) الدعايات السيئة التى اضطلع بها بنجاح رجال تركيا وجواسيسهم، ووكلاء الدول الأوربية ، وقد كانت لها نتائج وخيمة فى مقاومة الحكم المصرى والعمل على تقويضه ، ولا سيما فى نابلس وبيت المقدس ثم فى دمشق وحلب — وكان الدروز ، إلى حد ما ، اللبنانيون من أوفى أصدقاء إبراهيم . كما لعب الدين دورا كبيرا فى مناهضة باشا مصر . ويتبدى أن الشاميين كبعض المصريين — فى صورة عامة — لم يروا أعمال محمد على فى صورتها الحقيقية إلا بعد وفاته وانقضاء زمن طويل . وليس هناك أدنى ريب فى أن الأب وابنه كانا متقدمين على جيلهما بعشرات السنين .

---

(١) الأستاذ محمد كرد على — الحكومة المصرية فى الشام ص ٢٢ — ٢٤

(٢) الأمير عمر طوسون — تمرد فلسطين واستخدام الجنود النظامية فى قمعها — مجلة الجيش المجلد ٤ العدد ٤ ص ٤٧٥

تفشى التذمر وعدم الرضى بين الزعماء والمشايخ وأتباع عبد الله الجزار ، ممن حرموا المناصب والوظائف الكبرى التى كانوا يأملونها ، أو فقدوا الجاه والمال بعدما نظمت أحوال البلاد — فجرت عدة وقائع بين المصريين والعسكاريين والصافيتيين وأهل نابلس (الشيخ قاسم الأحمد) ثم حدثت معارك فى حلب ومثلها فى بيروت — وقد نكل بالكثيرين من زعماء البلاد ولا سيا آل طوقان وأعيان الأتراك .

وعلاوة على ذلك فقد توفرت الأسباب المادية لثورة الشام وفلسطين وأهمها الضرائب الفادحة التى فرضها إبراهيم على الأراضى بعد إصلاحها والجمارك وما جره نظام الاحتكار فى أثره ، والتدخل فى إلزام بعض أصحاب الحرف والصناعات اليدوية بالعمل فيها طبقا لسياسة اقتصادية عليا ، تكفل توطيد الأساليب فى مصر والشام .

وأظهر مسببات التذمر نفرة الناس من الجندية الالزامية التى فرضها محمد على . فقد كره الشاميون الخدمة العسكرية بعد مرور مئات السنين وهم يفلحون الأرض أو يحترفون الصناعات الدنيا . وأضحوا يعدون التجنيد من باب إلقاء النفس فى التهلكة — وقد زال من أفكارهم معنى الدفاع عن الوطن بعد أن حكمهم الغرباء قرونا بالسوط — وقد أقضى نظام التجنيد ، الذى ثاروا ضده ، إلى هجرة عدد كبير من أهل الشام ، إلى آسيا الصغرى والعراق والبادية والجبال .

وبالاختصار أفضت هذه الأسباب منفردة أو مجتمعة إلى :

(ا) عصيان بيت المقدس (ابريل ١٨٣٤) وقمعه وكان زعيمه الشيخ قاسم الأحمد وأبو غوشى — وقد اشتدت الثورة فترة مما جعل محمد على يسافر بنفسه على رأس إمداد كبير .

(ب) عصيان صفد وقد أخمده الأمير بشير الشهابى .

(ج) فتنــة دمشق وطرابلس (١٨٣٤) وعكار وصفيتا وحلب وأنطاكية وبعلبك وبيروت .

(د) ثورة النصيرية شرقى اللاذقية (١٨٣٤ — ١٨٣٥) .

ولا مرية فى أن هذه المعارك أنهكت قوى الجنود بحالة مستمرة . وقد أبدى إبراهيم فى قمعها كثيرا من الشدّة ، بيد أنه استحوذ على إعجاب الثائرين أنفسهم ، بتعريض نفسه للمخاطر بجرأة لا يتصوّرها عاقل . وعلى هذا قيل عنه أن أبا خليل — وهــذه هى الكنية التى يكنيه بها الشعب — محجب بحجاب ضــد الجروح فعله محقق ، وأنه بعد كل واقعة كان ينفض ردائه فيتساقط منه الرصاص .

وقبيل آخر العــام ، تمت عملية التجنيد فى سورية ، وتم النقص فى جميــع الآلايات المعسكرة فيها .

ثورة الدروز في حوران (١٨٣٦ — ١٨٣٨) .

ولم يستتب الأمر بعــد هدوء الأحوال فى الشام ، حتى شبت ثورة الدروز فى حوران ، وكان إبراهيم باشا أعفاهم من التجنيد ، ثم ارتأى تطبيق قانونه عليهم لحاجته إلى زيادة جيشه ، استعدادا لملاقاة العثمانيين . فشبت ثورتهم فى حوران (نوفمبر ١٨٣٧) ولقد شرحت معارك هذه الثورة بحملاتها الثلاث التى قاد واحدة منها إبراهيم بنفســه فى مقال طيب نشره المغفور له الأمير عمر طوسون فى مجــلة الجيش [١] ونوجز أهم حملات هــذه الثورات الثلاثة [٢] فيما يلى :

(١) حملة على أغا البصيلى ، رئيس الهوّارة ، مؤلفة من ٤٥٠ من فرسان . وقد فاز فى مستهل الأمر ضد الثوّار فى بصرى ، ثم استدرجوه إلى الجبال وانقضوا على رجاله وأبادوهم جميعا .

---

(١) مجلة الجيش — المجلد الخامس — العدد ٤ — ص ١ — ١٣

(٢) توجد معارك أخرى صغيرة لا نعدها بين الحملات الثلاث الكبرى .

(٢) حملة الفريق أحمد باشا المنكلى ، ناظر الحربية ، وكانت مؤلفة من ١٤,٠٥٠ مقاتل من المشاه والفرسان والمدفعية — قام على رأسهم فى ١٢ فبراير ١٨٣٨ وقد ناضلوا فى عدة معارك . خرجوا من بعضها فائزين ، ولكن كانت نتيجتها مشئومة ، فقد هزمت قبالة الثوار ، وفقد المضربون أكثر من أربعة آلاف جندى وستة آلاف بندقية ومدفعين وخمسين جملا محملة بأزواد وكل متاع الضباط ، واستشهد قائد اللوائين والى بك وراجى بك .

(٣) قبالة انتصارات الثوار ، نظم إبراهيم باشا حملة ثالثة من عشرين ألف مقاتل وتولى قيادتها . وتسنى له الإطباق على ثوار حوران ووادى التيم . فسلم التيميون ومن بعدهم بقية الثوار فى منطقة اللجاه (أغسطس ١٨٣٨) .

قضى إبراهيم على ثورة حوران عقب امتدادها تسعة أشهر ، بعد أن تكبد خسائر باهظة .

خرج الجيش المصرى من فوزه الختامى ، فى تلك المعارك ، باكتسابه مزايا لاحصر لها ، فى التدريب والقيادة . فقد كانت هذه حروبا مع عدو عنيد مسلح . يكافح لطرد المصريين من بلاده .

وإبان انشغال المصريين فى هذه الحرب ، كان الباب العالى يعمل ما فى وسعه لتخليص سوريه وأقليم أدنة من محمد على ، بينما حاول هذا اكتساب ود السلطان وفعلا أوفد فى عام ١٨٢٧ مندوبه صارم ليفاوض محمد على لتسوية الخلاف بطريقة ودية ، ولكن أخفقت المحادثات ، ولم يتفق الطرفان على شروطهما .

حيال عناد الحكومة العثمانية ، اعتزم محمد على — كما سبق أن أورينا — إعلان استقلال مصر ، واستدعى وكلاء الدول فى مصر وحدثهم بعزمه هذا فى مايو عام ١٨٣٨ معتمدا على حق مصر[1] .

---

(١) كادلفين وبارو — سنتان من تاريخ الشرق — جـ ١ ص ٢٢ و ٤٦

وتدخلت الدول لحل الخلاف بين البلدين ، فباءت مساعيها بالفشل ، لأن انجلترا كانت من وراء تركيا تحرضها على قتال محمد على ، واسترداد مصر أيضا من حوزته .

ومن المؤكد أن إعلان استقلال مصر تأتى متأخرا ، بالرغم عن أن إبراهيم عقب انتصاره فى معركة قونية كثيرا ما ألح على أبيه فى كتاباته أن يعلن هذا الاستقلال . والكتب التى أورد فيها هذا الإلحاح جد كثيرة — كذلك تناولت تصريحاته لرجال الحكومات الأوربية الشىء الكثير من هذه الرغبة . وفى السابع من المحرم علم ١٢٥١ ﻫ (١٨٣٥) ، أى بعد أربع سنوات تصرمت على اتفاقية كوتاهية ، كتب إبراهيم إلى أبيه رسالة كانت على قصرها تنم عن الحسرة والألم ، لأن أباه لم يأخذ برأيه لما طلب إليه إعلان الاستقلال ... قال :

”لا بد أنك تذكر حين وقفت بجنودى فى قونية وكتبت أطلب إليك بإلحاح وفى خضوع وتواضع أن ننتهز الفرصة ونعلن استقلالنا فكتبت إلى تقول إنك قانع أن تكون ”محمد على“ وكفى . مع أننا كنا منتصرين . وكانت الفرصة سانحة ولكنك لم تشأ . والآن وقد مضى وقت طويل على تسوية النزاع وتعيين الحدود تطلب الاستقلال“ .

وقد كان إبراهيم على حق . لأن الاستقلال يؤخذ ولا يطلب .

الدولة العثمانية فى ١٨٣٩

شاهد القرن التاسع عشر انحلال الدولة العثمانية ، بعدما قطعت شوطا من المجد الفسيح ، فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد جاهد بعض سلاطينها كيما ينشلوها من تفادى هذه الخاتمة ولكن ذهبت محاولتهم سدى بعدما دب الفساد فى جسمها . فالشعب كره الإصلاح ، لأنه لم يفهمه على وجهه . وغمره جهل الغرور وأحلام السيادة ، ووجد فى قبول الإصلاح مسبة له وعارا ، فأصر على العناد . وكانت الدول الأوربية تعمل مخلصة على مساعدة الشعوب المسيحية الخاضعة للعثمانيين ، للتملص نهائيا من سيادة الإمبراطورية الهرمة .

حاول السلطان سليم الثالث (١٧٨٨ — ١٨٠٨) تنظيم جيوشــه ، بيد أنه شغل بمحاربة روسيا . ثم خسر الحرب ، ونهض فى وجهه أنصار الرجعية ، وقتلوا رجاله الذين اعتمد عليهم فى تنظيم قواته ، ثم أرغموه على اعتزال عرشــه وتخلصوا منه . وقد حاول خلفه السلطان مصطفى الرابع أن ينهض بالجيش . فكان نصيبه الاغتيال — ولم ييأس السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩) . فقد استطاع بمعاونة بعض وزرائه تنظيم الجيش . وبدأ بإدخال التدريب الحديث إلى صفوف الانكشارية بعدما فهم زعمائهم ما جرته تقاليدهم البالية على البلاد من الفساد والفوضى . وبالرغم من أخذهم باللين لم يستطع التخلص منهم إلا باغتيالهم فى مذبحة كبرى . فارتاحت الدولة من شرورهم . ومن ثم بدأ السلطان يكثر من الجنود النظاميين ، ويعــدّل القوانين ، التى لم تعد صالحة للعصر ، كما طفق يجدّد فى أنظمة الحكومة .

ولكنه شغل بالفتن والحروب الكثيرة التى لم تكد تنتهى واحدة فيها حتى تبدأ أخرى بتشجيع دول أوربا التى هــدفت إلى القضاء على آل عثمان ، أو على الأقل إلى بقائها دولة هزيلة لا حول لها ولا قوة .

كانت الحروب المتتالية التى شنتها روسيا ، أو الدويلات الخاضعة للعثمانيين ، أظهر عوامل القضاء على مكانة تركيا كدولة عظمى ذات بأس وسطوة ، التى كانت تقترب يوما بعــد يوم من مقبرتها . ومع هــذا الانحلال التدريجى لم يعرف رجال تركيا الانتفاع من كفاءة بعض حكامها ورجالها فى الولايات العثمانية وفى طليعتهم محمد على باشا فى مصر وعلى باشا والى يانيا .

كانت هــذه حال تركيا ، حينما بدأ سوء التفاهم بينها وبين محمــد على . بلاد أنهكتها الحروب المتتاليــة ، وأضعفتها ملازمة شعبها إلى عدم التحوّل عن القديم البالى ، وغباء رجالها الذين انقادوا فى ســياستهم العمياء لنصائح بعض سياسى الدول الأجنبية . فعجلوا بدمارها — وجيش جديد بدئ أخيرا فى إعادة تدريبه وتسليحه بعد انقضاء فترة قصيرة على التخلص من الانكشارية .

معركة نـزيب

الجولة الخامسة

الجيش العثمانى فى عام ١٨٣٩ :

تألف الجيش العثمانى من حوالى ٨٠ ألف مقاتل و ٢٠٠ مدفع حشد معظمها فى منطقة ملطيـة بشرق الأناضول . وكان هـذا الجيش أنظم وأقوى الجيـوش العثمانية منـذ أن تخلصت تركيا من الجيوش النظامية ، وتوفر عتاده الحربى وأعدّ منه الشيء الكثير فى ملطية وديار بكر . ووضع تحت قيادة حافظ باشا سرعسكر باشا الجيش فى آسـيا ، بعد وفاة رشـيد باشا فى عام ١٨٣٦ ، يعاونه هيئة من ضباط أركان الحرب الألمـان برياسة فون مولتك الذى حظى بالشهرة فيما بعد .

وكان قائد الجيش ، الذى وضعت فيـه الدولة ثقتها للقضاء المبرم على الجيش المصرى ، قد منح رتبة السرعسكر السامية عقب انتصاره على ثورة الأكراد . ولد فى عام ١٧٩٦ من أسرة قوقازية عريقة ، وعنى بتربيته وتعليمه منذ الصغر ، فتلقى اللغات التركية والعربية والفارسية ، وحفظ القرآن وهو فى السابعة عشر من عمره ثم التحق بخدمة السلطان فى فرقة الـ (Hahigi) حيث ارتقى سريعا . وما أن شكل الجيش النظامى حتى تقدّم للخدمة فيه كجندى بسيط فى الخيالة ، وبجدّه حالفه التوفيق فوصل إلى رتبة بمباشى فى خلال الحرب الروسية التركية ، إلا أنه أصيب فيها بجرح شفى منـه . وحدث أن أنعم عليه برتبـة قائد اللواء والفرقة عقب أعوام قلائل . وقاد الحملة العسكرية التى وجهتها تركيا لإخمـاد الثورة فى ألبانيا . وعلى أثر إتمـام مهمته ، عينه السلطان حاكما على إقليم سيواس بالأناضول . وفى غضون اضطلاعه بمنصبه أمره البـاب العالى بإخماد ثورة كردستان ، فأورى فى ظل معاركها نبوغا ونظاما وشجاعة ودراية تامة بإدارة الحرب ، وتم له إخضاع الكرد . وكان من جراء نصره الكبير أن أنعم عليـه السلطان بنيشان الافتخار وترقيته إلى رتبـة سرعسكر الجيش فى آسيا .

وإلى جانب مزايا هـذا القائد العسكرية ، كان واسع الأفق فى تفكيره ، بعيد النظر فى تدبيره . لم يك جامدا شأن الكثيرين من قادة العثمانيين فى القرن الثامن عشر وأكثر من ذلك كبير القلب ، نبيل الشعور ، يمقت إراقة الدماء بدون داع . أضف إلى ذلك أنه كان محبوبا عند الأهالى والجند ، عفوفا عن الدسيسة ، مهيب الطلعة ، كريم الخلق والطباع ، محترما للغاية . أما بيته فقد كان مفتوحا على مصراعيه يتناول الطعام على موائده ثمانمائة شخص . دينا لدرجة يقال أنه طلب إلى جنوده الصلاة قبيل الانخراط فى القتال .

وكان كثيرون من ضباط أركان حرب الباشا ممن تلقوا علومهم فى المـدارس الحديثة الحربية فى أوربا ، وفى طليعتهم محمـد رشيد بك الذى صار فيما بعـد قائدا ومديرا عاما للمدفعيـة التركية وكان من المقـربين إلى خسرو باشا ناظر النظار — وقد عين رئيسا لهيئة أركان حرب حافظ باشا فحسده الكثيرون من ضباط الجيش العظام ، الذين أفلحوا فى الكيد له عنـد السرعسكر — لذلك لم ينتفع بمواهبه ظنا منه أن عين عليه لينقل أخبار الجيش إلى رئيسه .

فلما زايل الجيش التركى قاعدته فى ملطية ، أمره القائد بأن يشرف على أعمال الإسعاف الطبي ، والمستشفيات العسكرية !

ويظهر أن التجارب والمحن التى مرت بأحـوال الجيش العثمانى ، وهزائمه المتتالية ، فى معارك ١٨٣٢ ، لم يفد الباب العالى منها شيئا كثيرا ، ولا سيما من ناحية تدخله فى الأمور الفنية الخاصة .

وإلى جانب الجيش العثمانى النظامى ، كانت هنـاك وحدات من الاحتياطى غير المـدربة تدريبا كاملا فضـلا عن أن معنوياتها لم تك فى مسـتوى معنويات الوحدات المنظمة .

وفيما يلى توزيع وحدات الجيش العثمانى[1] :

قيادة عزت محمد باشا	أنقــرة	١٢,٠٠٠	٤	بطاريات مدفعية
« على باشا ومعه فيشر	قونيــة	٢٠,٠٠٠	١٠	« «
« حافظ باشـا	ملطيــة	٤٢,٠٠٠	٢٤	« «
« عثمان باشا	قيصـرية	٥,٦٠٠	٢	« «
« على بــك	(موزعة فى مناطق شتى)	٧,٥٠٠	١٢	« «
		٨٧,١٠٠ جندى	٥٢	بطارية

الجيش المصرى بعد صلح كوتاهية

وعلى نقيض حال الدولة التركية ، استمــرت مصر ، بزعامة مصلحها الكبير ، فى نشاطها الصناعى والعلمى والعسكرى ، بالرغم من الثورات والفتن ، التى شبت فى مناحى الشام وفلسطين وبلاد العرب ، والتى أنهكت الجيش خمسة أعوام طوال ، وأن طموح الباشا ، ورغبته فى المحافظة على مركز دولتــه (ولايته) موطدا ومدعم الأركان وطبيعــة ممتلكاته ، جعلت محتما عليــه أن يعتمد على قوة كبيرة ، استطاع بفضلها المحافظة عليهـا ، والسـير بسفينته وســط عواصف دعاية الحكومة التركية والبريطانية فى كل مكان تدين بالولاء للباشا ، وفضلا عن ذلك كان يرى محمــد على استعداد الباب العالى للقتال ، والعمــل على زيادة قواته الدفاعية ، ولم يجف المداد الذى كتبت به اتفاقية كوتاهية ، فوضع نصب عينيــه عقيدة " إذا أردت السـلم فاستعد للحرب " (Si Vis Pacem par Bellum) .

فليس هناك ما يخلق الحرب أكثر من وجود ضعيف وقوى ، وليس هنـاك أيضا ما يخفف من ويلات الحرب ويطيــل أمد السلم أكثر من تكافؤ القوى ،

(١) ذكرت " الجورنال دى ديبا " بتاريخ الاثنين ٣ يونيه سنة ١٨٣٩ نقلا عن " جازنت دوجسبورج " أن قوات الجيش التركى ٦٥ ألف مقاتل ومعهم مائة مدفع ميدان .

فالسلم لا يمكن أن يوجد إلا إذا كان مسلحا، تحميه الأسلحة وقلوب المحاربين المتأهبين للذود عنه .

ونظرا لكثرة الفتن والثورات التى عمت فى داخلية الشام وفلسطين، اضطر ابراهيم الى توزيع قواته من البحر الميت الى طوروس، ومن الساحل الى الفرات، ثم التمس من أبيه أن ينجده بامداد قوى . فأرسل اليه ناظر حربيته على رأس جيش مؤلف من ستين ألفا نظاميا وثمانية آلاف غير نظامى معظهم من الفرسان و٢٥٠٠٠ من البدو وقد ألحق بهم ١٦٠٠٠ مارونى .

وعلى العموم، كان الجيش المصرى مركبا من وحدات مارست الحروب والمناورات، منذ عشرين عاما، فى نظام وتدريب كاملين .

وكانت معنويات المصريين عالية للغاية، ولا دهشة فى ذلك، فقد حاربوا وخرجوا ظافرين من جميع المعارك الكبرى التى قاتلوا فيها — وكان عتادهم وذخيرتهم وأسلحتهم وفيرة فى أيديهم، أو خلفهم فى مستودعات ونزلات، الى جانب مخازن الجيش فى اسكندرونة ويافا — وكان ينقل أكوام التعيين والمهمات ١٥٠٠٠ جمل بين الدلتا والعريش ثم ينقلها عرب عنازة الى المعسكرات .

الجيش المصرى فى معركة نزيب :

(ا) المشاة :

فرقة الحرس — ٣ آلايات (١ و ٢ و ٣) بقيادة الفريق عثمان باشا	٨٦١٧
اللواء الأول — آلايان (٢ و ٢٢) بقيادة أمير اللواء سليم بك	٤٧٣١
اللواء الثانى — آلايان (٤ و ١٢) بقيادة أمير اللواء ابراهيم بك	٥٢١٦
اللواء الثالث — آلايان (٦ و ١٨) بقيادة أمير اللواء حمزة بك	٧٣٩٣
اللواء الرابع — آلايان (٩ و ١٤) بقيادة أمير اللواء عمر بك	٤٥٥١
اللواء الخامس — ٣ آلايات (١٠ و ١١ و ١١) بقيادة أمير اللواء فرحات بك	٧١٦٥
مجموع المشاة	٣٧٦٧٣

(ب) الخيـالة :

لـواء الحـرس — آلايان بقيادة الفريق أحمد المنكلى باشا	١٧٣٨
اللواء الأول الخيالة — آلايان (١١ و ٢) بقيادة أمير اللواء رستم	١٦٧٩
اللواء الثـانى الخيالة — آلايان (١ و ١٣) بقيادة الجوخدار	١٧٢٨
اللواء الثالث الخيالة — آلايان (٦ و ١٠) بقيادة ابراهيم بك	١٦٣٠
مجموع الخيالة	٦٧٧٥

(حـ) المدفعية : بقيادة أمير اللـواء جعفر صادق بك

مدفعية الحرس : بقيادة أمير الآلاى خالد بك	١٠٦٦
الآلاى المدفعية الثانى المشاة : بقيادة أمير الآلاى محمد العنتبلى	٢٠٦٦
آلاى المدفعية الأول الخيالة : بقيادة أمير الآلاى حاذق بك	١٠٤٠
آلاى المدفعية الثـانى الخيالة : بقيادة أمير الآلاى زكى بك	١٠٦٧
مجموع المدفعية	٥٦٢٥

المجموع الكلى للجيش ٥٠,٠٧٣ ضابطا وجنديا بصحبتهم ١٦٢ مدفعا .

الحوادث الممهدة لمعركة نزيب

(سنة ١٨٣٩)

لكى نقدم صورة واضحة للمعركة، مستكملة المعالم، يتعين أن نقفو أثر الأحداث التى أفضت الى القتال الحاسم .

(١) حصنت القيادة المصرية مضيق كولك، أحد مضايق طوروس، وهو منفذ الزحف من الأناضول الى سورية، وزاد عدد الحاميات فى ولاية أدنة .

(٢) لما علم القائد حافظ باشا بأعمال المصريين، رام تلاقى الزحف من هذا المضيق . والقيام به من منطقة أورفا وديار بكر، حيث لا تواجهه مضايق أو مسالك وعرة أو جبال .

(٣) اتصل ذلك بالقيادة المصرية ، فحوّل ابراهيم باشا وحدات كثيرة من جيوشـه الى حلب ، ولتسـتمر فى مراقبة طلائع الجيش التركى فى عينتاب وكليس القريبة من الحدود التركية [1].

(٤) عهد القائد حافظ باشا الى أحد قائديه عبور نهر الفرات ، فانتقل هذا الى الشاطئ الأيمن يوم ٢١ أبريل سنة ١٨٣٩ وفى الحال نهض ابراهيم باشا ببعض التحركات الهامة لتحاشى الخطر .

(٥) فى منتصف ابريل : بدلت وحدات الجيش التركى مراكزها ، واتجهت صوب ساموساته ؛ وتجمع لواء اسماعيل باشا فى بيره جك (٢١ أبريل) . وبعد أيام وصل هـذه المدينة حافظ باشا ، وفيها تسلم كتابا من السلطان يأمره فيه بالتقدّم ، فاستولى على ساموساته ، ثم قصد إلى بيره جك (على الشاطىء الأيسر للفرات) .

---

(١) ليس المقصود بكلمة كاز المدينة ذاتها وانما المنطقة الخارجية المحصورة بين أقصى الانحناء الشرقى المائل فى نهر الفرات وخليج اسـكندرونة ، وهى تعرف بنـواحى بيره جك . ويتسنى الوصول من هذا الموضع الى خمسة مواضع مهمة تقع فى البلاد التركية :

(أ) يتسنى الوصول منه بالطريق المار من عنتاب ومرعش والمنتهى الى الشمال حتى شمل الأناضول (الطريق الملكى قديما) .

(ب) وبطريق آخر يتجه صوب الغرب ، مارا بكليكيا وموانئها ، حتى غرب الأناضول .

(حـ) يتيسر الوصول من طريق حلب — الأردن — فلسطين الى مصر ، ويعرف هـذا الطريق الهند التجارى أو طريق الحرير .

(ى) ويصل الطريق الذى يمر باستقامة نهرى دجلة وفرات والمتمة نحو الجنوب الشرقى الى العـراق فإيران والصين وما اليها .

(هـ) وبواسطة دياربكر يتهيأ الوصول الى القوقاز وأذربيجان .

من هنا تتجلى أهمية بيره جك العسكرية ومضيق كاز ، الذى تخيره حافظ باشا ، ليضرب ضربته ضد ابراهيم .

وفى ذلك الوقت ، اعتدت قوة كردية على حيوانات كانت ترعى للمصريين ، ولكى يجتنب ابراهيم الصدام وتقهقر إلى حماه ، وأرسل إلى والده يسأله ماذا يكون موقفه إذا هاجمه الأتراك ! وبالرغم من الضغط السياسى على الباشا : ارتأى أن يستبعد، وسارع فى إرسال الإمدادات بقيادة ناظر الحربية، فوصل هذا إلى حلب والحرب وشيكة الوقوع .

(٦) فى الثانى والعشرين من شهر مايو، عبرت طلائع الجيش التركى الفرات ووصلت إلى نزيب[1] داخل الحدود السورية . واحتلت العداوة التى بين نهر الفرات وأحد أفرعه الصغرى المسمى ساجور[2] وتقدمت القوات التركية فاحتلت قرية تل باشر واقترفت فيها الفظائع .

(٧) وفى مساء اليوم التالى، أوفد إبراهيم — بعد علمه بتقدم الترك — ٤٠ رسولا إلى مختلف مراكزه يحملون فيها الحشد العام فى حلب . وفى صباح الرابع والعشرين جمع أعيان المدينة وأنبأهم بما اقترفته قوات السلطان وطلب معونتهم . وفى اليوم التالى أرسل إلى أورول خمسمائة من عرب الهنادى بقيادة الأميرالاى معجون بك للوقوف على حركات طلائع الترك أولا بأول . وحشد ابراهيم معظم وحدات الجيش فى معسكر بأورطة ، على مبعدة ثمانية كيلومترات شمالى حلب، بقيادة مساعده الفريق سليمان باشا الفرنساوى . وكانت تحت إمرته ١٨ ألاى مشاة و١٦٠ مدفعا .

أما الأتراك فاستمروا فى تقدمهم نحو مزار داخل الأراضى السورية ، واضطر عرب الهنادى إلى القهقرة فى تجاه توباش كالأوامر التى صدرت اليهم ، وغار الأتراك على ١٤ قرية تابعة لعينتاب ونهبوها .

---

(١) تقع نزيب على الطريق الموصل بين بيره جك واسكندرولة وموقعا غربى بيرة جك .

(٢) يقع نهر ساجور بالقرب من عينتاب ويمر بها ويصب الى الفرات ، وهو الحد الفاصل بين أملاك مصر وتركيا فى ذلك الحين ، والمرسوم فى اتفاقية كوتاهية .

(٨) لم يستطع إبراهيم قبالة هـذه الاعتداءات أن يقف مكتوف اليدين . ففى ٢٩ (التاسع والعشرين) مايو بارح حلب على رأس سبعة الآى خيالةو١١ بطارية مدفعية خفيفة ،واتفق مع سليمان باشا أن يكون على أهبة التحرك على رأس المشاة . و بينما كان ابراهيم فى الطريق ، أخلى الأتراك تل باشر، التى احتلوها منذ أيام ، ثم أستحوذ الترك على عينتاب ، بعد اخلائها من القوات المصرية . ولما فاق تحرش الأتراك بالأراضى المصريه فـوق ما كان مرتقبا . أرسل إبراهيم الى أبيـه يصف تطور الموقف .

(٩) بعـد ٤٨ ساعة وصل الى ثغر الإسـكندرونه كابتن كاييه الذى بعثه المـارشال صولت رئيس مجلس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها برسالة الى محمدعلى باشا يقول له فيها أنه بالرغم من الحوادث التى وقعت فإن مصالحه ستظل محترمة . و بعد أن قـدم (١٤ يونيو) كاييه رسالته أسرع فى السفر (٢٠ يونيو) الى مركز قيادة إبراهيم ، لمراقبة الحوادث ولا تمام مهمته التى يأتى لأجلها من باريز . كذلك حمل الضابط فولتر رسالة أخرى للسرعسكر حافظ باشا . وصل كاييه إلى طرابلس الشام وفى ٢٤ أخذ طريقـة الى حلب يوم ٢٦ ، عقب انتهاء المعـركة الكبرى وهزيمة العثمانيين فى نزيب .

(١٠) دفـع ابراهيم طلائعه الخيالة ، التى أزالت مقاومة الأتراك بسهـولة ، واستخلصت طريق حلب وأمنتـه ، فى ٣ يونيو بدأ ابراهيم فى مراقبـة الطريقين المؤدّيين إلى عينتاب ونزيب . حيث كانت منطقة الحشد التركية .

(١١) فى الخامس من يونيـو ، استدعى ابراهيم حاميـة عينتاب ، ولم يترك بها سوى كتيبة واحدة، لحماية قلعتها . و بعد أيام استسلمت هذه القوة لسليمان باشا القائد العثمانى الثانى . وفى ٦ يونيو حدثت مصادمة بين قوات معجون بك الهنادى وسليمان باشا . وكانت خسائر الفريقين متعادلة . ثم اتجه معجون بك إلى توزيل .

وفى يوم ٧ يونيو ، قام حافظ باشا على رأس قـوة، للاستكشاف ، مؤلفـة من خمســة آلايات خيالة و ٣٠٠٠ خيالة غير نظامية ، تؤيدها المدفعية . فقابلته الخيالة المصرية وعبرت ساجور الصـغير واتجهت نحو العـدو فى قولين . وتبادل الطرفان النـيران ، واشتبكت قواتهـما غير النظامية ثم عاد حافظ باشا أدراجه ، ولم يلحق به إبراهيم عملا بتوصيات أبيه ، التى كان فى انتظارها بالرغم من تحكك حافظ باشا .

(١٢) وعملا بتعليمات الأب ، أرسل إبراهيم فى يوم ٨ يونيو إلى حافظ باشا كتابا جاء فيه :

إذا كنتم يا صاحب السعادة تلقيتم الأمر باعلان الحرب فما فائدة الاسترسال فى بث الدسائس وتحريك الفتن . وإذا كنتم تودون القتال فهلموا إلى ميدانه بصراحة وإقـدام وأملى ألا يفوتكم فى هـذه الحالة أن تعرفوا أنكم تقاتلون أبطالا لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلوبهم — أما الدسائس التى تمضون فى تدبيرها فانها ليست مما يطاق احتماله طويلا .

فرد حافظ باشا على هـذا الكتاب بعبارة منمقة ، ولكنه حاذر أن يبدى رأيا صريحـا .

وفى رسالة لمحمد على (فى ٩ يونيو عام ١٨٣٩) لإبراهيم قال :

إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول . وإذا ما صبرنا عليه بعد ذلك عز علينا أن نوقفـه لأنه يبذر بذور الفتن ذات اليمين وذات الشمال — وكلما صبرنا عليه رغبـة منا فى عدم معارضـه رغبات الدول الكبرى زاد عدونا توغلا فى بلادنا وزادت الأمور تحرجا وتلك حال ترغمنا على العمل — فعلينا أن نرد هجومه بهجوم مثله . ولـما كان العـدو هو المعتدى فإن الدول لن تلق علينا التبعـة — فنصيحتى اليك أن تبادر عنـد وصول رسالتى الى يديك بالهجوم على جنود العـدو

الذين دخلوا أرضنا وأن لا تكتفى باخراجهم منها — بل عليك أن تزحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله — وبعون الله إذا وفقت النصر فاستمر فى تقدمك الى مالطيه وخربوط وأورفا وديار بكر .

وهذا أمر صريح للهجوم .

(١٣) وفى يوم ١٨ يونيــو زايل الجيش، تحت امرة سـليمان باشا ، معسكر با أورطة ، ووصل فى اليوم التالى الى توزل، حيث عبرت معظم وحدات الجيش نهـر ساجور الكبير . وفى يوم ٢٠ سارت الى قرية مزار[1] فى خمسة قولات مشاة وقولين خيالة ، فوصلتها فى الساعة العاشرة صباحا . وألفت فيها طليعة تركية مؤلفة من : آلايين مشاة وخمسة مدافع وخمسمائة جندى غير نظامى — ففوجئت وأسرع البدو المصريون ، طلائع القوة، بالانتقال الى المقدمة التركية غير النظامية وتبادلوا إطلاق النيران . وبعد قليل أخذت القوات النظامية فى الانسحاب الى نزيب .

وما كاد الجيش المصرى يبرز على المـرتفعات (جنوبى مزار) حتى كانت جميع طليعة الجيش التركى قد انسحبت الى نزيب تاركة خيـامها وعتادها ، فغنمتها الجنود المصرية، ودخل ابراهيم مزار فى الساعة السادسة مساء يوم ٢٠ وقد أصبح على مسيرة ساعتين مشيا من خصومه ولابدّ من استكشاف الأراضى، فلم تك هناك خارطات تفصيلية كما هو الحال فى هذه الأيام .

وحالمـا استقر المعسكر، حاول سليمان باشا الفرنساوى أن يستكشف الأراضى وقوة معسكر الأتراك بيـد أنه استحال عليـه أن يعرف بالدقة نوع الاستحكامات وتقدير حقيقة قوة العدو .

وكان ابراهيم باشا ينتظر بفروغ صبر عودة سليمان باشا، إذ كان قد قرر القيام بهجوم فى الغد، وكان سليمان لا يوافقه . وعلى ذلك ، فعند عودته ، اتفق كلاهما

(١) تقع مزار فى الطريق الموصل الى قرية نزيب .

على القيام فى الصباح المبكر بالاستكشاف بينما يرسل سليمان باشا فى الوقت ذاته اثنين من ياورانه وهما (F. Perrier) وأراجو وراحا ليرتادا الأراضى على ضفة نهر مزار اليمنى، لكشف طريق يسمع بعمل حركة التفاف حول الجناح الأيسر للجيش التركى وتحويل مواجهته الى الخلف، إذا لم يتسن مهاجمته من الأمام .

(١٤) وفى يوم ٢١ يونيو، عبر الياوران كبرى مزار[1]، وتتبعا مجرى النهر فى اتجاه كوبرى كرسين — فلاحظا أن الطريق كثيرا من العقبات يتهيأ تذليلها بسير المدفعية . وبعد انقضاء ساعة واحدة من قيام الياورين امتطى ابراهيم باشا جواده وسار مع ١٥٠٠ بدوى الى المعسكر التركى لاستكشافه وما لبث أن لحقه سليمان باشا وفى قيادته أربعة آلايات خيالة وبطاريتين من المدفعية الراكبة . وتصدت لهم قوة تركية ، وتبادلوا النيران فترة ، ولم يفز ابراهيم ، فعادوا الى مزار . وفيها عرض سليمان باشا على ابراهيم أن يدير الجناح الأيسر للجيش التركى بوساطة السير جنبا ، والتقدم الى خلف الصفوف التركية ، وبذلك يكرهونها على الدوران ، وترك الموقع المحصن، والقتال فى الأرض المكشوفة .

(١٥) وفى الصباح المبكر من ٢٢ يونيو، انتقل الجيش المصرى من معسكر مزار الى الجنوب واجتازت فى الحال بعض وحدات المشاة قنطرة مزار، ورابطت فوق التلال المطلة على مزار للمراقبة . ولبثت الخيالة فى مكانها مكونة ستارا لتخفى — على قدر الإمكان — عن العدو منظر الحركة وشرعت المدفعية فى عبور قنطرة مزار، واستغرق هذا الانسحاب ساعات كاملات . وبعد اجتياز المضيق انتظمت القوة بلا توان استعدادا للسير فى ترتيب القتال. ومن ثم أخذ ٢٠٠٠ بدوى مكانهم وابتدأ الزحف .

---

(١) كان معهما آلاى خيالة .

ولم يتخذ الجيش فى بداءة الأمر خط سيره الحقيقى ، بل انحرف كأنه يبغى حلب وكان سليمان باشا يشرف على سير القولات حتى لا تحدث تغيرات طويلة بين بعضها البعض ، يستطيع العدو أن يستفيد منها بتوجيه قوات كثيفة تربك هذه الحركة ولذلك استنفد هذا السير مدة عشر ساعات لقطع المسافة بين مزار وكرسين .

بعد وقفة للاستراحة فى قرية كورديكالا عاود الجيش السير، فظهرت وحدات تركية على اليسار، على مدى ٣٠٠٠ متر من جانبه الأيسر . وفى الحال أخذ سليمان باشا ثلاث كتائب مشاة وست من الخيالة وتوجه أمام هذه الوحدات ليهدد سيرها . وفى الوقت ذاته أمر باحتلال بعض التلال الصغيرة وأكمة تقوم على يمين القولات فأسرعت بطاريتان فى احتلال الأكمة وأخذت ثمانى كتائب موقفها تنتظر أية حركة يضطلع بها الترك . علاوة على حماية مسير الجماعات الأخرى، التى كانت تفدتباعا .

ولاح أن غرض الوحدات التركية لم يك سوى الاستكشاف والوقوف على قوة الجيش واتجاه مسيره، وفى هذه اللحظة كانت المسافة بين كوبرى كرسين والجيش المصرى فرسخين تقريبا، وكانت خطة القيادة المصرية قد ابتدأت تظهر لعينى كل جندى : وهى ادارة مواجهة الجيش التركى وإكراهه على تغييرها بترك مواقعه المنيعة التى أعدّها . ولا تدرى لماذا أغفل القائد العام العثمانى مهاجمة الجيش المصرى من جنبه أثناء حركة التفافه أو على الأقل حراسة كوبرى (هرجون) كرسين والدفاع عنه ولمنع الجيش المصرى من عبوره بأى ثمن لأنه مفتاح موقعهم وقد ألح الضابطان البروسيان مولباخ وفون مولتكه على القائد أن يهاجم المصريين فلم يعبأ بنصيحتهما فعرضا عليه أن يتراجع الجيش التركى الى معسكره الأصلى فى بيره جك فلم يعمل برأيهما . وكانت الوحدات التركية التى هددت أجناب الجيش المصرى تراجعت بسبب انتهاء واجبها .

(١٦) وكان الليل قد أقبل حينما بلغت القولات المصرية المتقدمة كوبرى كرسين (هرجون) واستعدت لاجتيازه . وعادت قوات البدو وأخبروا القيادة

بأنه ليس للعدو أثر فى هذه الجهة كما أفادوا بخلو الكوبرى من قوات للدفاع عنه فابتهج ابراهيم لدى سماعه هذه الأنبـاء السارة وفى الحـال أسرع على رأس خيالته ووصل الى الكوبرى وجلس على حجر،وأمر باحضار شبكه وأخذ يشجع الضباط والجنود كلما مرت أمامه وحدة من الجند .

أما سليمان باشا فقـد كان يراقب حركة مرور الوحدات عند مدخل المضيق الذى يفضى الى الكوبرى خوفا من الضغط والازدحام وكان الطريق الذى يسبق الكوبرى بمسافة حوالى ٩٠٠ مترا يبدأ فى الانحدار بشدة و يأخذ فى الضيق باستمرار الى أن يصل الى الكوبرى — وعرضه يسع فى أضيق نقطة مرور ثمانية جنود — وكانت ميـاه نهر كرسين فى هذا الشهر (يونيـو) شحيحة مما سمـح لجند السوارى بعبوره بسهولة وكانت ضفتاه غير مرتفعين .

و بالرغم من الاحتياطات ، حدث ضغط شديد بين الوحدات، واختل النظام وكان فى استطاعة الأتراك أن يمطروا نيرانهم على الكوبرى والمضيق ويقلبوا الخطة الجريئة رأسا على عقب بيـد أنهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم بدءوا فى تحويل مواقع جنودهم .

واستمـر توالى مرور الجنـد على الكوبرى ساعات طويلة . اجتازته الخيالة والمشاه فالمدفعيـة إلى الساعة الثانية صباحا . وقـد أفادت القيادة من التحركات الليلية التى لم يكشف حقيقتها العدو . وبمجرد انتهاء وصول الوحدات، على الضفة الأمامية ، أخذ سليمان باشا يرتب نظامها على شكل مروحة يمينها و يسارها يرتكزان على النهـر ، ووضـع جزءا من المدفعية على منحدر المرتفعات الأماميـة فى تشكيل بطريات فى كافـة الاتجاهات ، وخلفها ثلاثة صـفوف مشاه ثم الخيالة والعتاد، ثم ما تبقى من المدفعية خلف الصف الثالث .

(١٧) وفى ٢٣ نشط الجيش المصرى فى الاستعداد للمعركة ، واجتمع الضباط بالقائد إبراهيم فى خيمته، حيث أثنى على ما أبدوه خلال اليومين السابقين . وطلب

إليهم أن يحققوا النصر ، ويرفعوا اسم مصر ، مثلما رفعوه من قبل . ثم اتجهوا إلى خيمة رئيس هيئة أركان الحرب ، سليمان باشا ، الذى ألقى عليهم أوامره وختمها بالعبارة :

" غدا نلتقى الظهر فى خيمة حافظ باشا ، حيث نحتسى القهوة ... " .

وانتهى الهزيع الأول من الليل بدون أية حركة فى المعسكرين ، سوى أنه لوحظ أن الأتراك يعملون بجد ونشاط فى إقامة استحكامات سريعة وقتية ، لستر مواجهتهم الجديدة ، على قدر المستطاع .

وحوالى منتصف الليل ، انقطع بقية السكون الذى ساد المعسكر بطلقات المدفعية ، وطير العدو خيمتى إبراهيم وسليمان .

واستهل التراشق بالمدافع ، وسط الخيول والجنود ، واختل النظام فى المعسكر ، ولاذت الخيول بالفرار — وكان إبراهيم باشا يجول فى مناحى المعسكر ، حاثا الجنود على الصمت ورباطة الجاش ، وملازمة النظام .

أما سليمان باشا فقد اتجه إلى مدافع الصفوف الأمامية وأمر بتوجيه نيرانها صوب وميض مدفعية الترك ونشر نيران مدفعيته فى كافة الصفوف ، وبعد قليل خمدت مدفعية العدو .

وكانت خسائر هذه الاغارة الليلية طفيفة . ولما هدأت الحال أمر القائد العام بالتفتيش ، فظهر أن ما يقرب من مائة جندى وأورطتين من الالآى الثالث الحرس المشاة وجميعهم من السوريين المجندين غير موجودين ، فأمر إبراهيم ضباطه بتعقبهم والبحث عنهم : فوجدوهم متجهين صوب معسكر العدو ، فأرجعوهم وادعوا أنهم ضلوا الطريق ، بجلدوا وغيروا ضباطهم ...

(١٨) فى ٢٤ يونيو لما طفق نور الفجر يلوح فى السماء ، كان قد تم تشكيل الجيش المصرى فى ترتيب السير الآتى مستلا من كوبرى كرسين :

أولا — ٣ خطوط من المشاة متوازية لبعضها ، الخط الأول مؤلف من ٢٠ كتيبة والخط الثانى على يمين الأول مؤلف من ٢٠ كتيبة مثلها ، والثالث على يمين الثانى مكون من ثمانية كتائب ، وجميع كتائب الثلاثة الخطوط بعضها خلف بعض .

ثانيا — على يسار خط المشاة الأول وعلى بعد ١٥٠ مترا منه تسع بطاريات (٥٤ مدفعا) على خط واحد فى موازاة خط المشاة المذكورة .

ثالثا — على يمين خط المشاة الثالث وعلى مبعدة ١٠٠ متر منه ١٠ بطاريات (٦٠ مدفعا) على خط واحد فى موازاة خط المشاة المذكور .

رابعا — أربع بطاريات (٢٤ مدفعا) خلف خطوط المشاة الثلاثة .

خامسا — أربع بطاريات (٢٤ مدفعا) أمام الثلاثة الخطوط المشاة لمسند الستة الآلايات الخيالة التى أمامهم عند اللزوم .

سادسا — الستة آلايات الخيالة أمام الأربع بطاريات الأخيرة فى موازاة خط المشاة الثالث .

سابعا — فرقة الحرس المؤلفة من ١٢ كتيبة خلف الاربع بطاريات التى وراء خطوط المشاة الثلاثة بصفة احتياطية .

ثامنا — لواء خيالة الحرس مؤلف من الآلايين أحدهما من لابسى الدروع والآخر من حاملى الرماح خلف الجميع كحرس مؤخرة .

وفى أثناء السير ارتد آلايان من الخيالة إلى الخلف من الجهة اليسرى لحراسة مؤخرة الجيش . وفى بداءة المسير للقيام بحركة الالتفاف ، انحرفت القوات قليلا نحو الشمال الشرقى ، فى اتجاه بيره جك و بعد أن تقدمت القوة حوالى كيلومتر ، فى ذات الاتجاه ، ولاحظت القيادة أن الجيش التركى لم يتحرك من مواقعه الدفاعية ، أمرت بالالتفاف نصف لفة إلى اليسار . و بذلك صارت خطوط تقدم الجيش

المصرى موازية تقريبا لخطوط الجيش التركى . ثم كررت نصف لفة أخرى ، واتجه الجيش المصرى إلى ربوتين صغيرتين قبالة الجناح الأيسر التركى ولم يحتلها . فأمر فى الحال سليمان باشا باحتلال العليا منهما (تل سليمان باشا) ووضع بطارية من عيار كبير فوقها كما أمر بوضع أربعة الايات خيالة خلف الربوة الثانية وآلايين من المشاة لسندهم .

أوضاع الجيش التركى :

وكان الجيش التركى ، فى موقفه الدفاعى ، موزعا على النمط التالى :

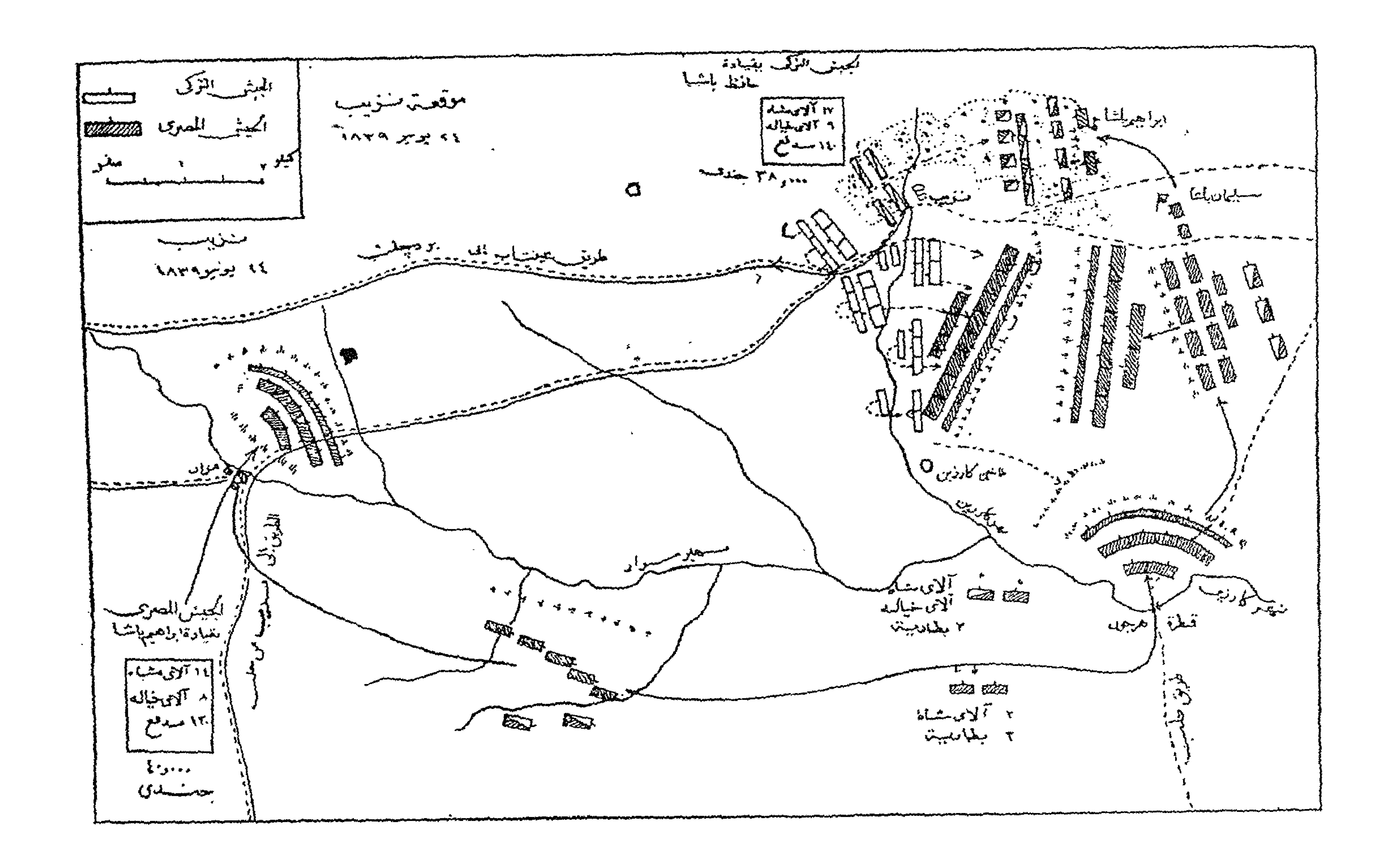
تتألف قوة الميمنة من الحرس — والقلب والميسرة من ثلاثة لواءات مشاة — وفى امتداد الميسرة القوات غير النظامية . وفى الخط الأول ١٤ كتيبة و ٩٢ مدفعا وفى الخط الثانى ١٣ كتيبة ، والاحتياطى أربعة لواءات رديف و ٩ آلايات خيالة و ١٣ مدفعا . وكانت كتائب الخط فى تشكيل مفتوح وكتائب الاحتياطى فى تشكيل قولات .

والآن يتسنى لنا القول بأن معركة نزيب ابتدأت بالفعل وقد انتهت المهدات...

معركة نزيب

بعد أن احتل الجيش المصرى الأكمتين ، فطن حافظ باشا الى غلطته فى عدم احتلالها من قبل ، ولكى يحاول إصلاح الخطأ ، بدأ باطلاق النار على الجيش المصرى ، بينما أمر سليمان بالالتفاف الى اليسار كيما يكون جناح المصريين الأيمن أقرب للجيش التركى من وسطه وميسرته — وأمدّ ميمنته بأربعة آلايات خيالة وآلاى مشاة من الحرس والآلاى ١٤ المشاة — وكانت هذه الميمنة بقيادة سليمان باشا ، والقلب بقيادة الفريق أحمد المنكلى ، والميسرة بقيادة الفريق عثمان باشا .

فلما شهد حافظ باشا هذه الحركة ، وعلم أن ميسرته هى التى ستتحمل عبء الهجوم نقل اليها بعض كتائب الميمنة ، بل وقرب الى الميمنة بعض الاحتياطى من الخيالة والمدفعية .



موقعة نزيب
٢٤ يونيو ١٨٣٩
الجيش التركي
الجيش المصري
كيلو ٢ ١ صفر
الجيش التركي بقيادة
حافظ باشا
١٢ آلاي مشاة
٩ آلاي خيالة
١٤٠ مدفع
٣٨,٠٠٠ جندي
نزيب
٢٤ يونيو ١٨٣٩
طريق عينتاب الى بيرجيك
ابراهيم باشا
سليمان باشا
الجيش المصري
بقيادة ابراهيم باشا
١٤ آلاي مشاة
٨ آلاي خيالة
١٢٠ مدفع
٤٠,٠٠٠ جندي
آلاي مشاة
آلاي خيالة
٢ بطاريتة
٢ آلاي مشاة
٢ بطاريتة
طريق حلب

وبدأت المدفعية المصرية بالضرب المبرح ، فردّت عليها المدفعية التركية ، واستمر تبادل النيران ما ينوف على ساعتين ، وكانت نيران المصريين منصبة على المدفعية التركية ، بينما مدفعية الأتراك انصبت على صفوف المشاة المصريين ، فكانت الخسائر أقل ، وقد أسكتت البطارية التى وضعها سليمان باشا فوق تل سليمان عدة مدافع تركية .

ولما لاحظ سليمان باشا أن الميسرة التركية لم تتأثر ، أمر بزيادة إطلاق مدفعية الهاون وبدون انقطاع على الصفوف التركية ، وبعد قليل بدأت الميسرة التركية فى التراجع ، وفر بعض الجنود ، وقد تزعزعت معنويتهم ، ولا سيما بعد حدوث انفجارين فى عربات جبخانة للجيش التركى ، بتأثير نيران المدفعية المصرية ، ثم تزايد الارتباك فى صفوف العدوّ بعد أن أطلق قائد المدفعية المصرية الأميرالاى جعفر بك صادق بعض الصواريخ على المشاة والمدفعية التركية .

أزمة دقيقة :

لما تبين سليمان حرج موقف الأتراك ، أمر قسما من الصف الأول لميمنته أن يتقدم مسنودا من قسم الصف الثانى ، وأمر أيضا بطارية عيار كبير أن تنزل من الأكمة وتتبعهم لتسندهم ، فاتجهت الجنود صوب خطوط العدوّ ، ولدى اقترابهم منها ، قوبلوا بنيران حامية من مدافعه ومن مدافع أخرى كانت مخفية ، فتقهقروا بدون انتظام ، بل مما زاد الطين بلة أن لاذت بعض الوحدات بالفرار ، ومن حسن الحظ أن قلب الجيش وميسرته لم يشعروا بما حصل للميمنة لانخفاضات الأرض وارتفاعاتها ، التى أخفت عنهم حرج الموقف ، وحدث أيضا ، فى ذات الوقت ، بأن ذخيرة المدفعية المصرية أوشكت على النفاد فاندفعت مع المشاة الى الخلف ، فأسرع سليمان باشا لعلاج الموقف السئ ، وأمر المدفعية القريبة منه باحتلال الأكمة مرة أخرى ، وأن تفتح نيرانها بشدّة على الأعداء وعلى المنسحبين ،

ومما خفف بعض الأثر وصول ستة آلايات خيالة وبطاريتين راكبة وآلاى حرس مشاة وآلاى آخر من القوات المصرية الى شرق نزيب، وكان قد صدر الأمر اليها للقيام بحركة التفاف واسعة حول الميسرة التركية لشدّ أزر قوات المشاة التى سبق ذكرها ، وشرعت فى تطويق ميسرة العدو والهجوم عليه ، وقد بدأ الهجوم اللواء الأول الخيالة (بقيادة رستم بك) فردّه الأتراك، وكاد ينتهى الموقف بمأساة ، لولا أن تداركه اللواء الثانى بقيادة الأميرالاى ابراهيم بك الجوخدار .

فى هذه الساعة الحرجة، كاد الجيش المصرى يغلب على أمره، لولا وصول الذخيرة الى بطارياتها وفتح النيران الشديدة على ميسرة الترك، التى كادت تصل لها الإمدادات بصفة مستمرة، وكذلك القلب . وقد سبب نشاط المدفعية المصرية الكبيرة العيار رفع معنوية قوات سليمان باشا بعد أن كاد أمل النجاح يتبدد ، واستأنفوا الهجوم على الأتراك ، ثم الاقتحام بالسونكى ، وفى هذه اللحظة وصل ابراهيم باشا على رأس آلايين من الخيالة الحرس، جاءا تحت قيادة المنكلى باشا لمعاونة الميمنة المصرية، وسار الى خلفهما اللواء الثانى الخيالة المؤلف من الآلايين (١ و ١٣) فأكملا المعمعة . وهنا بادرت خيالة العدو بالفرار ، وعجلا الآلايان فى سيرهما الى المعسكر التركى فاستوليا على القسم الأيسر منه ، مكتسحين شراذم العدو المتفرقة فى الطريق .

وللسرعة التى وصل بها إبراهيم فضل إنقاذ الميمنة المصرية مما أصابها من التفكك، وقد كانت على وشك الانهيار والهزيمة ، و بدأت كفة المعركة تميل إلى المصريين، مما جعل سليمان يستغل الموقف .

وكان القتال عمّ الجبهة بأسرها، من الشمال الى الجنوب، وانتقل إلى القلب والميمنة التركية حيث قاومه الفريق خالد باشا بكل شدّة ، إلى أن أصيب برصاصة قاتلة، ومن ثم لم تحدث أية مقاومة . بل فرّ جنوده بعد إلقاء أسلحتهم . وكانت وحدات الفريق المصرى عثمان باشا تكتسح الأتراك بعدما أدّوا واجبهم فى القتال،

ولما لم يطق العدو تلقى هجمات المصريين المتابعة ، انسحب بقاياه إلى معسكره القديم، فاقتفى القائد أثرها بمدفعية الخطين الأول والثانى من المشاة، بينما اتخذ الثالث الاحتياطى للمشاة والمدفعية مراكزها على الربوات والقمم المتوجة لموقع المعسكر العثمانى .

وبالاختصار أصبحت هزيمة الترك عامة[1] .

أما إبراهيم القائد الملهم فقد اتجه إلى خيمة القائد حافظ باشا فى المعسكر ، ليكتب رسالته إلى أبيه، وقد جاء فيها :

"أكتب هذه الأسطر تحت خيمة حافظ باشا، التى لم ينقل العدو شيئا مما كانت تحتويه ، وقد استولينا على الأمتعة والمهمات والمدافع والخزانة ، وأسرنا عددا عظيما من الجنود . وإنى أود أن أقتفى أثر الأعداء ولكننى لا أجد منهم أحدا — وكان تفرق الجيش العثمانى أشتاتا وفراره بسرعة لم نستطع معها إدراكه بعد معركة دامت ساعتين فقط . كان هجومنا عليه من جميع النقط معا . وكان أحمد باشا المنكلى على قيادة ميمنتنا وسليمان باشا على قيادة الميسرة . أما القلب فكنت أتولى قيادته[2] وكانت نيران مدفعيينا حامية جدا . وقد أعاد هذا الفوز السريع إلى ما كنت عليه فى سن العشرين من النشاط والانشراح والقوة، وسنوافيكم بالتفصيل قريبا".

انتهى الأمر، وحلت الهزيمة بجيش السلطان، واستولى جند إبراهيم على نحو ٢٠,٠٠٠ بندقية و ١٤٠ مدفعا بذخائرها ، كما استولى فى اليوم التالى على ٣٥ مدفعا فى حصن بيره جك . وبلغت خسائر الترك نحو ٤٥٠٠ قتيل وجريح ، وأسر منهم بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ رجل . وترك حافظ باشا خزينته وتحتوى على آلاف الجنيهات وأوراقه وخططه ورسائله ... وذابت قوات الترك فى الحاميات العسكرية فى الأناضول .

---

(١) من تقرير سليمان باشا الفرنساوى عن المعركة .

(٢) تم هذا فى الدور الختامى من معركة نزيب .

أما خسائر المصريين فبلغت نحو ٣٠٠٠ بين قتيل وجريح ...

وأصبح إبراهيم باشا ، بعد معركة نزيب : سيد الأناضول على الإطلاق ، وصار الطريق قبالته مفتوحا إلى إستامبول .

وقبلما يبلغ خبر هزيمة الجيش العثمانى مسامع السلطان محمود كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة ، وصعدت روحه إلى الرفيق الأعلى .

* * *

لم يقف إبراهيم مكتوف اليدين بعد أن أباد جيش حافظ باشا وبعد أن عثر على خطة العدو الحربية ، فقرأ فى فقرتها السابعة أن الاستيلاء على مصر ينبغى أن يكون الغرض الثانى من غرض الأتراك ، وتضمنت توليته واليا على مصر بدل والده . فلما أيقن أن السلطان كان ينتوى أن يجعل هذه الحرب ساحقة ، زال ما عسى أن يكون لديه من أثر التردّد فى مواصلة الزحف ، وكان فى مستهل أعماله أن استردّ عينتاب ، وأعد العدّة لموالاة الزحف على مرعش وملطية وديار بكر .

تحليل معركة نزيب ونقدها

إذا حكمنا بالنتائج ، ظهرت لنا معركة نزيب فى صورتها الختامية كأمجد صفحة فى تاريخ الجيوش المصرية . يضعها بعض المؤرخين فى مستوى معركة أوسترلتز التى قضى فيها نابليون على زهرة الجيوش النمسوية . غير أننا إذا تطلعنا إلى سير المعركة ، وتطوّر أدوارها ، لألفينا أن أخطاء فنية عديدة قد اكتنفتها من جانبى القيادة المصرية والتركية [1] .

(١) كان المارشال فيجان آخر المؤلفين العسكريين الذين تناولوا نقد معركة نزيب فى كتابه المعروف عن حملات الجيش فى عهد محمد على وأحفاده . وقد اقتبس المارشال معظم الآراء التى تضمنها نقده مما كتبه موريه وكادلفين وبارو وفردنان بريبه ياور سليمان باشا . وهذا القائد نفسه وقد رجعنا إليها فى نقدنا بعد اطلاعنا على تقارير إبراهيم باشا ونشرات الجيش المنشورة فى الوقائع المصرية .

ولعل القارئ يذكر أنه فى ٢٠ يونيو تقدّم إبراهيم باشا إلى مزار ، ثم نزيب ، لملاقاة العدو ، ولم تك لديه أية معلومات دقيقة عن مواقع الجيش العثمانى أو تفاصيل عن طبيعة الأرض ، التى ستنشب عليها المعركة . وليس هناك أدنى شك فى أن القيادة ارتكبت هـذا الخطأ نتيجة لعدم المبالاة والاستهتار بالعـدو وكادت تقترف خطأ لهجوم عليه بالمواجهة ، لولا تغييرها للخطة فى اللحظة الأخيرة أو ارتجال خطة الالتفاف والسـير الطويل المرهق على مرأى من العدو . كل هـذا مخالف للقوانين الأولية لفن الحـرب . وصحيح أن إبراهيم ترك بعض قوّاته فى مزار ولكن قام كل الجيش بحركته التى وصفناها من غير أن يفكر فى حجز قوة كبيرة من جيشه كاحتياطى له إذا لم تنجح خطته التى اعتمد عليها فى تحطيم شوكة العدوّ نهائيا وكانت يقظة سليمان باشا و إشرافه الدقيق على تنظيم الوحدات ، فى خلال سيرها ، وتحمل الجنود أعباء السير المرهق ، بدون توقف ، وتحت حرارة تتفاوت بين ٣٥° و ٤٠° عملا رائعا يستحق الثناء والمديح .

و يا ليت هـذه المحنة القاسية قد انتهت لدى هـذا الحد ، فإن الجيش ما كاد يصل إلى قنطر هرجون حتى أراد إبراهيم أن يهجم على العثمانيين و ينتهى منهم ، فى ظلام الليـل البهيم ، و يعبر نهر كرسين وهدفه الوصول بقوّاته إلى الضفة الشمالية من النهر ، وهـذه جرأة تدهش أىّ قائد سـوى إبراهيم . فقد اعتاد على أن يأتى بالمعجزات ، ضاربا صـفح الحائط بقوانين الميـدان ، وأحيانا بنفسية الرجال . وهو خير ما يتصف به ابراهيم ، البطل الجبار . .

وخطأ آخر ارتكبه قائدنا المظفر ، فانه فى اليوم السـابق للعركة و يوم المعـركة لم يؤمن على قوّاته . وكان يقذف بها كلها بدون حيطة أو حذر . ولولا أن السرعسكر كان أكثر جرأة ، وتناول الموقف بشىء من الصبر لدار رحى القتال دورة أخرى .

وعندما ارتجت صفوف الميمنة المصرية ، وكادت تفقد العنان ، لولا تدخل المدفعية الكبيرة العيار ، التى صبت نيرانها الحامية فوق الأكمتين ، على ميسرة الترك

والقلب . وفى هــذه اللحظة أثبت السرعسكر أنه أضعف من خصــمه ابراهيم ولم يفعــل شيئا حيال ثبات رجال المدفعية المصرية ، وراحت من يديه فرصــتان : الأولى فى بداية نزول القوات المصرية فى مزار، والأخرى فى أثناء تحركها الطويل الى هرجون .

وكان حافظ يؤمن بعقيدة الدفاع كما أمنت بعده بمائة عام (١٩٣٩) رئاسة هيئة أركان حرب الجمهورية الفرنسية بخطة الدفاع فى خط ماجينو . ولو أنه قام بعمل مناورة صغيرة فيها شيء من المجازفة لارتد بجيشــه إلى بيره وقضى على خطة ابراهيم المرتجلة — وكان جيش مصر لا يحمــل معه إلا مؤونة يومين ! . . ولكنها جرأة ابراهيم وبطولته أنقذتاه وقادتاه الى الظفر الحلو . وكان فى مكنة حافظ باشا الرجوع الى وراء الفرات والامتناع به كحاجز ومانع ضد عدوه بيد أنه لم يفعل شيئا من هذا قبالة المفاجأة المصرية .

أليست المفاجأة من أهم مبادئ الحرب الخالدة ، التى اكسبت كثيرا من القادة شهرة الذائعة فى التاريخ ! ؟

لم يحفل حافظ باشا بنصائح ضباطه البروسيين ، وفضل أيسر الخطط ، التى تدور فى رأس أى قائد — هذه الخطة هى التى رأيناها قــد نفذها ، وهى ادارة صفوف الجنود من الغرب إلى الشرق ، وعمــل استحكامات خفيفة لم تغن شيئا قبالة الطوفان المصرى .

ويا ليته لم ينس وضــع بعض قواته الخفيفة لدى رأس قنطرة هرجــون لكى تقاوم الطلائع المصرية بعض الوقت ، ولكى يفيــد فى خلاله بعمل شىء هام — لم يفعل شيئا من هذا أيضا بيد أنه قنع بالركود فى مواقعه الجديدة وانتظار المكتوب فى القــدر ، عملا بمواعظ رجاله المولوية والبكتاشية حملة القماقم ولابسى الطراطير والقفاطيــن ! !

لنطالع ما ارتكبه ابراهيم مرة أخرى من مخالفة لقوانين الميدان المقدسة لدى الجند ! — قبل ابراهيم المعركة متجها بقواته نحو الغرب والى ميسرته نهر كرسين والى خلفه الفرات الكبير . وفى هـذا الوضع الحرج لم تك له خطوط تقهقر يرتد عليها عند اللزوم . وقد يرد على هذا النقد معجب بابراهيم قائلا ومتى عرف ابراهيم القهقرى ؟ إن هـذه الكلمة لا وجود لهـا فى عبقريته الشامخة ولكنا — ونحن من المحافظين — نرى أنه ينبغى ألا يهمل القائد التفكير فيما سيحدث أو لا يحدث بيد أننا نحمد العاقبـة — بعد أن رأينا خصمه يقف موقفا سلبيا — ولولا هـذه السلبية مرة أخرى لمـا توج النصر هامة أبطال نزيب .

والراهن أن اعتماد إبراهـيم اعتمادا كليا على ميمنته جعل خطته هشة ، سريعـة الكسر، لو لم يك حافظ باشا قبالته. ولكنها المدفعية مرة أخرى هى التى انتشلت الموقف . فقد كان المدفعيون هم رجالات نزيب ، الذين نحيي ذكراهم ، ونحنى لهم رءوسـنا ، ولا ننسى معهـم نشاط سليمان وحنكته فى سرعة إدارة المعـركة وتوجيهها .

لقد وقع عبء القتال برمته على الميمنة ومدفعية المصريين. أما القلب والميسرة فكان نصيبهـا فى المعركة عادى للغاية ، ولا نستطيع أن نقول بأن قواتهما اشتركا فى اللحظة الحرجة .

ولم يفـد حافظ باشا من أخطاء خصمه إبراهـيم ، ولو مرة واحدة ، حتى فى أسهل المواقف عندما ابتدأت ميسرة المصريين فى الفتح ومعاونة الميمنة — كانت أمام حافظ باشا فرصـة أضاعها بسلبيته وفقده روح القتال . ولولا ذلك لتسنى له بميمنته القضاء على ميسرة المصريين. لكنه لم يفعل شيئا ولم يفكر فيما يعرف باصطلاح الهجوم المضاد، نظرا لأن المفاجأة والجرأة والمبادأة أيضا ، وهى من عناصر نجاح إبراهيم ، غلبته على أمره ، وقضت على جيش السلطان .

ونلخص موقف حافظ باشا فى العبارة التى وصفه بها المارشال فيجان وهى :

"Il a maintenu son armée dans une immobilté passive, il a soumis ses Jeunes recrues a l'epreuve la plus rude que puissent supqorter des troupes non aguerries, se faire tuer sur place. Dans ces conditions le dénovement etait fatal".

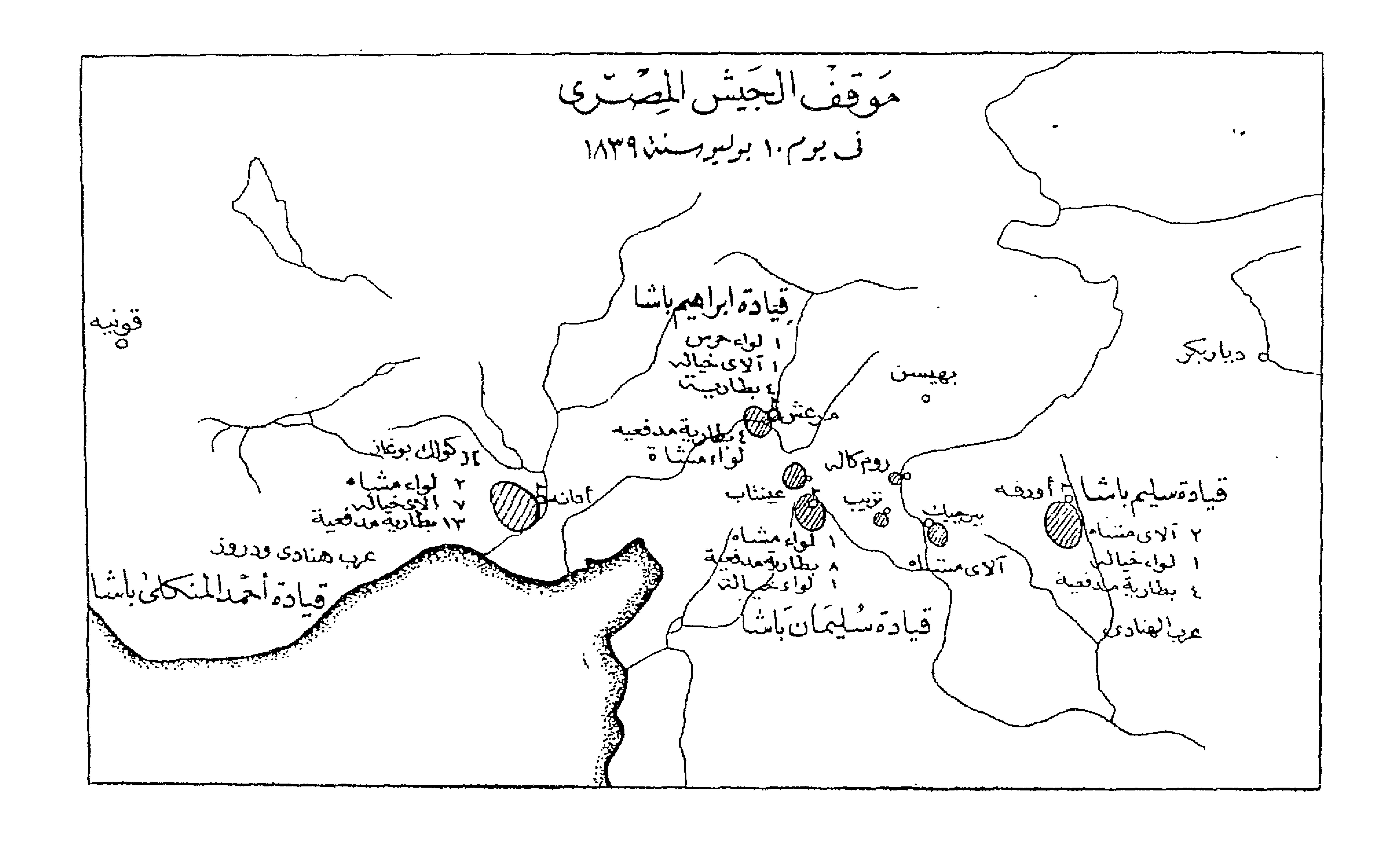
والخلاصة ، فبالرغم عن النصر وعن نتائج نزيب فى السياسة الدولية ، فانها لا تعدّ ظفرا عسكريا فنيا لإبراهيم من طراز معارك حمص وقونية ، حتى فيما يعود على المشاة . لأن الفضل فى النجاح يعود — ولا مراء — إلى المدفعية — والمدفعيون من وراء مدافعهم الثقيلة . فكأن المشاة قد اعتمدوا على ما جنوه من شهرة مضت . حينما أدّوا واجبهم فى سلاح المشاة ، ملكة الأسلحة فى معركتى حمص وقونية .

وليس معنى هذا النقد انتقاص من قدر القائد إبراهيم . كلا ، فان أعمال إبراهيم فى ميادين الحروب والإدارة قد سجلها التاريخ بمداد الفخار والإطراء. والنقد فن ليس هناك أيسر منه . أما قيادة الجند والظفر بهم فى ساحات القتال ففنّ لا يجيده إلا طراز فريد من الرجال ، بل أقرب إلى الرسل والقادة والمصلحين ، الذين تبخل بهم الدنيا وقلما يظهرون على مسارح العالم إلا نادرا .

خاتمة النصر

فى مساء يوم نزيب ، يممت فلول الأتراك المحطمة الى مرعش ، وفرّ بعضها نحو الجبال شمال بيره جك ، ومضى حافظ باشا فى طريقه الى روم كاله وبهينة ، لعله يجمع أشتات قوّاته فى مالطية .

وكان الجيش المصرى قد أنهكه القتال ، فسمح ابراهيم لجنده بالراحة يوما . وفى السادس والعشرين من يونيو غادر قائدنا نزيب تصحبه ثلاثة آلايات من المشاة وبطاريتان وعرب الهنادى ، وقصد بيره جك التى كان يحميها آلاى من



موقف الجيش المصري
في يوم ١٠ يوليو سنة ١٨٣٩
قونيه
قيادة ابراهيم باشا
١ لواء حرس
١ آلاي خياله
٤ بطارية
مرعش
٤ بطارية مدفعيه
لواء مشاة
بهيسن
ديار بكر
كولك بوغاز
٢ لواء مشاه
٧ آلاي خياله
١٣ بطارية مدفعية
أدانه
عرب هنادي ودروز
قيادة أحمد المنكلي باشا
روم كاله
عينتاب
نزيب
بيرجيك
١ لواء مشاه
٨ بطارية مدفعية
١ لواء خياله
آلاي مشاه
قيادة سليمان باشا
قيادة سليم باشا
أورفه
٢ آلاي مشاه
١ لواء خياله
٤ بطارية مدفعية
عرب الهنادي

مشاة الترك ، فولى هؤلاء الأدبار مذعورين حينما اقترب منهم المصريون ، وغنم الأخيرون ٣٥ مدفعا من العيار الكبير . ولم يمكث ابراهيم كثيرا حتى سلم قيادة القوة إلى القائمقام معجون بك ، قائد الهنادى ، وأمره بالاستيلاء على مستودعات التعيين والعتاد فى أورفة (شرق بيره جك) وارتد هو وبعض الخيالة الى نزيب .

وفى مساء السابع والعشرين ، قام ابراهيم على رأس أربعة آلايات مشاة وستة خيالة وست بطاريات فى تجاه مرعش ، التى مرت بها فلول العثمانيين ، وفى صباح ٢٨ دخل عينتاب . وحين أقبل مساء ٢٩ عسكر فى اينجاسو يو ، شمال غربى عينتاب ، وكانت خطة ابراهيم فى القضاء على العثمانيين أن يتجه سليمان باشا إلى مالطية وأورفة فى الشرق ، بينما يتجه هو بقواته من أدنة إلى قونية ، عن طريق مضيق طوروس .

وبينما يرتب ابراهيم خطته فى اينجاسو يو ، وصل كابتن كابيه ، رسول الحكومة الفرنسية . يحمل خطاب محمد على المؤرخ فى ١٦ يونيو لابنه ، الذى يقول له فيه ما معناه ، " إلزم مكانك ولا تتقدم " .

العودة إلى كابتن كابيه رسول فرنسا :

ذكرنا ضمن الحوادث الممهدة لمعركة نزيب وصول هذا الضابط الى مصر ومقابلته لمحمد على ثم سفره على التو لملاقاة ابراهيم فى الميدان ، فوصل الى معسكره بعد أن تصرمت معركة نزيب .

وعقب أن رحب به ابراهيم ، قال الكابتن إنه قد سافر ليلا ونهارا لكى يكون أول مهنئيه ! ! ثم أمسك عن الحديث برهة ، الى أن قال :

" إننى أحمل اليك خطابا من أبيك " .

فسر ابراهيم حين أصغى الى هذا النبأ ، وفض خاتم الرسالة من فوره . وما كان أشد أسفه إذ تلا فيها أمرا من أبيه بوقف تقدم الجنود . ومن ثم لم يتمالك نفسه وصاح غاضبا :

" هذا محال ، لقد كتب هذا الخطاب قبل أن ننال النصر فى نزيب ، إن هذه الموقعة وما سبقها من تحرش بنا يبطلان هـذه الأوامر — ولذلك لن أعمل بها ، وسأتحمل تبعة عصيانها " .

لقد حزن إبراهيم . وحاول كاييه أن يجادله ليقنعه ... فراح يؤكد له معارضة أوروبا فى قيام الحرب وأشار إلى أوامر محمد على ، والى تدخل الدول الكبرى . بيد أن القائد أبى أن ينصت إلى هذه الحجج وأجابه بقوله :

لقد درست التاريخ أليس كذلك ؟ فهل سمعت مرة أن قائدا منتصرا وقف عن مواصلة زحفه ، إن كنت قد سمعت بذلك فأنا لم أسمع به .

وحاول هـذا الرسول الملحف أن يؤثر على إبراهيم ، ولكن عبثا جاهد ، فقـد ضاعت خمس ساعات فى هـذه المقابلة دون أن تحدث المعجزة . وفى فجـر اليوم التالى ، وقف كاييه على الأرض وأطلق للسانه العنان بينما كان يستعد إبراهيم للخروج من خيمته ، فاضطر آخر الأمر الى القول : " لست أريد أن أدعوك الى الخروج ولكننى أقول لك إنك اذا ظللت تتحدث إلى عشر سنين طويلة فلن تستطيع أن تحولنى عن رأيى " .

ويقول كرابيتس كاتب سيرة إبراهيم[1] — وهنا قدر إبراهيم فأخطأ التقدير ، لأنه بقوله هذا كان يحكم على المستقبل .

ولم يك كاييـه يجهل فهم عقلية إبراهيم — إذ اعتزم فى حديثـه هذه المرة أن تكون رغبات محمد على هى المحور الذى يدور عليه كل حديثه — وأن لا يذكر شيئا عن الدول إلا النذر اليسير .

ولم يك فى مكنة إبراهيم أن يتغلب على هذه الخطة ، لأن حبه لأبيه لم يك حبا عاديا . وإنمـا كان شغفا بل تيما بل دينا . ولم يك يستطيع أن يسلك سبيلا قـد

(١) الترجمة العربية ص ٢٤٨ — محمد بدران .

لا يرضى عنها محمد على . وما كان هـذا لخوف منه بل لحب فيه — ولهذا انحلت عرى مقاومته وهو واقف على قدميه وجواده المحبـوب يحث الأرض بحافره على قيد بضع خطوات منه . وعندئذ أجاب كايبـه الى ما طلب ، ورضى أن لا يعبر جبال طوروس ، وأن تقتصر أعماله الحربية على احتلال مرعش وأورفة . وهمـا نقطتان لا غنى عنهما لضمان تموين جيشه . ولم يتحرك من مكانه ، حتى أمر أن يوفد رسولا ليلحق طلائع جنوده ، ويحول دون زحفهم (١) . فعل ذلك إبراهيم وهو أسف جل الأسف على ما فعل ... فعله فى ساعة النصر ، لأنه لم يشأ أن يثير المتاعب لأبيه .

وكان رضاه وموافقته بداءة نكوص محمد على قبالة تهديدات الدول الأوربية ، التى لا تبتغى للشرق سوى الخمول والمتاعب .

* * *

وكانت أهمُ مراكز الجيش العثمانى آنذاك فى قونية ومالطية : كان فى الأولى ٢٥,٠٠٠ جنـدى وحوالى ٤٠ مدفعا ، وكان فى الثانيـة حوالى ٢٠,٠٠٠ جندى و ٢٠ مدفعا .

أما موقف الجيش المصرى فى أول يوليو ، فكان كالآتى :

(١) فى أورفة : ثلاثة آلايات مشاة (٩,١٤,٢٦) بقيادة سليم باشـا ، وقد انفصل آلاى منها لحراسة بيره جك ، ولواء خيالة (الآلايان ٢ و ٨) و ٤ بطاريات مشاة وعرب الهنادى وكتيبة احتلت نزيب وأخرى فى روم كاله (قلعة) .

(٢) فى عينتاب : قيادة سليمان باشا بعد عودته من أورفة وتحت قيادته — لواءان من المشاة (آلاى الحرس والآلايات ٦ و ١٧ و ٣٤) وأربع بطاريات من الحرس ومثلها بطارية مشاة .

(٣) فى مرعش — قيادة ابراهيم باشـا ومعه الآلايان ٢ و ٣ من الحـرس والآلاى ١١ الرماحين — ٤ بطاريات خيالة (آلاى مدفعية الحرس) .

---

(١) كادلفين و بارو — تاريخ الحرب بين محمد على والباب العالى .

ولحماية خطوط المواصلات فى إنجاسو يو — بين مرعش وعينتاب — قلم لواء المشاة (الآلاى ١١ و١٣) ومعه بطاريتان بتلك المهمة ولحراسة ممر ألما داج .

(٤) وفى أدنة — تجمعت تحت قيادة أحمد المنكلى باشا قوة كبرى لمراقبة مداخل مضيق طوروس فى تجاه أركلى وقونية — وكانت تتألف من :

لواءان مشاة (الآلايات ٥ و ١٤ و ٣٠ و ٣١) و ٧ آلايات خيالة (رماحة الحرس والآلايات ١ و ٤ و ٦ و ٧ و ١٠ و ١٣) و ١٣ بطارية وقوة من الهنادى والدروز .

وعلى ذلك يلاحظ أن معظم الوحدات المصرية كانت متجمعة بين عينتاب وأدنة — وكان مركز ثقلها فى مرعش — وكانت جبهة أورفا — ملطية ثانوية ، وللأتراك فى مالطية حوالى عشرة آلاف .

وكانت قوات الجيش المصرى فى الشام ٣ آلايات مشاة (الآلاى ١٨ فى بعلبك و ٢٥ فى دمشق و ٣٥ فى عكا) وآلاى خيالة (١٢ رماحين) فى بعلبك .

ولا يخفى أن هذه الوحدات لم تك مرتباتها الحربية كاملة ، فقد نقصت كثيرا . وعلى ذلك لم يتجاوز جيش ابراهيم الرقم ٤٦٠٠٠

بينما كان يجرى هذا فى الأناضول وقع حادث هام للغاية — ففى ١٤ يوليو سلم أمير البحر أحمد فوزى باشا ، قائد الأسطول العثمانى ، وعدو خسرو باشا ، جميع سفنه الى محمد على باشا فى الميناء الغربى بالإسكندرية . وكان هذا الأسطول يتألف من ٢٠ بارجة تحمل ٢١٠٠٠ بحار و ١٦٠٠٠ من الجنود .

ومن هذا يتبدى أن السلطنة فقدت فى أيام ، جيشها وأسطولها وسلطانها ! فياله من موقف حزين عصيب .

* * *

كان يتعين ، بعد إيقاف ابراهيم عن التقدم ، إقرار مصر فى حدودها التى استحوذ عليها بمقتضى اتفاق كوتاهية ، أى أن تشمل سورية وبلاد العرب وأدنة

وكريت . ولكن أوروبا لم تعامل مصر بمثل العطف الذى عاملت به اليونان في ثورتها على تركيا . وكان انتصار مصر فى معركة نزيب سببا فى تقلقل التوازن الأوروبى والمسألة الشرقية، فوقفت الدول الكبرى مواقف متباينة، تبعا لأطماعها ونزعاتها، بل لقد جاهرت علنا انجلترة بعدائها لمصر وأعلنت وجهة نظرها فى وجوب المحافظة على كيان السلطنة العثمانية .

هذا و بينما رجال الباب العالى يعملون لإصدار فرمان لتحقيق اتفاقية كوتاهية اجتمع ممثلو الدول الخمس فى الآستانة (بروسيا وفرنسا وانجلترة والنمسا وروسيا) وأرسلوا مذكرة الى الباب العالى أعلنوا فيها أن الاتفاق بين الدول الخمس الكبرى أصبح أمرا واقعا، وأنها تدعو الباب العالى ألا يبرم اتفاقا من دون أخذ رأى الدول .

واتفقت انجلترا وروسيا على تحطيم قوة مصر الخارجية وانتزاع الشام من محمد على وحرمانه من فتوحاته التى أنفقت مصر فيها أموالها ودماء أبنائها تسع سنوات .

وعجل بالمرستون بالاتفاق مع مندوبى روسيا والنمسا وبروسيا (ما عدا فرنسا) على الوقوف فى وجه محمد على — وأمضوا معا فى لندن معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ وأهم شروطها تتلخص فى أنه إذا خضع محمد على " فى خلال عشرة أيام " ورد كريت والأماكن المقدسة ببلاد العرب وأدنة والشام أعطته الدولة ولاية مصر وراثية وولاية عكا مدة حياته، وإلا أخضعته الدول بالقوة ، ونظرت فى أمره من جديد .

رفض محمد على هذه الشروط ، وطفقت الصحافة الفرنسية تندد بالسياسة الانجليزية ، وكادت تشتعل الحرب من جراء المسألة المصرية .

وذهبت فى أثناء ذلك أساطيل الحلفاء وحاصرت سواحل الشام ثم استولت عليها، وانتشرت الفتن فى الشام ولبنان، بفضل رجال المخابرات الانجليزية — فاضطر محمد على أن يرسل لابنه أمرا بالانسحاب من الشام .

أصدر إبراهيم أوامره الى جيشه فى التاسع والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٤٠ بالجلاء ، وقد كان يؤلف من ٥٥,٠٠٠ جنـدى بصحبتهم ١٥٠ مدفعا، وكان يتبع ذلك الجيش نحو سبعة آلاف من الأسرات والأتباع . بدا الحشد فى حلب، وبعد ستة أيام من خروج إبراهيم باشا من دمشق، أعيد حكم السلطان .

وفى المزيريب (شرقى بحيرة طبرية) ارتاح الجيش ثلاثة أيام، ولكن مما يذكر أن البرد كان شديدا . وقـد قسم إبراهيم جيشه الى خمسة أقسام : أحدها بقيادة أحمد باشاالدره مللى والثالث بقيادةأحمد باشا المنكلى ،والرابع بقيادة سليمان الفرنساوى ، والخامس بقيادته . وعين للقسم الأول طريق شرق الأردن الى غزة والعريش ، والثانى طريق الحج ومعان فالعقبة ومنها الى نخـل والسويس ، أما هو وكان قسمه مؤلفا من الحرس وعرب الهنادى والباشبوزق بجعل وجهته غزة ليركب منها البحر الى مصر، وتمكن إبراهيم بحسن خطته ، ودقة نظام جيشه ، ونشاط ضباطه، من أن يلعب بقواد الحلفـاء الذين كانوا يتربصون له فى الطريق، وأن يفلت من بين أيديهم، حتى قالوا فى وصف ارتداده ورجوعه سالمـا، أنه ربح أكبر معركة سلمية بالارتداد، وقد تحمل جيش ابراهيم متاعب جدّ كبيرة لايحتملها جيش آخر لأنه كان يسير فى الصحراء القليلة المـاء والزاد، حتى اضطر الجنود الى التهام لحوم الخيـل ، وأن يعيشوا أياما على عشب برية ، وكانوا قبـل وصولهم الى السـواحل فى غزة أو العقبة يكافحون الجوع والعطش وقطاع الطرق .

وفى الخامس والعشرين من يناير، وصل القسم الأول من جيش ابراهيم الى غزة أما جيش سليمان فانه سار على طريق الحج وكان يحسب أنهم سيرسلون اليه من مصر، بطريق صحراء السويس، الزاد والمـاء، ولكن خاب أمله .

وصل إبراهيم الى غزة فى الحادى والثلاثين من يناير، وأرسل الى والده يسأله بعض حاجيات الجيش فبعث بهـا إليه ، ثم غادر آخر جندى غزة فى ١٩ فبراير عام ١٨٤١ .

ومن المحزن أن الجيش — فى خلال انسحابه من الشام — فقد ما لا يقل عن ثلاثين ألفا. وهكذا عاد جيش مصر بعد أن حظى بالمجد والظفر فى أربع معارك كبرى، ولو شاء وشاءت السياسة لجعل لمصر حقها الوسيع فى الحياة.

عاد الجيش الى وطنه — وكان جيشا لم تعرف صفوفه الهزيمة مرة واحدة — على رأسه قائد شاركه فى جل أطواره، لم تنقصه القريحة العسكرية. وكفى محمد على من ذكرى خالدة أنه استطاع فى اثنى عشر عاما فحسب أن يضع تحت إمرة ابنه جيشا مصريا مؤلفا من مائتى الف جندى فى دولة ناشئة لم يتجاوز عدد سكانها الأربعة ملايين.

والراهن أن عمله كان شبيها بمعجزة من المعجزات!

ابراهيم القائد

الآن وقد انتهينا من كتابة هذه السطور. نرى لزاما علينا أن نستوفى البحث فى عدة أسطر، عن إبراهيم القائد، تقديرا بل وفاء لهذا الجندى الباسل، الذى كان المنفذ الفريد لسياسة أبيه، فى إقامة دولته العتيدة.

ولعلنا قد وقفنا على النجاح الذى أصابه ابراهيم فى جل المعارك، التى حاربها ضد قادة جيوش الترك، واختمر فى رؤوسنا أنه قائد من طراز نادر. لقد أكمل مشروعات أبيه فى خلال حياته وليس كاسكندر الأكبر عقب انقضاء فيليب. وفضلا عن ذلك، فان سجايا الجندية الكاملة قد تأصلت فى ابراهيم كما رأينا.

كانت لابراهيم قدوة عجيبة على "فلوذة" جنوده — نعم يجعلهم كالفولاذ فى الصلابة والصمود قبالة أعدائهم، فلا يلينون له، أو يهزمون أمام إرادته. وقد كان لقوة تأثيره عليهم، وضربه المثل لهم أكبر ضمان للظفر الذى كلل هامتهم، فى كل معركة قاتلوا بشجاعة فيها. لا يرضى أن يعمل أحقر رجل فى جيشه ما لا تطاق نفسه هو على عمله. يطيعه الجميع، ويخشونه أكثر من سواه، لأن فى يده العقاب، ومع ذلك التفت حوله قلوب الجند. كنت تراه فى حروبه دائم اليقظة

كالصقر لا يغفل عن الرقابة ، يدهش الأفراد بسرعة تنقله بين الصفوف ، دون أن يشعر به أحد . لا يحيط به فى حله وارتحاله سوى أربعة أو خمسة من رجاله — وكثيرا ما ينام على الثلج فى العراء ليضرب بذلك القدوة لغيره — وهو حدب على جنوده يعطف عليهم ويحادثهم ويشجعهم ، ويصغى الى قصصهم ، ويبث فى قلوبهم الشجاعة ، ويشاركهم فى شعورهم ، ويجلس معهم فى مضاربهم. ولكنه لا ينسى قط مقامه . وكان يثنى — دواما — على الأمة التى أنجبتهم ، حتى صاروا يحسبونه درعا يحتمون به من بعض ضباطهم الترك وبلغ من أمرهم أنهم كانوا أحيانا يرفضون تنفيذ أوامرهم ويقولون أنهم سيرفعون أمرهم الى ابراهيم .

ولما كان ابراهيم يعرف أنه بطبعه حاد المزاج ، سريع الغضب ، فانك تراه أحيانا إذا استثير يمشى ذهابا وجيئة ، ويشم السعوط ويطلب " الشبك " كأنه يهدئ بهما أعصابه ، قبل أن يصدر أوامره .

ترى ابراهيم ، فى ميدان القتال ، رابط الجأش لا يفارقه هدوءه إذا دنت ساعة الخطر فى الميدان .

لم يسلم خير القادة وأعقاهم من الخطأ ، وقد لامه الكثيرون من الكتاب الأوروبيين أو الحاسدون . ونقول أن إبراهيم لم يك معصوما من الخطأ ، فان له أغلاطه ، ولكنه لم يك بالرجل الجلف ولا الهمجى الجاهل المتلهف على المعالى . وكان يحظى بكل المزايا المرغوبة لقيادة الجند فى الشرق .

وصفوة القول أن الصفات التى تميز إبراهيم بها تتجمع فى الشجاعة النادرة ، وفى القوة البدنية الهائلة ، وفى النشاط الجم والحظ والتوفيق ، وسط الأخطار المحدقة ، والحيلة الواسعة ، والهدوء ، وضبط النفس فى أحرج الأوقات وأشد الأخطار ، والقدرة الهائلة على كتم عواطفه ومشاعره .

وطبيعى أن بعض هذه السجايا كانت تنقلب فى بعض الأحايين الى نقائضها : فكان فى بعض الفترات جريئا مخاطرا فى البداية — وهو الذى عرف بشدة الحذر.

وكان قاسيا ولا سيما حين لم تك السياسة تملى عليه الحلم والعفو، وحين كان لا يخشى الرأى العام الأوروبى . وكان إبراهيم — فضلا عن ذلك — وثيق الاعتداد بنفسه، لا يلقى الى النصيحة أذنا صاغيـة ، ولا يحفل بآراء الآخرين ، اللهم إلا إذا وجد فى مأزق صعب وأزمة خطيرة . كما أنه فى بعض الأحيان يسرف فى الوعود إبان الأزمات التى كانت تمر به ، ثم ينسى هـذه الوعود بعـد ذلك ضاحكا من بساطة الذين خدعهم بها . وهكذا نرى إبراهيم يجمـع بين طرفى النقيض . وكان من رجال المتناقضات ، والحـق أن سحنته كانت تشهد بالهـدوء والطيبة فى أوقات سروره، بيد أنه إذا ما قطب جبينه تبدى على وجهه طابع القسوة والشدّة والاستهانة بكل شىء . وكان أقل الأسباب كافيا لإحداث هذا التغيير فى سحنته من الطيبة الى الشدّة وكان ذلك يبعث الرعب فيمن حـوله — وكان صـوته قاصفا لا رنين له ويلوح فى بعض اللحظات كزئير الأسـد . ولم يك يستطيع أن يقرب منـه دون وجل إلا القليل من أقاربه ، وكان الكل يخضعون لنفـوذه . وكانت شخصيته وحدها خليقة ببعث هذا الاحترام . ولم يك الباعث عليه رتبتـه ونفوذه وحسب . وكان يعرف كيف يستغل الرجال فكان يداعبهم ويقربهم إليـه إذا اقتضى الأمر . وكان يعرف كيف يشجع جنوده ويحملهم على مجابهة أشد الأخطار بشجاعة مثلى . وكان وجوده شديد التأثير فى قدرتهم على القتال .

وكان يستطيع أكثر من أى شخص آخر أن يسـتغل فى القتال الموارد القليـلة الموجودة فى البلاد . و إذا كان فى بعض الظروف يلجأ إلى التخريب — كما حدث فى معارك المورة — فإن ذلك كان فى الضرورة القصوى — وكان إبراهيم فى ذلك الميدان أكثر اعتدالا من غيره من القادة .

ففى البلد الذى لم تدله أى أداة إدارية، ولم يك فيه أى فرع من فروع الإدارة الحكومية المنظمة، استطاع إبراهيم أن يخلق كل شىء وأن يعمل كل شىء بنفسه . وكانت الثقة تحل أينما ظهر .

قاد إبراهيم الحملات العسكرية التى تمت فى عهد أبيه، وقد شهدنا كم من القادة الأتراك ولّاهم السلطان قيادة جيوشه، بيد أنهم لم يفوزوا من إبراهيم بطائل — ذلك لأنه كان من « عيار » ممتاز نادر .

امتاز بالكفاية والمقدرة والخبرة بأساليب حروب العصابات والحروب المنظمة، بالرغم عن عدم تمسكه بقوانين القتال المدونة فى كتب عصره . بل قل كان يثور عليها ولا يتبعها، لأن فى طبيعته الشيء الكثير مما يضمن النصر، ويحقق أغراض الحرب .

كان يفكر فى الأمر، ثم يعزم عليه، ثم يعمل، واضعا نصب عينيه مواطن الضعف من عدوه، وبجيشه من تلك الناحية، فيوجه اليه الطعنة القاتلة . كان يعرف إبراهيم — دواما — مقدرة خصمه، سواء أكانوا من سكان البوادى أو الأناضول أو أوربا أو بلاد الاغريق، ولذلك أحرز النجاح فى أشتات مشروعاته .

كان لا يقدم على قتال عدوه إلا إذا أكمل حشد الجنود ووضع ترتيباته الادارية وشرح لهم خطته ثم ينزل عليه بضربته القاصمة، بينما يشرف أثناء القتال على أن كل وحدة تنهض بتنفيذ نصيبها فى المعركة على أكمل وجه — فإذا شاهدها تخيب رجاءه — بادر باصلاح الموقف بما يتطلبه من نقل جنود أو معاونة بالمدفعية أو احتلال موقع دفاعى مؤقت لستر خطة الهجوم المضاد فى الوقت المناسب . ولذلك كان يفضل دائما أن يكون فى طليعة جيشه ليشرف بنفسه على المعركة، وليرقب مواطن الضعف من عدوه، و يوجه إليها ضربته القاضية .

هذه هى صورة لقيادة إبراهيم الكبير، ولعلنا قد وقفنا فى وصف الجانب الهام منها فنكون قد أدينا بعض الواجب فى مناسبة مرور مائة عام على وفاته، رحم الله البطل، وطيب ثراه، وأسكنه فسيح جناته ...

المـــراجع

ليت كان الوقت متسعا للاستعانة فى كتابة هذا الموضوع — بالوثائق المودعة ضمن المحفوظات التاريخيــة فى قصر عابدين العامر — ولقــد كان معجم الأستاذ أســد رستم لوثائق الشام (٤ أجزاء) خير مساعد لنــا للوقوف على أهــم الوثائق التاريخية التى تتعلق بحروب الشام — فرجعنا لها مع اعداد الوقائع المصرية .

وكانت أمنيتنا أن ننشر فى ملاحق هــذا الموضوع صور أهم الوثائق ولا سيما التى تتصل بمنشورات الجيش وتقارير المعارك . . الخ ولكن المجال لم يكن فسيحا فانتفعنا بها فى متن الموضوع كما يتضح للقارئ .

وفيما يلى ثبت بأهم المراجع العربية التى أفدنا منها — ولأصحابها الشكر الجزيل :

(١) أسد رســتم .

الأصول العربية لتــاريخ ســورية فى عهد محمد على باشا ٥ مجــلدات بيانات بوثائق الشــام وما يساعد على فهم مقاصد محمد على باشا الكبير

(٢) أمين سامى باشا .

(٣) ادوار جوان وترجمة محمد مسعود .

مصر فى القرن التاسع عشر .

(٤) الفريق اسماعيل سرهنك .

حقائق الأخبار عن دول البحار ٣ أجزاء .

(٥) الخورى بوليس قرالى .

فتوحات ابراهيم باشا المصرى فى فلسطين ولبنان وسوريا .

(٦) داود بركات .

البطل الفاتح ابراهيم باشا .

(٧) عبد الرحمن الجبرتى .
عجائب الآثار فى تراجم الأخبار .
(٨) يوزباشى عبد الرحمن زكى .
الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير .
(٩) عبد الرحمن الرافعى .
الحركة القومية ج ٢
(١٠) الأمير عمر طوسون .
صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على .
مقالات هامة فى مجلة الجيش المصرى .
خرائط ومصورات
(١١) كلوت بك وترجمة محمد مسعود .
لمحة عامة فى تاريخ مصر ج ١ و٢
(١٢) كرابيتس وترجمة محمد بدران .
إبراهيم باشا .
(١٣) كريم ثابت .
محمد على .
(١٤) ميخائيل مشاقة .
مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان .
(١٥) محمد رفعت .
تاريخ مصر السياسى فى الأزمة الحديثة .
(١٦) محمد قاسم وحسين حسنى .
بتاريخ القرن التاسع عشر .
(١٧) محمد شفيق غربال .
محمد على — سلسلة أعلام الإسلام .

المراجع الافرنجية :

(1) **Cadalvene et Berrault :** Histoire de la guerre de Mehemet Ali Pasha contre la Porte Ottomane en Syrie et en Asie Mineure.

(2) **Cadalvene et Berrault :** L'Egypte et la Turquie de 1829-1836 2 Vols.

(3) **Guemard, G. :** Les Reformes en Egypte 1760-1848.

(4) **Hamont, P. N. :** L'Egypte sous Mohammed Ali, 1845.

(5) **Mengin, F. :** Histoire de L'Egypte sous le Gouvernment de Mohammed Ali. 2 Vols. 1823.

(6) **Moltke, Helmuth Von :** Briefe uber Zustands und Begebenheiten in der Turkie aus dem Jahren 1835.

(7) **Mouriez, P. :** Histoire de Mehmet Ali. 1857. 4 Vols.

(8) **Paton, A. A. :** A History of the Egyptian Revolution. 1863. 2 Vols.

(9) **Phillips, W. A. :** Mehmet Ali; "The Cambridge Modern History Vol. X, Chapter 17."

(10) **Planat, J. :** Histoire de la Régéneration de L'Egypte.

(11) **Puckler-Muskau, Prince :** Egypt under Mohammed Ali, 1845, 2 Vols.

(12) **Rustum A. J. :** The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria (1830-1841).

(13) **Sabri, M. :** L'Empire Egyptien sous Mohammed Ali.

(14) **Shafic Ghorbal :** The Beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali, 1928.

(15) **St. John, J. A. :** Egypt and Mohammed Ali, 1834, 2 Vols.

(16) **De Vaulabelle, A. :** Histoire Moderne de l'Egypte, 1801-1834.

(17) **Vingtrinier, A. :** Soliman Pacha, Coll. Sèves., 1860.

(18) **Weygand :** Histoire Militarie de Mohammed Ali et ses Fils, 1936, 2 Vols.

